سردم العربي

فصلية تعنى بالتواصل الثقافي الكردي - العربي

تصدر عن دار سردم للطباعة و النشر
السنة الثامنة - العدد (31) صيف 2011

موقع المجلة على الانترنيت
www.serdam.org
المراسلات
تلفاكس: 00447043129839
ايميل
info@serdam.org
او عن طريق المشرف على التحرير
danaahmad78@yahoo.com
موبايل: 07701551153

تصميم الغلاف: آرام علي   المصمم المنفذ: بختيار أورحمن
المشرف على الطبع: فرهاد رفيق

محتويات العدد

المقال الافتتاحي

خطوة اخرى نحو تواصل كردي-عربي

بسقوط النظام البعثي استعاد العراق مجده ليبدأ مرحلة جديدة من التواصل بين الشعوب والثقافات والاديان والمذاهب التي لم تجد ارضية مناسبة من قبل للحوار والتواصل. لذلك فان اول ما تتطلبه هذه المرحلة هو توثيق اواصر ذلك الحوار الذي يتطلب اول ما يتطلب الغاء العنف في حياتنا، سواء كان عنفا سياسيا ام اجتماعيا ام ثقافيا ام عرقيا ام طائفيا ام دينيا.. والغاء الاستعلاء الثقافي الذي قد طغى على ساحتنا الفكرية، من خلال دمقرطة الخطاب الثقافي قبل دمقرطة الخطاب السياسي، وكذلك دمج الثقافة الناطقة بالعربية بالثقافة الانسانية بشكل عام بعيدا عن التقوقع وتوهيمات حراس الهويات، سواء من الجانب العربي او من الجانب الكردي.

وفي هذا السياق، جاء دور اللجنة العليا للثقافة بمجلس النواب العراقي التي بادرت بتصقيل العلاقة بين الكرد والعرب، وشروع الحوار بين الثقافتين، من اجل استمرار هذا التواصل بين القوميتين، ففي الاونة الاخيرة برزت بذور هذا الاقتراب الذي طالما ذادت عنه مجلتنا (سردم العربي) منذ عددها الاول حتى الان، وذلك من خلال زيارة وفد الثقافة في مجلس النواب العراقي الى دار سردم للطباعة والنشر في السليمانية، وخلال اجتماع دار بين اعضاء كلا الجانبين، سلط الاجتماع الضوء على تكثيف الجهود من اجل التواصل بين الثقافتين (الكردية والعربية) وذلك من خلال ترجمة عصارة ما كتبه المؤرخون

والمفكرون والادباء الكرد الى لغة الضاد وبالعكس، وايصالها الى عدد جمّ من القراء العرب، دعوة لترسيخ الاخوة والتعايش بين القوميتين في العراق الجديد. ولا ننسى ان لدار سردم للطباعة والنشر دورا وفاعلية في مجال ايصال الثقافة والادبيات الكردية الى القراء العرب، وذلك من خلال سلسلة الكتب العربية ومجلة سردم العربي.

المشرف على التحرير

الكرد
وازمة الهوية



دانا احمد مصطفى

من المقولات والتصورات الخرقاء التي يتم ترديدها وتداولها في كثير من الاوساط غير الكردية، وخاصة في الاعوام القليلة الماضية.. تلك التي يزعم فيها مطلقوها بركود الثقافة الكردية وضياع الكرد لهويتهم القومية واغترابهم عن تاريخهم وفي تاريخهم المعاصر.

وقد انبنوا تصوراتهم المغرضة تلك على معطيات وقراءات هي بدورها باطلة وليست جديدة بطرحها على بساط البحوث الجديرة بالتداول، حيث يستندون في تفسيرات مقولاتهم تلك الى دعائم بحثية غير مدروسة وغير مقروءة جيدا ـ او مقروءة ومدروسة جيدا ولكن شوهت ومـُثل بها- وتشم منها رائحة احكام سياسية مسبقة. فهم يسوقون من بين ما ساقوا من معطيات ماليس حقيقيا وواقعيا.. اذْ يرون ان حلول الاسلام وغزوه

للمجتمع الكردي في كردستان سبب ازمة هوية، وسَبَّ ثقافته القومية وعقدها اكثر بتهجينها، وفي الحقيقة لولا اطلاع ابناء امتنا على تلك التقييمات الغربية لما تحملنا عناء الرد عليها ومناقشتها، وردودنا لنا وليس لهم، لانهم وهو مغتصبونا ومحتلونا وذابحونا لقرون طوال اعلم بشعاب قضيتنا.

طبعا لسنا معادين وضد ابداء الاراء المعادية وحتى لوكانت غير موضوعية، لكن على ان لاتمس امة بكاملها ـ تاريخا ووجودا!، ثقافة ودينا لانها حينذاك ليستْ موجهة ضد شخص او اشخاص محددين، بل تمتُ ومرتبطة بمصير امة، لذلك على المعبر عن رايه ـ ان يفعل ذلك بحذرٍ وحذق وموضوعية.

ثم لو اتينا على المعطيات والمؤّسسات التي بنوا عليها قراءاتهم تلك لنجد انها واهية ومنفوخ فيها بقوة السياسة ليتّم تسويقها بثمنٍ بخسٍ في السوق الاعلامي المحلي والدوَلي.

وفي الحقيقة هؤلاء اما جاهلون او متجاهلون، ونعتقد انهم الخيار الثاني، اي متجاهلون حتى النخاع ومنطلقون في ارائهم بخلفيات سياسية وعرقية مغرضة. اذ ليس من المعقول لا نقلا ولا عقلا وهم اصحاب ترسانات ضخمةٍ وهائلة من الارشيفات المتعلقة بالكرد وتاريخهم وثقافتهم والقرون التي اغتصبوا فيها ديارنا، ليس من المعقول ان لايكونوا على علم بالواقع الكردي وجاهلين به. فهم مالكون وممتلكون في تلك الارشيفات ومخازنهم المحفوظة في مكتباتهم وديار كتُبهم ووزارات معارفهم في كل العهود السلجوقية ـ العثمانية ـ التركية ـ الساسانية ـ الصفوية ـ الجمهورية ـ الخلافية والملكية والجمهورية، كل مايتعلق بالامة الكردية وماضيها واصولها وحاضرها المغتصب. فلو كان هؤلاء قد اسسوا واقاموا اراءهم واحكامهم على تلك المعطيات المعتقلة بامتنا والمخزونة في ارشيفاتهم، لكانوا قد قالوا ويحتم عليهم القول: ان الكرد امة بين الامم، بل هي اعرق الامم التي عاشت على ارضها التي اغتصبوها، ولقالوا انها امة ذات تاريخ ثري وثقافة ثرية ومالكة لكل مقومات وعناصر وجود وقيام امة مستقلة.

ثم من جهة اخرى، لو سلمنا بارائهم وافترضنا صحتها ووضعناها على بساط البحث، لوجدنا انهم متجاهلون للتاريخ الكردي والمجتمع الكردي، وطبيعة العلاقات وعلاقات الانتاج التي قولبت المجتمع الكردي، وانه عاش ويعيش في ظلها وظلالها لا في العهود التي سبقتْ الاسلام ولابعد مجيئه.

ان تلك المزاعم المردودة على مفتريها لم تنبنِ على مقومات ذات بنى وجذور موضوعيةٍ وصائبة. فالثقافة الكردية والامة الكردية حاضرة حضور الجبال الرّواسي وعلى ارضها وليست ارض غيرها. وهي

حاضرة بقوة وواثقة من نفسها وقدراتها وطاقاتها وانها ذات مقومات ومؤسسات الامة القائمة بذاتها المعتزة بكونها ولغتها وادابها وموسيقاها وفنونها ورسومها وحدودها ومذاهبها وترجماتها.

***

فالهوية القومية للكرد لم تضع ولم تفتر بل هي القومية الوحيدة في المنطقة التي لم تؤسَلمْ ولم تؤسلِمْ. كما غيرها من القوميات. فهم اندمجوا في الاسلام اندماج الناسين لماضيهم الجاهلي في نظر الاسلام، ومن ثَم حولوا الاسلام الى ادوات سياسية واقتصادية واستيلائية، فتشرب منهم وتشربوا منه وادخل في جيوبهم وليس في قلوبهم. كيف لا ولمّا يؤمنوا. ولكن بعكسهم فان التاثر الكردي بالاسلام كان مجرد تاثر عبادي وشعائري وطقوسي وليسَ ادوات سياسية للسيطرة. فالذي يحولُ فكرا ما الى برنامج عمل سياسي وباجندة ثقافية وعسكرية واقتصادية وقيمية لاشك انه سيتلبس به منصهرا فيه وذائبا. وبما ان الكرد هم الوحيدون الذين لم يستثمروا الاسلام سياسيا وهذا خطا فادح ندفع اثمانه، فانهم بالتالي احقُ الناس بعدم الاندماج فيه واحتفاظهم بوجودهم وخصائصهم المميزة.

ومن جهة اخرى نتساءل ونُسائل هؤلاء الفضوليين لماذا لم تتحطم الشخصية التركية والفارسية بحلول الاسلام فيهم مع ان الاسلام سياسيا وعسكريا اما بفتحهم كالامبراطورية الساسانية ـ او بفتح فتحهم كما حصل بين المتاسلمين ـ الصفوي والعثماني ـ ذوي الاصول التركية.

لكن الكرد من اجل تخلصهم من الاحتلال البيزنطي والساساني رحـّبوا بالمسلمين باستثناء بعض المناطق التي شهدت مقاومات عنيفة جدا للغزو الاسلامي ـ الذي نراه طبيعيا جدا.

فلماذا لم تتحطم الشخصية التركية، مع علمنا المسبق طبعا بمطاطية التحطم ـ وتحطيم الشخصية بالذات، فالعثمانيون قبل استئسادهم بالسلام كانوا قبائل تركية همها الحرب والنهب ـ هاجرت وخلفت الاف الاميال وراءها بحثا عن وطن قومي من خلال احتلاله وتسكين غربتهم المحطمة لشخصيتهم.. ولماذا لم يُسبب الغزو الاسلامي اغتراب الانسان الفارسي، مع ان الاسلام حطمهم عسكريا وسياسيا وازال شوكتهم وريحهم عن الوجود. ان مجيء الدين ايا كانت طبيعته وقوة فعله وتاثيره لايمكن ان يكون ولايكفي لوحده ان يمحو هويات القوميات التي ضمها، خاصة الاسلام المحتضن والمعترف بالتعدد والتنوع القومي والعرقي والمذهبي ولذلك خلقهم. فالاسلام ليسَ كدين المهاجرين الاوروبيين الذين ابادوا الهنود عن بكرة ابيهم ليستولوا على ارضهم وديارهم وارضا لم يطؤوها. ان انهيار الحضارات وافول نجمها ليس

اسير العامل الديني بمعنى اخر ليس الدين وحده مهما كانت قوة نفوذه وتاثيره ليس بمقدوره ولاهو قادر ان اراد فعل ذلك، ان يلغي الثقافات ويُهين الحضارات. بل يجب ان تتوافر وتطفو على السطح عوامل اخرى اقتصادية وسياسية وثقافية غير صالحة للبقاء لكي تشيخَ الحضارات وتهرمَ، ثم ان انهيار الحضارات لايعني انهيار القوميات وتحطم الهويات الاخرى وتذويبها في الثقافة المهاجمة، بل على العكس قد تتحطم الحضارات وتموت ـ لكن تبقى الامة بمقومات وجودها البايولوجي والثقافي حتى شاختْ واضمحَلّتْ لبعض الوقتْ.

ربما تزول وتنمحي عدديا وعلى الصعيد الكمي كالبربر والامازيغ في شمال افريقيا، ولكن تبقى نوعيا حتى لو كانوا في تيزي اوزو او طوارق على مشارف النيجر. فعوامل تحطم وزوال الحضارات متعددة، واكثر العوامل كانت داخلية مؤازرة ومسهلة للانهيار، طبعا جنبا الى جنب تواجد التهديدات الخارجية، كما هو الحال في الامبراطورية الساسانية، حيث انهارت لهشاشة ونحالة الوضع الداخلي، فور الهجوم الاسلامي على معاقل وجودها.

لكن الامبراطورية البيزنطية التي احتلت اراضيها من قبل الاتراك وأسسوا دولة قومية عليها، صمدت بوجه الغزو الاسلامي حتى العام ١٤٥٣م، لأن عوامل القوة الداخلية لم يدركها الضعف، وكانت بدرجة من القوة والصمود لم تنفع معها ولاستسلامها مجرد القوة الخارجية.

فالامة الكردية لم تزل ولم تنمح شخصيتها القومية، وهي حاضرة وفاعلة على المسرح العالمي على الرغم من تكبيلها واعتقال هويتها. فلو كان للكرد مثلما لهم من المؤسسات العلمية والمجمعات البحثية والقدرات والطاقات الانتاجية والدخل القومي الذي لهم، لكان الكرد الان في مصاف الامم التي تصنع وتنتج وتبدع اكثر وانوع واجود منهم.

فمثل الكرد كالخراف المداهمة قطيعها من قبل الذئاب الجائعة التي تتربص بها في غفلة رعاتها.

فالكرد والامة الكردية لم توحد صفوفها ولم تتوحد ولم تشكل امة حتى على الصعيد القيادي. لكي تتمكن من فرض ذاتها وحفظ ذاتها. صحيح، لقد ضاع وضيعنا (اضاعه اعداءنا) الكثير من المخزون التاريخي لامتنا. ووقعت تحت وبين ارجل الموريات قدحا واقدام خيولهم الغازية. هؤلاء الذين ذبحونا قبل ذبح تراثنا وثقافتنا عبر التاريخ، فلو كانت لنا دولة كمالهم، ولو كان لنا حدود قومية وتخوم متاخمة كمالهم، لكُنا الان اصحاب فكر وفلسفة وعلوم اجتماعية واقتصادية نظرية وتطبيقية.. فكل مصائبنا وبلاوينا وكوارثنا هي نتيجة حتمية لانعدام امر عظيم وبالغ الاهمية الا وهو الدولةً.

ففاقدوا الاشياء لايمكنهم انْ يعطوها.
ولكن الامة الكردية بالرغم من انها ليستْ مالكة لشيء، الا انها مع فقدها وفقدانها تلك قدمتْ واقدمـَتْ ولاتزال على الكثير.

وللبرهنة على نظريتنا تلك (الدولة وكل شيء ـ واللادولة وعدم وجود شيء) لناخذ دولة الكويت نموذجا، هذه الدولة الصغيرة حدودا ومساحةً والكبيرة بثرواتها الريعية ومالها واموالها، والمؤسسة كيانها باقتصادها الريعي ونفطها، حيث انشاتْ المؤسسات والمراكز والمجتمعات التي تخرج الاف الاختصاصيين والمختصين وفي كل المجالات، وجيشوا المئات من المؤرخين لتدوين تاريخها وتاشير حدودها القومية والسيادية.

فلو نظرنا الى الكويت اعتبارا لمساحتها فانها لن تبلغ مساحة اصغر مدننا طبعا مطروحة منها الاقضية والنواحي والقرى. ولو نظرنا اليها اعتبارا لدخلها ودخول مواطنيها، فانها اكبر مما نتصور واثمن مما نعتقد. فهي لها قوتها وكلمتها ونفوذها على جميع الصعد العالمية، لماذا؟ لان لديها مـَواطن ومصادر الفعل القادر على التاثير ولفت الانظار لوجودها والاعتراف بها. ان حال امتنا والكويت كمثل الراكب المتطي حصانا قويا مسرجا مع راجلٍ ماشٍ على راحلتيه ورجليه المتواضعتين، فماذاً يكون الفارق في نقطتي انطلاقهما ونقطتي وصولهما؟ فحتى لو لم نعر الاهتمام للفارق الكبير بين قوة الحصان العقلية والجسدية مقارنةً بقوة الرجل الانسان.. فان هناك فارقا فيزيائيا كيميائيا برجلين اضافيتين للحصان، او المعلوم انه يمشي على اربع وصديقنا على اثنتين. فهل نشكك ولو للحظة في ايهما سيصل الى مبتغاه قبل الاخر؟ بالتاكيد الرجل الراجل ! لكن اذا امتطى سيارة بسرعة وقوة اربعمئة حصانٍ، فالذي ساهم في تقدمهم وازدهارهم وتثبيت اقدامهم (اقصد الكويتيين) هو الدولة القومية المنشودة بقوة مصادرها الاقتصادية والنفطية. هذه القوة التي تمثل علة قهرنا وتاخرنا وهو افتقادنا لحدود الدولة القومية راعية لشخصيتنا وافتقارنا لمصادر القوة الاقتصادية التي نعول عليها في تنشئة دولتنا القومية.

البتليسي وفكرة الدولة الكردية

كما سبقَ ذكرنا، ان علة العلل والماسي والمشاكل والعقد المُصاب بها الكرد خلال تاريخهم المرير الطويل. عدم تواجد دولة او حتى دويلة ولو كانت ضعيفة وغير متمتعة بكل مقومات سلطات الدولة. فوجود الكيان القومي المؤطر للحدود القومية والتخوم الجغرافية الجيوسياسية المرسومة تاريخيا ودوليا مـُدعاة للاعتزاز والافتقار. وعدم نشوء وبروز العقل التدويني للتاريخ الكردي بمعناه المشروعي الموسع يعود الى

عدم وجود الاطار القومي للملمة الجهود التي تبذلها العقول التدوينية للتاريخ. فلو كانت للكرد دولتهم القومية، لكان هنالكَ دعم واسناد لكل الحقول والمجالات ولكل العاملين في كل تلك الحقول والمجالات، فلن تكون هناك مشاريع على المستوى القومي يقوم به فرد او افراد محدودون لان مشروعا كهذا وبهذا الوزن والحجم من الاهمية يحتاج الى مؤسسات ومصادر تمويل كبيرة ليس بوسع الافراد القيام بها. هذا على المستوى العام الذي يحتاج الى تلك المشاريع القومية. ولكن الدعم المعنوي المتمثل في وجود الثقل القومي، للدولة القومية المستقلة هو الاخر مهم بل اهم من الدعم والاسناد المادي. ولكن مع ذلك وبالرغم مما سبق فان هناك جهودا مبذولة وكبيرة جدا قامَ بها ويقوم بها شخصيات بمفردها. وما النموذج البتليسي ببعيد عنّا وعن هذا النمط من العمل البحثي والتدويني للتاريخ. هذا الجهد الذي يدعونا للتساؤل عن مكمن السرّ الذي وفّقَ رجلا مثل البتليسي ان يقوم بهذا العمل الجبار وباسلوب ونمط كتابي قلّ نظيره ومدعاة للاندهاش دقةّ وتنظيما وتقصيا. في وقت وعصر وزمان لم تتوفر فيه مـُسهلات العمل التدويني والكتابي، مثلما هي متوافرة في عصرنا. فمسهلات العمل التدويني والكتابي كثيرة وعديدة يتحسس بها حتى اكثر الناس. فوجود المؤسسات العلمية والمعاهد البحثية وتوافر الاجهزة المطبعية والاتصالية والمكتبات الضخمة الثرية على الصعيد المحلي والعالمي من اهم موثرات القيام بالعمل التدويني والبحثي، هذا ماعدا الامكانيات المادية المتوافرة والدعم والمساندة المالية، علاوة على وجود وتواجد الاطار القومي الذي هو الاخر من اهم مـُسهلات وميسرات القيام بتلك الجهود الجبارة. لكن مع ذلك فان ما قام به مؤرخونا لايعد شيئا ولا يذكر مقارنة بما قام به البتليسي لوحده وبمفرده. وفي الواقع ان الفروقات الحاصلة بين البتليسي والمؤرخين المعاصرين تنحصر في ان البتليسي قبل ان يكون مدونا للتاريخ وكاتبا، كان اميرا وسياسيا ضليعا في كثير من شؤون وشجون المنطقة. وهو امير دويلة وامارة، وجد نفسه مساءَلا امام تاريخ امته، وشعر بضرورة القيام بتدوين تجربته وتجارب امته السياسية والادارية ونقلها للاجيال القادمة واللاحقة ليكون على علم بها، ومؤسسا عليها منطلقات عقلانية موضوعية.

وهناك قدح غير مباشر وطعن بصورة ما في قوة وفرادة الجهود التي بذلها البتليسي في شرفنامه معتبرين جهوده من اجل التركيز على اسرته (الروزكي) وجعلها ارفع واعرق الاسر الجديرة بالحكم والزعامة في كردستان. ولكن على الرغم من ملاحظتنا على تلك الطعون الا انه حتى لو افترضنا

صحة هذا الراي، فاننا نتساءل:
ما الضير في ذلك، فالاخرون اذا كانوا جديرين اولى بالمعروف سواءً كان معروفا سياسيا او اداريا، ثم لماذا لم يقم امراء الامارات الاخرى الكثيرة والكبيرة بما قام به البتليسي ولو بشق تمرة؟ اليس ذلك دليلا على ان هذا الرجل اراد وخطط لما لم يرده ويخطط له الاخرون؟ وهو تطلعه الى الامام بدفعاته القومية. ثم اليس تاليفه وتدوينه لاحداث تلك الفترات العصيبة من تاريخنا كفيلا ودليلا على اخلاصه؟. وان اسرته اجدر واوفر حظا من الاخرين بالحكم والاحكام عليها؟ ومن ناحية اخرى: لماذا لايقوم المثقفون والمؤرخون في عصرنا بما قام به البتليسي مع مايتوافر لهم من الوفائر المادية والمعنوية مع اعطائهم ومنحهم حق تقديم وتكريم اسرهم وقبائلهم وعشائرهم كيف يشاءون ويبغون؟

نتصور انهم مع توفر كل ذلك لهم لن يقدروا ولن يستطيعوا فعل ذلك. ثم لو اتينا على مناقشة المذكورات الاسرية التي يؤاخذ عليها البتليسي، فاننا نرى ان البتليسي كان همه الاول وهمومه الاولى هو التطلع والتامل في قيام دولة قومية مستقلة للكرد.. وهو لايطمح في تولي رئاسة وقيادة تلك الدولة الكردية لان الظروف لم تكن مُناسبة له.. ثم هو كان اميرا حينما كتب ذلك البحث، والذي يدعونا هذا الى الاحتمال الثالث: وهو انه عندما كان يعلم بقيام دولة كردية - كان يريد بث روح الثورة والتطلع والمسؤولية بتحمل الاعباء الثقيلة القادمة خاصة في ابناء اسرته. وبما ان كتاب (شرفنامه) مدون من قبل احد افراد تلك الاسرة وبين ظهرانيها، فهو يدل على ان تلك الاسرة وزعامتها المتمثلة في البتليسي هي الاسرة الاكثر وعيا ونضجا وتهيؤا للتغيير اكثر من غيرها. فليس من المعقول ان يكتب البتليسي كتابه هذا لغير اسرتها، ليس لانها منه وهو منها، بل لان مبدأ وقاعدة التاثير والتاثر بين الاقرباء دما وجغرافيا لان مايمكنه ايصاله الى احد رعاياه بسهولة الزمان والمكان ليس بوسعه مثلها، لاحد رعايا الاسر الاخرى حتى لوكانت كردية. ثم لاننسى ان تاثير الاساتذة والمعلمين على طلابهم تحكمها وتفلعها عوامل الزمان والمكان والافكار المفهومة اي المنهج ثم امكانية ايصاله الى المتلقين. وكلما كان الزمان والمكان متقاربين ومقتصرين والمعلم والمتعلم قريبين، سهل، ويسر وسيّر ذلك عملية التعليم والتعلم.

لقد كان البتليسي بحق فريدا بين ابناء مجتمعه وتاليفه اللافت للانظار ليس سياسيا فحسب، بل ثقافي وعلمي ايضا. فقلما نجد الامراء خاصة في تلك العصور مثقفين ضليعين في الحقول الثقافية. ان البتليسي بعمله هذا (شرفنامه) قد اثبتَ

انه سابق لعصره بقرون، وانه سيظل قمرا وضاءً في سماوات الامة الكردية التي لوثتها وعكرتْ اجواءها وصفاءها ارجاس واوساخ اعدائها. فهو بعمله التدويني هذا يعلمنا درسا في القومية والنضال من اجلها. وهو ان جهود الامم ستذهب سدى اذا لم يكن هناك اطار قومي جامع ياخذ بتلابيبها.
كان البتليسي ملما بالتاريخ ضالعا بخلفياته ومخلفاته الثقافية والاجتماعية والسياسية. وكان كما يظهر من خلال شرفنامته انه كان قارئا جيدا ومتابعا ولوعا ومالكا لحسّ تخميني كهاني ثاقب. علاوة على ذلك كان مناضلا صبورا مثابرا صامدا لايستهين او يلينُ امام قوة وجبروت اعدائه، ولايختل او يغترُ على ابناء امته. وهذا هو المبتغى والمامول من القادة والزعماء، وليس هذا بخلق وقيم العُمداء والاقزام من الامراء البطرين.

***

لاشك ان الاضطلاع باجادة لغة او لغات اخرى غير اللغة الام، من المزايا المهمة التي تُثري حياة المثقف وتغذيه، فالالمام بلغات اخرى بعينه في الكثير من الامور والشؤون لو لم يكن معروفا بتلك اللغة لما كان يمكن ان يكون داريا ومدركا بها. وفي الحقيقة ان اجادة اكثر من لغة تعني اكتشاف اكثر من عالم واضافة عالم اخر وثقافة اخرى بكل ابعادها الى المخزون الثقافي للعالمِ بتلك اللغة. وكلما زادت اجادة وجودة لغات المثقف زادت معه واثرت مخزونه الثقافي والمعرفي، واستكشافه للعوالم والثقافات المجهولة الاخرى. وهذا لايعنَي ان الذي حُرم من نعمة معرفته وتعلمه للغة اخرى انه مكظوم علميا ومعرفيا وثقافيا، ذلك لان الترجمة هي الاخرى سلاح فعال لتقريب اللغات بعضها من بعض واسدال الستار عن خفايا وخبايا الثقافات والعوالم القومية المختلفة دون عناء تعلم ومحاولات تعلم تلك اللغات، وان كان سيبقى الالمام باللغات اهم من عدمه.

فالحفاظ والاحتفاظ بالثقافة القومية واجب على كل واحدٍ منا، وهذا لايعني اخذ موقف بطابعه اليميني او معادٍ للحضارات الاخرى، بل حتى على الصعيد الشخصي. ففي كردستان ومنذ انْ اجتاح الفكر السياسي عقور ديارهم، اصبح المناضلون اليساريون مشدودي الاذهان والعقول نحو الغرب المنتج لتلك اليسارية.
لسنا معاديا ولا ضد الانتفاع من ثقافات الاخرين وتعميم وترسيخ مبدا التثاقف والمثاقفة بين المختلفين حتى المتقاربين ثقافيا. وبتصوري ليست هناك ثقافة جيدة وثقافة رديئة، اذ هي خاضعة للملابسات والمولدات الاجتماعية والاعراف المحكومة بعلاقات الانتاج السائدة في كل مجتمع بشري.. ربما تكون بالنسبة لي هي ثقافة محملة بسمات وخصال غير محبذة،

ولكنها بالنسبة لاصحابها وصُناعها هي جيدة، وكذلك هي ثقافتي بالنسبة اليهم، واعتقد ان المعول في الحكم على الثقافات سلبا او ايجابا هو المرجع والمنجز العلمي غير المشوب بضلالات التخمين والتكهن واللاادريات. ثم ليست كل المجتمعات المتقدمة تقنيا وعلميا هي ايضا متقدمة ثقافيا، بالعكس ربما تكون هناك ثقافة سلبية وغير واقعية او غير قيمة في المنظور العلمي ومع ذلك نراها متقدمة في المنجزات العلمية والمدنية. وربما النموذج الياباني والهندي والفرعوني القديم اصدع النماذج على صحة رؤيتنا تلك.

علينا اذا كأمة ان نستقرئ ثقافات الاخرين، ثم نستعيرها بالشكل الذي يفيد وينفع البلاد والعباد، حيث هنالك في الغرب منجزات ومستحدثات علمية ونظرية وتطبيقية في كل المجالات والميادين. في الحقيقة ان المثقف الكردي عموما يحيا حياة انفصم عـُراها واحدث شرخا في بنية علاقاته مع البنيان الاجتماعية.

والحال عند المثقف اليساري ليسَ افضل منها، حيث عكسوا فهمهم او استيعابهم لتجارب الثقافات والشعوب الاخرى، وهم يسلكون هذا المسلك الاعوج والمبتور بالرغم من تعشعشهم على الفكر اليساري لعقود طوال. وليتهم اكتفوا بنظرتهم اللاواقعية واقفلوها، فهم لم يكتفوا بقلب الموازين في قراءتهم لليسارية بل اضافوها وحلا بانتقاصهم من كل التجارب والنماذج المحلية الحاملة لنواة ومبادئ اليسار الكردي المشحون بالظروف والبيئة والمُفعم بالثقافة القومية للكرد، حيث اعتبروها فاقدة للواقعية والصمود امام النماذج غير الكردية. وليس النموذج الشهير بحركة الحقة الكردية ببعيد عنا.. حين قابلها المثقفون اليساريون بفتور وبرود يدعو للاستغراب. فاليساري الكردي المتطلع الى تحرير بلاده من نير الاحتلال والظلم لم يبخل بجهده في الاقتباس والاعارة من التجارب الفرنسية والروسية والالمانية، لاستثمارها في تحرير بلاده، لكنه بخلَ واسرف بخلا في الوقوف عند تجربة محلية عتية كبيرة ومهمة اقلقت مضاجع المحتلين المستعمرين في بلاده. ربما لكونها حركة دينية وهم يساريون.. لكن هذا مبرر واهٍ. فلو كانوا يساريين مثقفين لعلموا ان اليسار الغربي قبل ان يستمد قوته من القنوات الماركسية التقليدية استمدها من الاصلاح الديني الذي اجتاح اوروبا في قرون مضت.. اليست الانقلابات الجذرية في الذهون والسلوك من فعل الحركة الدينية، الم تستمد الاسواق والمصارف النقدية دعائم قوته من الفكر الديني اللوثري؟ الم تتحول الكاثوليكية الى البروتستانتية معقلنة لكل ماكان نصا ومنصوبا؟

فلم التحرج والاستحياء من استثمار الطرائق الدينية في استخراج الكنوز

الدفينة التي تحرك سواكن الفكر والسلوك الى عالم الواقع والبناء والنشاط خاصة وان تلك الطريقة هي كردية المنشا مئة في المئة. هذه الحركة التي احدثت تغييرات جذرية شاملة شاسعة في كل المناطق التي كانت واقعة في نفوذها حيث تنامتْ قوة تلك المناطق اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا مقارنة بالمناطق الخارجة عن سيطرتها.
تلك الحركة التي ارعبتْ بفكرها واسلوب عملها الكولونيالية البريطانية والقت الرهبة في قلوب عملائها الداخليين خاصة منها ما يتعلق بنمط تقسيم العمل الذي اتبعوه والكيفية التي وزعوا بها الدخل والارباح الواردة، وكذلك موقفهم من القضايا الاجتماعية خاصة حرية المرأة، الى درجة انْ وصف شخص مثل (ادمونز) المستشار البريطاني في وزارة الداخلية العراقية تلك الحركة (حقه) ووصمها بالشيوعية البدائية ذلك الغول الكاسح لراسمالية اسواقهم، حيث حاولوا وعملاؤهم وبمختلف الاساليب وشتى الطرق التقليل من نفوذها لنايها عن الحياة الاجتماعية، وهم محقون في ذلك حيث تنامى نفوذها الصاعد في الاتساع.
وفي الحقيقة وبقراءة وتفحصات متأنية لحركة الحقة وظروف نشاتها وبنيتها الفكرية والتنظيمية تستخلص مبادئ تُشم منها رائحة اهم الخطوط العريضة للديموقراطية الشهيرة بالديموقراطية القاعدية (اي المستمدة قوتها وشرعيتها من الجماهير العريضة) التي هي اقوى واعقل من الديموقراطية المتبعة في الغرب ومختلفة عنها تماما.
فالديموقراطية الغربية لاتمثل سلطة الناس والشعب باكمله بل هي ممثلة لطبقة وشريحة محدودة ومعينة، اجتمعت وجمعَتْ في يديها المال والثروة واحتكرت من خلالها السلطة وبقوة ونفوذها المالي تسنمتْ السلطة دون الطبقات الاخرى التي تريد انْ تكون ممثلة ومدبرة لشؤونها وامورها كما هم. اذا كانت هناك حركة دينية مختزنة في احشائها مثل تلك المبادئ المهمة والمصيرية فلماذا نفيها وراء الاظهر والركون الى المثل الافلاطونية البراقة التي تخدع اكثر مما تصدق.. فليت الباحثين والمنقبين في حقل الثقافات الاخرى لو صبوا جهودهم تلك على مخازن الثقافات المحلية لاستلهام الرؤى والافكار. نقول هذا ونحن نستمع بين فينةٍ واخرى عن المخاضات الكاذبة التي يشهدها تحول الاحزاب الوطنية الى الاشتراكية، من الماركسية الى الاشتراكية الديموقراطية، مؤملين بذلك هطول المن والسلوى ورغدا من العيش ورخاءً من السماء.
ومع كل المخاضات التي كانت تشهدها الساحة اليسارية في المنطقة وخاصة في كردستان، فان الوضع لم يكن بافضل في مسقط رأس الاشتراكية واقصد بها الاتحاد

السوفيتي قبل تفككها الى جمهوريات، والتي انعكست صراعاتهم المريرة على جميع الاشتراكيين في العالم حتى ان شرارتها اجتاحت كردستان، حيث انقسمت الحركة السياسية وقادتها الى جناحين: جناح مناصر لغورباتشوف واصلاحاته، وجناح عارضٍَ خطه وخططه التي كانت فيها نهاية الاشتراكية كدولة وليست كفكر، حتى اعتبروه خائنا للاشتراكية ووصلَ الامر لحد ان كاد الفريقان يقتتلان وكادوا يفعلون ذلك بالفعل لولا ان كانت الرعاية الالهية لهم بالمرصاد.

***

لتكن البدايات، بدايات انطلاقتنا من هنا، وبالكيفيات الذاتية، فاشكاليتنا الثقافية والتاريخية هي تماما مثل وجودنا الذاتي تكمن في عقر ديارنا. وعلينا تحليلها وحلحلتها كذلك في عقور ديارنا وبمقررات ديارنا والياتها. وعلينا ان ننتظر الاحسان ومد يدِ العون من المحسنين الدوليين كي يقوموا بدلا عنا بتشخيص علاتنا وايجاد الحلول لها. صحيح رُبما هناك في كل زمان ومكان منصفون ومتغطرسون مجحفون.. وصحيح ايضا ان كثيرا من المهتمين يقضايانا قد انصفونا في حقوقنا ووجودنا.. وهم مستحقون كل الشكر والتقدير، ولكن سيبقى المخلص الحقيقي لقضيتنا هو طاقاتُنا وقدراتنا ونخبُنا الذاتية المحلية، فاهل الديار الكردية والقضايا والاشكالات التاريخية ادرى بكنهها وطبيعة طفوها على سطوح الثقافة الكردية. ثم ان في ترك الساحة للاخرين املين منهم القيام بما تقاعسنا نحن في القيام به وتكاسلنا فيه.. ثم لا غبار ان في ترك الساحة هكذا مافيه توفير الفرص السانحة لاعدائنا بالتدليس والتدسيس على قضيتنا وتحميلنا ما ليس منها وفيها. وقلنا ونكرر القول ان خطوة واحدة ذاتية وبكافاءات ذاتية ومحلية افضل وافيد من الاف الخطوات التي يقوم بها الاخرون.

ثم من جهة اخرى تكاسُلنا وتقاعسُنا في القيام بواجباتنا سيولد لدى جماهير الامة الكردية الشعور بالانهزام النفسي والفكري والدونية المميتة، هذا اذا كُنا من الاحياء اصلا، فالدفاع عن حقوقنا الانسانية والفكرية والسياسية والامنية القومية يجب ان يكون من داخل صفوفنا وبعقول وذهون كردية سواء على الارض الكردية او خارجها.

وفي الحقيقة ومع ما نعانيه وعانيناه، فان عالم الكرد مازال بخير وان عقله السياسي والبحثي والفكري في طور التشكيل وعلى اهبةِ الاستعداد لخوض غمار الظروف المستجدة والحالة الرديئة لثقافتنا ووجودنا. وممن مهد الطريق وجرّف مزيحا الثلوج المتكومة على طريق العمل القومي والثقافي وخاصة التاريخي.

السؤال المزمن الذي يطرح نفسه دوما ولابد انه مراود الكثيرين في الحقل الثقافي الكردي، هو لماذا لم يوظف العامل الديني في انهاض واستنهاض الحس القومي والحركة التحررية الكردية. فلماذا لم يستثمر الكرد العامل الديني في توجيه مساراته القومية، تماما كما فعل اعداؤه في الانظمة السياسية المجاورة. كما فعل الفرس بالتشيع والترك بالتسنن.. حيث وطّدوا واسسوا اركان دولتهم بناء على الاستثمارات والتوظيفات الجيدة للعامل الديني والمذهبي.

فلماذا الكرد لم يحاولوا حذو حذوهم لتفعيل مايجب تفعيله منذ امد بعيد. ولكن نظرة فاحصة ودقيقة للمجتمعات الكردية المشتتة في اوطانها تعلمنا وتخبرنا ان الكرد شعروا بذلك او لم يشعروا ودون ان تكون لهم دولتهم المركزية انهم قد بذلوا محاولات لافتة للنظر لاستخدام الدين منطلقا لتمايزهم العرقي والثقافي.

ولكن يبدو انهم لم يؤدلجوها ولم يحولوها الى عقيدة سياسية كما فعل العثمانيون والصفويون بالتشيع والتسنن، ونظرة معمقة خاطفة في السطور الاتية المتعلقة بطبيعة الحياة السياسية والاجتماعية في العصور التي شهدت صراعا مريرا بين القوى القومية المتلبسة بقناع ديني مـُتحور، فالصفويون استغلوا ماسي اهل البيت وامالهم من اجل تمايزهم الثقافي بين الثقافات التركية والعربية.

ويبدو ان في اعتناق الفكر الشيعي من قبل الصفويين فيه قنص عصفورين او اكثر بحجر واحد. فهي تمثل هوية سياسية ثقافية مميزة لهم عن الهويات الاخرى. ثم هي بمثابة ارسال اكثر من رسالة سياسية الى كل الاوساط الشيعية في كل من العراق وعلويي سوريا وتركيا. لكن السؤال المطروح الملح الان هو لماذا اعتنق الكرد الشافعية مذهبا على الصعيد الشعبي والرسمي، هل جاء هذا الاعتناق والاختيار عشوائيا وتلقاء حدث غير مبرمج وناتجا من رحم الصدف والاقدار.. مثلما روى ذلك الاستاذ محمد خال، حيث اعتقد ان حلول الشافعية في المجتمع الكردي كان عن طريق بعض الطلاب الدارسين في بغداد، حيث تاثروا بها ونقلوها الى مجتمعهم الكردي. فما يلفت النظر ان الكرد من بين جميع الامم المحيطة بهم من الجهات الاربع استشفعوا واتخذوا الشافعية مذهبا. وهناك بحوزة الاستاذ عبدالرقيب يوسف حادثة طريفة وربما مشكوك فيها يسوقها الكاتب المعني في كتابه (الدولة الدوستكية): بان احد الامراء الدوستكيين قد عمل جاهدا لتسهيل احلال الشافعية في امارتهم واستبعادهم للمذاهب الثلاثة الاخرى، ولكن دون اللجوء الى استخدام العنف كما فعل الاتراك والفرس لفرض طائفيتهم، بل عقدوا لاجلها كما يـُطلق عليه في عصرنا، الطاولة المستديرة بحوارات هادئة

لمناقشة امر اختيار احد المذاهب مذهبا رسميا في الامارة، حيث وقع اختيارهم على الشافعية هل لبساطته المستمدة من النقل والنص التي تشابهُ بساطة وطبيعة الحياة الثقافية والاجتماعية والقيمية الكردية التي لم تلوثها مؤوّلات العقل وتمنطقه؟ هذا الاتجاه المتبنى والمرسوم معالمه من قبل ابي حنيفة الافغاني الذي ولّع فتاواه نارا بوجه السلاطين والامراء الفاسقين. وهو الذي ساندَ وناصر باموالهِ وفقهه ثورات زيد بن علي في الكوفة وابراهيم بن عبدالله في البصرة ضد الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور. ذلك الـ(ابوحنيفة) الذي اغتالوه مسموما وهو مسجون، وعودا على بدء والى ما يتعلق باختيار الكرد للمذهب السني والشافعي بالتحديد. هل كانت للامر علاقة ببنية الكرد الاجتماعية المصطبغة بطبيعتها القبلية وحياة الترّحَل التي تشابه البنية الاجتماعية القبلية لاهل الحجاز؟

لكن هذا الاستقراء ربما يكون غير موفق النتائج، والا لماذا لم يختر اهل الكوفة الشافعية مع ان حالتهم الاجتماعية قريبة الشبه الى حد بعيد من طبيعة الحياة الاجتماعية في الحجاز؟ فهل اختار الكرد الشافعية لانها لم تكن مذهب الحكام وربما لانه كان المذهب الوحيد الذي لم يسيس ولم يتخذ في المنطقة كلها مذهبا رسميا، ربما، ولكن لانملك الجرأة في وضعها بخانة الجواب المقنع.

وفي الحقيقة ان ما يعرقل استحصال الاجوبة هو افتقارنا الى المؤلفات والبحوث التي تعيننا في الاجابة عن الاسئلة. وفي الواقع هي من بين اكبر الثغرات التي يعاني منها تاريخ اديان المنطقة، باستثناء بعض المؤلفات القليلة النادرة، كما الف الملا عبدالكريم المدرس مجلدين عن مولانا النقشبندي وخلفائه، وموجزه عن تاريخ العلاقات الدينية في الجزءين الشرقي والشمالي من كردستان، وبالرغم من عدم وصوله الا القليل منه، ولكن المتفحص الدقيق لتاريخ المنطقة يجد ان المنطقة وخاصة كردستان مكتظة بالاديان والمذاهب والطوائف التي لم تطلها ايادي البحث والتحقيق، مع الاخذ بالاعتبار ان كثيرا من تلك المذاهب والاديان كردية المنشأ والمعقل، مثل طائفة الـ(حقه) اليارسان الكاكائية، والايزديين والشبك. تلك المجاميع الدينية التاريخية التي تدعو اصالتها وحفاظها على تركيبتها وبنيانها الى الدهشة والاستغراب، فكيف حافظت على خصوصياتها وشخصياتها وكيف كانت قبل غزو الاديان الكبرى ـ اليهودية- المسيحية ـ الاسلام. لمعاقلها في كردستان؟ وهل تغلغلت تاثيرات الاديان في تركيبتها البنيوية والطقسية ام قاومت بضراوة حفاظا على تلك الخصوصيات.

مايدعو للاسف هو كما قلنا عدم تواجد

دراسة الثقافة الدينية في كردستان وخاصة الاديان المقارنة، وتحليل الكيفيات التي تؤدي بها الشعائر والطقوس الدينية. وكذلك الخرافات والاساطير الدينية التي تغلغلت هي بدورها الى بنية البنيان الديني، بقيتْ هي كذلك بعيدة عن المتناول البحثي والتحقيقي. وكذلك ان المامنا شحيح بالبنيان الفكري والطقسي لاهم الطرائق الدينية، واقصد التصوف والدروشة، هاتين الطريقتين الدينيتين الضاربتين جذورهما في اعماق الطقوسات الدينية الممارسة في بلدنا.

اذا من الضرورات الملحة اجراء البحوث عن تاريخ كل الطرق والمذاهب وكذلك الاساطير والخرافات والملاحم، حيث بمجموعها وبحلوها ومرّها تمثل مخزونا ثقافيا قوميا علينا استقراءه واستحضاره كما هو وعدم التفريط والافراط بحقه. هذا الاسلوب التحقيقي الذي يرتأيه الاسلوب العلمي تاسيسا وانطلاقا على المبدا القائل ان هنالك في تاريخ الامم ماهو غير مفيد. فالاساطير والخرافات الادبية والدينية اذا لم تمثل شيئا فهي تُمثل اكبر تاريخ امة ورموز قيامها ووجودها. فربّ ضارّة نافعة، هذا الشعار الذي يجب ان يكون عنوان فكرنا وعملنا في التنقيب عن مولّدات تاريخنا في الماضي البعيد. مامن شك ان لاساليب الانتاج المولّدة لعلاقات انتاج مغايرة عن سلفها، علاقة مصيرية ومؤثرة في طبيعة الانماط والاوضاع الفكرية والادبية السائدة في المجتمع ومدى عمقها وبساطتها، ايجابيتها وسلبيتها. وبناءً على ذلك يجب القيام ببحوث تنقيبية ميدانية في كل البلاد (كردستان) عن طبيعة اساليب الانتاج السائدة فيه من انظمة الري والارواء وانماط السدود والجداول المُقامة واساليب توريد وتوزيع المياه، ونسبة الاراضي المستثمرة زراعيا ورعيا في بناء بنيان النظام الاقتصادي المتبع السائد، والتي لها علاقة مباشرة وكبيرة بنمط ونوعية الافكار والرؤى والطقوس التي سادت ومارست فعلها في المجتمع الكردي.

ومثلما لعلاقات الانتاج اهميتها في تقرير مصير الرؤى والافكار السائدة، كذلك للمكان والحيثيات الجغرافية من جبالٍ وسهولٍ ووديان وتلال وهضاب ومياهٍ وتاثيرهاً وخاصة المياه على تشكيل البنيان الذهني والفكري.

فهناك مقولة شائعة بين المؤرخين مفادها ان كل الحضارات والمدن المتحضرة هي هدية وهبة الانهار العظمى التي تتمدين تلك المدن عليها وسواحلها، وان مصر هبة النيل.. وان كل الدول والبلاد او اكثرها هي موَلدات ومصنعات مياهها وانها التي يتم استثمارها زراعيا بسهولة ويُسر.. ونظيرة مصر هي تلك الحضارات والدول التي قامت على ضفاف نهري دجلة والفرات

هي هبتها وثمرتها، ومع ذلك فان العلاقات الاجتماعية السائدة في الدول المطلة على النيل وتلك التي كانت تطل على دجلة والفرات مختلفة الى حد بعيد على الرغم من المتشابهات التي تبدو بديهية.

ومبعثُ تلك الاختلافات في الانماط الحضارية والثقافية يعود الى طبيعة البنيان الجغرافي، حيث ان سهول المنطقتين مختلفتان طوبوغرافيا، كما ان مواسم الفيضان في كلتا منطقتي النهرين مختلفة عن بعضها.

فموسم الفيضان السنوي المعتاد بالنسبة لنهر النيل يبدأ في شهر اب منتهيا في شهر تشرين الاول، وتكون ضفتا النهر في منطقة الدلتا اعلى مستوى من منطقة السهول الواقعة بمحاذاتها، حيث تشكلت جراء ذلك ومن مياه الفيضانات منخفضات واسعة المساحة، ويظل الطين المطمور فيها قابعا وباقيا بانتهاء الخريف وتلك المساحات هي التي تزرع بالبذور والزروع.

ان تلك الطبيعة التي كانت تتسم بها تلك المناطق الزراعية المطلة عليها مرتفعات وشرفاتها المنحدرة الى اسافل التخوم المُحاذية لتلك المساحات المزروعة، شكلت وسطا موائما لبروز وتشكل دولة مركزية قوية والتي ساهمت في تعزيز مركزيتها وقوة صمودها اطلالتها الجيوستراتيجية على تلك المناطق باراضيها الخضراء وشبكات توزيع وتوريد مياهها مما ساهم في تسيير وتسهيل عمليات التوجيه الانمائي من جهة وعمليات التنظيم والمراقبة حيث استبعدوا بذلك ظهور اي عمل ذي طابع تمردي وعصيان محتمل.

وتلك الاسباب هي من بين الدواعي التي ساهمت في وجود وادامة وجود امبراطورية قوية وطويلة الامد والسلالة ضمن تلك المنطقة المعروفة بمصر.

وفي الجهة المقابلة وبعكس تلك الظروف والاجواء المناخية فان مياه دجلة والفرات تفيض في فصلي الشتاء والربيع. وبذلك اصبح من الصعوبة بمكان الانتفاع منهما على المدى الطويل في عمليات الري الزراعي. مما استدعى ذلك من القاطنين المحيطين بتلك المناطق المجاورة للنهرين الى العمل على اقامة السدود وبناء النظم الاروائية وقنواتها. فاضطروا لفعل ذلك القيام بعمليات حفر واسعة النطاق وباعماق غائرة لبناء الانهار الصغيرة والجداول للانتفاع بها بخزن المياه الواردة اليها، ويكون مستوى المياه لنهر دجلة عند مشارف بغداد ادنى مستوىً مما هو عليه الفرات وبعشرة امتار، علاوة على ذلك فان المنطقة القريبة لمدينة الناصرية مدعاة للتوقف عندها، حيث ان اغلب المدن السومرية المهمة على ضفاف نهر الفرات دون دجلة، وفي مساحة تربو على(٥٠٠)كم، بنيت اكثر شبكات الري قوة وكثافة وعلة ذلك كما سبق قلنا تكمن في ان مستوى

ضفاف نهر الفرات اقل ارتفاعا مما هو عليه دجلة علاوة على الوداعة والهدوء الذي يتمتع به جريان مياه الفرات، وحظها الاوفر في انشطتها الطبيعية. اذا ان الوضع الامني والاقتصادي والحالة الثقافية والحضارية مرتبط اشدّ الارتباط بالحالة المناخية والطوبوغرافية التي تُحاك فيها تلك العلاقات المتشبعة. ان الظاهرة التي تتصف بها تلك المنطقة المحيطة بدجلة والفرات تشير الى كثرة القلاقل السياسية والاهتزازات الامنية والانقلابات العسكرية بل الحضارية كذلك، حيث لم تشهد استقرارا دائما. وكانت متعرضة للاحتقانات الداخلية والاقتحامات الخارجية ومداهمات القبائل خاصة التي كانت تعيث نهبا وسلبا وفسادا فيها. وبالمقابل فان سهول كردستان على الرغم من سعة مساحتها فانها مقارنة بمساحات الجبال والوهاد والتلال تظل ضيقة ومحدودة للغاية. وحتى السهول الشهيرة بمساحاتها الواسعة التي فيها سهلا (شارزور - وهولير) فانها تعاني من شح المياه، حيث لاتُحاذيها اية مياه معيارية تنتفع بها، وحتى المياه المارة قريبة منها او فيها كالزابين الكبير والصغير - ونهري سيروان وتانجرو، فانها تتسم بسرعة الجريان والمرور والعبور بالاعماق الصعبة للادوية التي تقل او تنعدم بجوارها الاراضي السهلية المنبسطة متشابهة لما هو متواجد عليها النيل ونهر الفرات. هذا السبب الذي حالَ دون اقامة السدود والبحيرات الصناعية لتجميع مياهها.

لكن هنالك على الرغم من ذلك الشح في مصادر المياه السطحية فان الكرد قاموا بجهودهم الجبّارة بشق الطرقات على ظهور الصخور الراوسي، وتذليل الصعوبات الطوبوغرافية من اجل الاستثمار الزراعي والانماء البشري، وهذا مافعلته بها الكثير من المناطق الكردستانية. والنموذج البارز على ذلك ما اقدم عليه الهوراميون. حيث اخترعوا طرائق واساليب شتى وصعبة جدا لايصال المياه الى المناطق المحتاجة اليها من البساتين وبناء المدرجات الصخرية والحجرية المحاطة بالبساتين والضيعات والعزبِ الغنية بثرواتها العامرة. انهم بفكرهم وعقلهم الزراعي والاستثماري المتطور انشأوا البساتين تلك في اعالي الجبال الملامسة لقممها وذراها التي تحجز حتى سكانها الاصليين (المعز والغزلان) عن بلوغها واذا بلغتها فبشق الانفس، فكيف نقلوا التراب على ظهورهم وحفروا الجداول بطول كيلومترين او ثلاثة من على سفوحها منحدرة الى اسافلها؟ وكيف اوصلوا المياه باستخدام انابيب ودواليب مطولة مصنعة من الاشجار؟ انهم بالفعل اناس مبدعون وغاية في الابداع!

ان عقولا استطاعت ان تتفنن بتلك المهارة في ابنية وبنية الجبال الوعرة في هورمان. لايمكن القول الان انها عاجزة عن فعل

ذلك على بساط السهول والوديان. اذن هذا يدل على ان عدم وجود السدود والشبكات الاروائية المنظمة على ضفاف الانهار في كردستان لايعني عدم سعي اهلها الى فعل ذلك. بل يدل على ان تلك الاعمال الشاقة وفي تلك العصور كانت تفوقُ قدراتهم المتواضعة انذاك. بل ان النبوغ الذي اظهره الهوراميون في اساليب بناء بساتينهم. يفوق في روعته ومتانته ما اظهره السويسريون في بساتينهم التي لامستها وشاهدتها عن قرب، وذلك لسبب بسيط جدا اذ ان وفرة المياه ومواسم الامطار الغزيرة وسقوط الثلوج الكثيفة في تلك البلاد احالت دون ارتقاء نبوغهم الى المستوى الهوراماني الذي تكلف العناء المرير لايصال المياه عبر الانابيب الشجرية الممتدة من سفح الجبل الى اسفله. وهذا مالم يتكلف السويسريون عناءه حيث وفرة المياه ارضا وسماءً سطحا وجوفا وفي كل شبر من بلادهم.

في مختلف مناطق كردستان تهطل الامطار في الشتاء بما يكفي وحاجة الزراعة للموسم الشتوي، علاوة على تامينها بتوفيرها المياه في الينابيع وخزانات المياه الطبيعية لحاجات الزراعة الصيفية. ففي بعض المناطق يغادر القرويون مناطق سكناهم متوجهين صوب صرائفهم وشرفاتهم المستشجرة المبينة والمقامة على اراضيهم الزراعية لقضاء موسم الصيف فيها، حتى اواسط الخريف حيث موعد المغادرة الى ديارهم وقراهم، هذا في المناطق الجبلية. اما في المناطق الحارة المشتهرة بـ(كرميان) فان شح المياه وقلة المراعي وندرتها حول الكثيرين من السكان الى مجاميع مرتحلة وغير مستقرة، حيث يتوجهون الى الشمال والمناطق الجبلية الغنية بالمراعي والمياه. هذا يدلل على مصداقية المقولة (الحاجة ام الاختراع) وان الكرد وفي مختلف مناطق كردستان ابتدعوا حلولا لمشكلات الارض ومشاكل المياه من غير توجيه او بادارة حكومة ومؤسسات او عبر دوائر معقدة لامور البلاد والعباد، وانما بتظافر جهودهم وتكافحهم الاجتماعي وتمتعهم بروح العمل الجماعي، حيث شكلوا بذلك بديلا ولكن شبيها بالمؤسسات الحكومية مؤسسا على الروابط الاسرية والقرابية، وفي بعض المناطق الكردستانية فان عدة عشائر تشكل من خلال تَجميعها اطرا ادارية ومراكز نفوذ محاطة بنظام الحصون والقلاع المحصنة اضافة الى اعداد قواعد عسكرية مدافعة عنها بوجه الاطماع الداخلية من قبل التجمعات القبلية الاكبر في ثقلها وقوتها او خارجية من قوات واطراف موالية لتلك القوى مثلما حدث من قبل ايران وتركيا خلال القرون الماضية.

لكن يبقى الشرخُ الاكبر في جسد تلك التجمعات والامارات داخليا، حيث قتامة التناحرات الداخلية بينهم ومحاولات ضم بعضها لبعض بالقوة والاكراه، مما

اكسب الاعداء المتربصين من الخارج فرص ومبررات تدخلهم وبالتالي استيلائهم على اوطاننا واراضينا.

ان ماتعوزه الساحة الادبية والثقافية لامتنا الكردية هو غياب عقل ثقافي موسوعي بحثي يقوم بملاحقة الفكر الكردي عبر التاريخ في ثنايا الابداعات الادبية - الشعرية والنثرية. وقولبة او ترسيم اطار تاريخي للفكر الكردي مدون من اجل تعريفه وتقديمه للاجيال القادمة من ابناء امتنا. ولكن مع الاسف فحتى كتابة هذه السطور مازلنا في حالة ترقب وترصد لمن يظهر منتقدا الثقافة الكردية من الاندثار والانتشار.

فليس في الساحة حتى اللحظة من يجرؤ ليخوض غمار تلك الظلمات الكالحة التي تحيط بتاريخ ثقافتنا وفكرنا عبر التاريخ. صحيح ان المشروع كبير والعمل ضخم محتاج لعقول ثرية جبارة جريئة لاتخاف من الناس لومة اللائمين والمثبطين للهمم.. وقد ظهر ويظهر بين حين واخر من يمدّ لسانه مثرثرا ومصرحا بالاحلام والتمنيات من غير اعمال ووقائع تذكر. وقد قيل في المثل الدارج: (ان رفع الاحجار الكبيرة امارة عدم رميها).. فنحن نريد ان نكون واقعيين وان نمدد الارجل على قدر بساطنا، فكل خطوة نخطوها في هذا المجال ولوضع لبنات هذا المشروع الكبير مرحب به ومثّمن، واذ نحن ندعو الى بناء الصرح الثقافي القومي علينا ان نضع الايدي في ايادي البعض ونوحد جهودنا من اجل اثراء واغناء هذا الهرم القومي المترامي الاضلاع والنواحي.

فنحن بالفعل باشد الحاجة الى ضم الجهود بعضنا الى بعض والشروع بالكتابة حول التفكير والفكر السياسي والاجتماعي والفلسفي عند احمدي خاني ومولوي ونالي ومولانا خالد النقشبندي والملا الجزيري... الخ، فياليت لمن يهبُ لاحتضان تلك الامال محققا اياها، ويتصدى لصعوباتها الكبرى التي تعترض طريق الولوج فيها والبدء بوضع اسسها المتينة الحصينة.

المصادر:

١- احمد سوسة: تاريخ حضارة وادي الرافدين، الجزءان الاول والثاني، بغداد، ١٩٨٣.

٢- تاريخ الفكر الكردي: فاضل كريم احمد، مكتب الفكر والوعي، ٢٠١٠.

مدخل الى الحضارة الحديثة



شوقي جبرائيل

ان لكل حضارة تظهر لتخدم بلداً معيناً تولد معهــا وتهرم وتموت فيما بعد، ويوضح لنا اوشفالد شبنكلر (ان لكل حضارة امكاناتها الجديدة الخاصة بها للتعبير عن ذاتها، هذا التعبير الذي ينشــأ وينضــج وينحل ولن يعود ابدأ)١، ولهذا نرى ان التاريخ لا يتكرر وانمــا يحدث ظواهر يشــكل حالات ترمز الى حيثيــات معينــة قد تظهر في ســبيل المصادفة، الا انها ليســت نفســها لانها تعبر عن ذاتها رمزاً، وهذه الرموز تعتبر مدخلاً للنفــوذ وهي غير قابلة للتشــريح، فهناك هوة فاصلة بين الانسان وبين مصيره، لذلك يعتبر هــذه الحالة رمزاً ما يتحول في فترة زمنيــة معينة الى أيقونــة تحدد مصيرها الافــراد. وان كل حضارة تولد تظهر لديها نفســاً اولية واحدة تظهر وتعبر عن ذاتها بشــكل منفــرد وبقــوة لتظهــر نوازعها الحقيقيــة فتولــد كمدنية قائمــة بذاتها

ورموزها ونسميها دولة. فتظهر فيها العلوم والاديان والثقافة والفن والعمارة والاقتصاد بكل نوازعها فتشكل رمزاً تاريخياً لمرحلة معينة لن تتكرر بعد ذلك.

يذكر ابن خلدون في مقدمته (ان المدينة هي نهاية العمران وخروجه الى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير) فالانسان كلما تطور فعالياته الحيوية، اتجه طرديا الى تهيئة مكان للعمل والراحة ليناسب عقليته ويتفنن فيه الى آخر حد لكي يجعله رمزاً يحل مكان آخر ويحاول النفوذ فيه ليصل الى مداه.

وتسقط الحضارات نتيجة الفساد الاخلاقي او المالي او السياسي فتحدث انقسامات او نتيجة هجوم قوى على قوى اخرى او تفكك النخبة ومجيء الرعاة وانتشار الامراض فتصيب الوعي النخر ولن تصمد فتؤدي الى:

١_سقوط كلي للحضارات القديمة وزوالها نهائياً كالدولة الرومانية والفرعونية والاشورية والبابلية والدولة العباسية وغيرها.

٢_سقوط جزئي حيث تنضم الى دول اخرى او تتحول الى دويلات كيوغسلافيا وانهياره الى دويلات صغيرة بعد ان كانت متماسكة في زمن رئيسها جوزيف يروز تيتو.

ان إضمحلال الارادة امام قوى هدامة يؤدي الى انهيار حضاري لان القيم تصيبها الصدع حيث الشر يعوم على السطح بعد ان كان غائراً الى حد ما.

اما مشكلة العجز الاقتصادي والانحلال الخلقي وضعف الدين والفن وظهور بدائل سطحية مبتذلة فلن تخدم الحضارة، لان المقياس يكون دائماً متوتراً تجب المحافظة عليه في حالة استقرار تام وأي خلل فيه يؤدي الى مالا تحمد عقباه. فالاهتمام بالبدائل القذرة يعتبر أفيوناً تخدر الشعوب ولن يفهم الفرد معنى الحرية حيث يسيء فهمه ويربكه. في حين وصلت فهمه للدين احياناً الى حالة معينة حيث ان الديانات الوضعية لم تخدم الروح الا بشكل سطحي ووقفت امام انتشار الديانات السماوية وظهرت كبديل له.

الا ان تطور الوعي عكس الموقف في حالتين:

١_من يؤمن بالله كملجأ نهائي للانسان.

٢_التمسك بالوعي العلماني كحل نهائي فاقداً الوعي الروحي.

يقول شبنكلر: (ان الحضارة عندما تحقق روحها جميع امكاناتها الباطنية على هيئة شعوب ولغات ومذاهب دينية وفنون وعلوم ودول، وعندما تحقق هذه الامور، تستنزف

امكانات روحها في تجسـيد هذه الانجازات وتتخشب وتتحول الى مدنية وأخيراً تتجاوز المدينة الى الانحلال والفناء)2.

ويقـول: (ان الحضارات القديمة لن تتكرر علـى ايدي ابنائها مرة آخـرى)٣. الا انني ارى ان الحضارة المصرية المعاصرة تسـاوي الحضارة الفرعونية السابقة، ووفق مرحلة زمنية هناك رمزان تعنيان ظاهرة واحدة وقتية تبقى زمناً غير محدد كالعمارة وفن النحت وديمومتهمـا. في حين ان الحضارة الكردية الحالية تقابل الحضارة الاشـورية السـابقة في نينـوى، والبقعـة الجغرافية الاشورية كانت متقاربة مع البقعة الكردية آنذاك.

كمـا ان الحضارة الكرديـة الحالية بقوتها افضل من الحضارة الاشـورية والبابلية او السـومرية كمقارنة قوى بـين الحضارات بزيادة مطردة نتيجة انتشار العلوم وسهولة اقتناص مـا كان صعبا وبعيداً جغرافياً في الماضي. فبعض الشـعوب تنهض ثانية بعد ان تنجـدد قواها في لحظة الولوج الى ارادة الانبثاق فتتحرر وتولد مجدداً وتنمو البذرة من جديد، ويبدع مرة أخرى. ان الوعي لن يموت ويبقى في سـبات لحين مجيء وقته فيظهر من جديد أحيانا اقوى من السابق. ولكن هل المصريين لا يستطيعون ان يبنوا اهراماً مثل هرم خوفو أو خفرع أو تمثال ابو الهـول، او العراقيون هل يعجز من ان يصنعوا زقورة مثل زقورة أور، بلى ان هذا سهل عليهم ان يفعلوه.

فالشـعب يصنع الحـدث لان اية ماكنة لن تتحرك دون تشـغيلها ويحتاج الى مشـغل يفعل ويتحول الى مشاركة لعملية الصيرورة اذا كان الفاعل موجوداً.

فالخوف مـن الطبيعة على سـبيل المثال كان له دور في تكوين الدولة الصغرى وهي العائلة، وبتكاتفهم مع البعض اسـتحدثوا اول قريـة تاريخية، وكانـت النواة الاولى للدولـة بل بذرة الحضـارة الاولى البدائية والمكان المحدد لاول تكوين انساني. فالتاريخ مرتبط بالزمان والمـكان، فلو نقل الارض الى خارج المجموعة الشمسـية فإن تاريخه ينقل معه، اما مكانه السابق فيبقى فارغاً لن يرتبط بالزمـان حيث يحتاج لوجوده الى مكان، وهذا بدوره يصنع التاريخ ويجد له ارقاماً وشـواهد رمزية يعلن عن نفسه ويصوغ الزمن بتواجده.

ان الفنـون تأتي كلمسـة لاضفـاء غلالة الجمال على العمارات والمسـاكن وهي سمة تشـجع على التحضر والاستيطان، فخلال ترسـيخ الفنـون، يبـدأ الفـرد بالتأمل الفلسـفي او بدوره يستعد الانسان للتفكير بما حوله فتترسـخ ثقافة التفكير المنطقي لكي يتفادى الخطأ وتظهر السـلوك العلمي والتربـوي وهـذه احدى سـمات التحضر والتقدم. ان تراكم الاحاسيس والشعور به،

وتغير ما يحيط الانسان من حالة طوباوية فيزيائيــة مدهشــة تتراكــم عليــه زمناً يقتحم مكانا معينا ويحتاج الى ان ينسجم معه، لهذا خلق المكعب او المتوازي الاضلاع ليجعله يحقق وجوده في مأمن من المخاطر، امــا الفضاء الواســع ذات الزوايا المربعة او المســتطيلة فانها تلجم عقله ويسطير على ذاتــه، منظماً له وفق ذلك مكان هندســي خلافاً للبناء الدائري حيث لاشعورياً يخيل اليه فضاء مغلق شبه كروي يحس به لغزاً ينزلق نحو زمان متوتر لا ســيطرة عليه ولا نســق فيه لان الاحســاس مشــوش لا يستطيع الحكم المنطقي عليه.

وتجاوزاً لهــذه الحالة نرى في فضاء المدينة صروحــاً وناطحات عالية عملاقة تشــبه نحتاً متقناً صلداً لتتفــادى اقتحام الزمن وازاحته لكــي تتوفر للمــكان كتلته التي تنتشــر هارمونياً في المدينة حتى تشــعر بســمو روحها وكأنها آلات موسيقية تعزف على مســرح عملاق منســجماً مــع الحالة النفســية للمتواجديــن في المدينــة فتعبر عن نفســها كفكرة هارمونية موســيقية حداثوية.

ان العالــم حاليــاً يعانــي مخاضــاً لفترة انتقالية حيــث يصعب عليه الدخول لانه اشــبه بعالم افتراضي ولكنه ليس الا عالمه الحقيقي وعليه اســتخدام قواه في التوجه والقبول. ولهذا فان الحضارة ولوج في الممكن وتحويلها الى تخارجات تتســم ببعد زماني يحس بــه الفــرد في ذاته وفــق مقاييس معينة تنبثق منه ابهة يتمتع به.

ان الزمــن يتواجد مع المــادة والكائن وهو جزء منــه لذا يتراكم انيــاً في مكانه مثل صفحات الكتاب، وكل صفحة تأتي لتلغي ما قبلها لحظوياً وتثبت وجودها وكأن الزمن الماضي لم يكــن موجوداً، ولهذا فالزمن له وجــوده الخاص به، وهــذه صيروته الذي يعلن عنه في الساعة. (ويعود فضل اختراع الســاعة، هذا الرمز المخيف لسير الزمن الى الالمان)٤، كما ان الســاعات البدائية كمفهوم زمني وضعها البابليون واخترعوا ســاعات مائية ومزاول شمسية وكذلك الفراعنة قد فعلوا نفس الشــيء، اما المدينة فالزمن له وقعه الخــاص عليها، منذ ولادته وتكوينه الجغــرافي حيــث اقصــى ما يحــاول المرء للوصول اليه من الــترف الذي يبحث عنه طوال حياته، فالنظام الهندســي المتناسق هو عكس النظام العشــوائي اللامتناسق في القرية والتي هي مدينة بدائية.

كما ان خاصية المدينة لها شــكل متناســق متكامــل معمارياً وله خاصيــات جمالية تندمج الروح بها رغم الظواهر التكنولوجية التي لم تظهر الا لخدمة الانســان ولتقليل احساسه بالزمن. كما ان للمدينة صيرورتها وتحولهــا وفق تواجــد كينوني مســتمر ويســتحيل ان يتواجد بشــكل منقطع او

ديماغوجي لانه اثبات لوجود ممكن تتحول باطـراد الى التوافـق في النحـت والعمارة كصور تشكيلية، ومسـتعملاً فيها قوانين رياضية لايجاد علاقة فيما بين العمارات. ففكرة الرياضيات كما يقول شـبنكلر هي أن القوانين الرياضية قد اكتشـفت بشكل متكامل وعلى علمـاء الرياضيات الحفاظ عليها، لان العمارة يستحيل العمل فيها دون الاستعانة بالرياضيات.

اما التصورات الابداعية للانسان في السابق، اي في الماضي السـحيق فانها لم تتجاوز ما ينقله عن الواقع وما يعيد استنساخه وبثه ثانية، كنوع مـن الاجترار، وهذه الظاهرة لسهولتها في التعبير مستمرة الى يومنا هذا بالنسبة للمتظاهرين بالابداع، في حين انهم لايتجاوزون الفكر السـطحي ويراوحون في مكانهم، واننا نلاحظ ان الماضي البعيد كان يعيش فيه انـاس عباقرة قلما يوجد الان مثلهم كأفلاطون او سقراط او هوميروس، او كالانبياء العظام، حيث كانوا رموز حية كأفراد وآخرى رموز نحتية في المدن تتحول اسطورياً الى وجود معين كتمثال أبو الهول في الحضارة الفرعونية القديمة.

اما بالنسـبة للحضارة السـومرية فكانت مدينة أور وزقورتها رمزاً تدل على عظمة بنائها وليس غريبا ان تكون اغلب الابراج تقليداً له فيما بعد، فالهرم المصري متقارب هندسـياً للزقورة وحضارة مايا وابراجها تشـبه الزقورة وهذا شـيء محيرحقاً، فلو عاشـوا عدة قرون أخرى لاخترعوا اجهزة معقـدة متطـورة، لقد برعـوا في النحت والموسـيقى والكتابة وكان موطنهم الاول منطقة شـرق كردسـتان الا ان الظروف المناخيـة والزراعـة الخصبـة في الجنوب اجبرهـم على الرحيـل واقامـة حضارة كبيرة فيها. وهم اول من اخترعوا القيثارة دليـلاً علـى ترفهـم ووعيهم بـان المتعة تغذية للروح. وكذلـك في العصر الحديث لو نظرنا من فوق الى برج ايفل لرأينا انه اشبه بالزقورة فإهتمامهم بالارتفاعات كان واحـداً من الدلائل علـى اصولهم الجبلية وهنـاك الكثـير مـن الحـروف والكلمات في لغتهـم تتشـابه مع اللغـة الكردية. ان كردسـتان وتأكيداً لقوميتها التي جاهدت كثيراً للدفاع عنهـا اوصلها الى حالة قطف ثمارها، وبنـاء على ذلك سـيصبح اقليم كردسـتان في الاعوام القادمـة من القوى العظمى حضاريا في الشرق الاوسط.

ان كردسـتان في حالة من الامتداد الافقي والعمـودي لكي تأخذ مكانهـا الحقيقي في سلم التطور التاريخي وبالتزامن مع مراعاة السـرعة القصوى في الامتداد، لكي تتحول الى حالة عضوية متجانسـة ومتكيفة مع التاريخ.

ان الحضارة المعاصرة والواعدة لكردسـتان تتطور بسـرعة قياسـية محاولة الوصول

الى الحضارات المتقدمة، فالوعي التام يؤكد ان الفن المعماري وما يناسب نفسية الفرد وتصوراته عن هندسية البناء وما يرغب به ويأوى فيه واحساسه بالامان والجمال داخل بناء مكتمل مناسباً لا حتياجاته الروحية والعقلية متخذا لمسة الحداثة سواء كان في البناء العمراني او المظهر الجسماني وما يناسبه بأحدث موضة كترف داخل المسكن او المظهر الخارجي للفرد او الاكسسوارات كتكملة لبيته المبني وفق الحداثة التي تناسبه.

لقد تطور اقليم كردستان بشكل لم يسبق له مثيل ففي ثمانينيات القرن الماضي على سبيل المثال كان الاقليم في وضع هزيل ومتخلف عمرانيا، لكن في الوقت الراهن تطورت مدن الاقليم من كل النواحي بحيث يظهر واضحاً لمسة الحداثة فيه، لان الوعي بالحضارة صار حدثا جلياً فيه.

ان العمارة تفرض نفسها كسلطة اشبه بصنم عندما ينظر الفرد اليها بوقار ورهبه وكأنها هيكل عملاق تفرض وجوده بإنبساط تام محتلاً مساحة افقية وعمودية، اي حيزاً لها كملكية خاصة متحدياً بذاتها قوى كاملة. ونرى ان (خرجت المدينة بما لها من نفس خاصة بها الى ميدان الوجود، وجاء خروجها بادئ الامر بتحرير ذاتها من نفس الريف وروحه، ومن ثم الانتصاب امام الريف بوصفها نداً له)٥. الا ان البناء المعماري يجب ان لايخرج من المقاييس العامة للنفس الانسانية وان لا ينتصب متحدياً للفرد بوقاحة ولأبالية وان لا تقتحم مكاناً خاصاً متجاوزاً كل مشاعر الاخرين، لانه في هذه الحالة وان حصل ذلك فانه سيبدل الشوق واللهفة نحو القيم الاصيلة غير المشوبة بالاغتراب واللامعنى.

لكن عند صياغة حكم جمالي يجب ان يراعى جانب اللذة بوصفه حاجة انسانية يجب الحصول عليها للاكتفاء بها وتعني هنا الحاجة الروحية لتنظيم سلوك الفرد وضبطه لكي لايتأثر بالقوى الهدامة للقبح. يقول الفيلسوف عمانوئيل كانط في حكمه على الجميل (ان الحال يشبه بالضبط حين يكون علينا افتراض ان مواضيع الحس بوصفها مظاهر مثالية ان اردنا توضيح الكيفية التي نقدر بها تحديد اشكالها قبْلياً، لذا يجب علينا الافتراض مسبقاً وجود تفسير مثالي للقصدية عند الحكم على الجميل في الطبيعة والفن)6. ولكن مهما كان فإن المظاهر الاخلاقية تتجلى وفق الطابع العقلاني للجميل بوصفه مظهراً متفنناً، على ان لا يكون متعالياً لكيلا يخرج من مفاهيمه حول الجمال. يقول هربرت ماركوس (كل تمثيل جمالي تعتبر بمثابة ردود فعل مطابقة على الواقع المعطى الذي يقاوم، لتخلعه وتجزئه، كل محاولة للتشكيل الجمالي)7.

ويؤكد ماركــوز ان الشــكل الجمالي دائماً هو الذي يمنــح في ثقافة المجتمع العقلية، لكننا نــرى اذا كان هناك نداً له يأخذ هو الاخر طابعاً عقليا لدى مجتمع حيث ارثه الثقــافي يكون لــه دوراً في توجيهه، ليكون هنــاك جمال ونــد له. أخيراً نســتنتج ان العمــارة تكون وفــق معايــير موضوعية تناســب عقلية اهل المدينة الذين يعيشون فيها لكي تتوائم مع ذهنيتهم في تصورهم للظواهر التي تحيط بهم.

المصادر:

١_تدهــور الحضارة الغربيــة، الجزء الاول ص٦٩/ اوســفالد شــبنكلر. ترجمة أحمد الشــيباني، دار مكتبــة الحيــاة/ بــيروت، سنة١٩٦٤

٢_نفس المصدر الســابق، توضيح المترجم ص١٢.

٣_نفس المصدر السابق ص١٧.

٤_نفس المصدر السابق ص٦٩.

٥_تدهور الحضــارة الغربية، الجزء الثالث ص٢٦٧.

٦_علم الجمال عند الفيلسوف عما نوئيل كانط ص٧٠، تأليف دوكلاس بنهام وأخرون، ترجمة أحمد خالص الشعلان. دار الشؤون الثقافة العامة بغداد، سنة ٢٠٠٩.

٧_البعد الجمالــي، تأليف هربرت ماركوز ص٦٢، ترجمــة جــورج طرابيشــي، دار الطليعة/ بيروت. سنة١٩٧٩.

حول التجانس والانفصال والمثاقفة المثالية

يوسف يوسف

في بحثه عن الأزمة التي يعاني منها العرب في العصر الحديث ، يرى شكري عياد بأنها تتمثل بازدواجية الولاء ، وهي الازدواجية التي يقصد منها وضع قدم هنا في الشرق، والأخرى هناك في الغرب (١) . وغير بعيد عن هذا الفهم ، تحدث محمد شاهين عما أطلق عليها " فتنة المنتصر" التي تجعل المهزوم ينجذب إلى المنتصر وينفر منه في آن واحدة (٢).

على أنه ينبغي أن لا يفهم من هذا وجود رغبة عندنا في تسويغ القول بوجود ولو القليل من الامكانية عند الانسان : فردا كان أو جماعة ، تمكنه من الاكتفاء بذاته ، وتنفي حاجته إلى الآخرين . ولربما يكون من الجنون الاعتقاد بنقاء الذات، وانعدام وجود تأثيرات خارجية عليها . إن الذات البشرية " الأنا " تموت حيّة ، وتجف واقفة ، كالشجيرة في الصحراء ، شبه حيّة .. شبه ميتة .. لا روح فيها بدون أوكسجين " غيرها " من الأشجار ، ودون هبوب الرياح لنشر " بذور اللقاح " سرّ دوام الطبيعة بوجود " الآخر" الذي لا معنى للحياة بدونه ولا طعم للسعادة خارج دائرة الحياة بغير وجوده (٣). صحيح أنه ثمة بين العرب من يظن بأن ما يأتي إليهم من الغرب ليس خيرا كله ، ولكن في مقابل مثل هذا الاعتقاد المنطقي هناك من يرى بأن ما يأتي ليس شرا كله . وفي معنى آخر فإنه ليس من المعقول الاعتقاد بإمكانية عيش العرب في معزل عن الغرب ، الذي لا بدّ أن يتأثروا به ، ويؤثروا فيه في الوقت نفسه . ونحن عندما نتأمل الكثير من الحالات لا يسعنا غير القول على سبيل التقريب ، بأن طه حسين الذي يحمل لقب (عميد الأدب العربي) ، لم يكن في مقدوره بلوغ المنزلة التي وصل إليها بمنأى عما تعلمه من الثقافة الفرنسية ،

ومن المنهج الديكارتي ، ومن كل من الثقافة اليونانية وعلم الحقوق الروماني . أي أن مجموع المعارف التي اكتسبها طه حسين من الغرب ، هي التي مهدت له الطريق لبلوغ المجد الذي بلغه ، رضي بهذا القول أعداؤه أم لم يرضوا (٤).

وفي بحثه عن الطريق التي تبتعد بنا عن التيه الذي نجد أنفسنا كعرب فيه، يكتشف عبد العزيز حموده بأن نقلنا الكامل عن الحداثة الغربية ، بعد أن كنا قد خلطنا بين التحديث والحداثة ، كان التمهيد – شئنا

الاعتراف بذلك أم لم نشأ – للتبعية الثقافية للغرب ، وهي التبعية التي يرفضها أغلب المثقفين العرب ، باستثناء أولئك الذين يمكن أن يقبلوا بها ولا يرفضون العبودية للآخر (٥).

نحن نذكر هذا لنقول بأنه إذا كان لنا الحق في قبول أو رفض الأطروحات الوافدة من الغرب، فإنه من حق الآخرين ممن يعيشون معنا ، قبول الأطروحات القادمة إليهم أو رفضها ، سواء ذهبت منا إليهم أو جاءتهم من أي طرف آخر. إننا أيضا في الوقت الذي نرفض فيه الخلط بين الحداثة والتحديث ، وكذلك عدم تحديد المعنى الحقيقي لمصطلحات المثاقفة والتلاقح الثقافي والتثقيف بالقوة ، والخلط بين الكتابة بلغة الآخر ولغة الأنا (٦) ، فإننا نمنح مثل هذا الحق لهؤلاء الذين نقصدهم ، كردا كانوا أو بربر أو سواهم . إنها وفي صريح العبارة أزمة التبعية للآخر من أوصلتنا إلى الحالة التي ما نزال نعاني منها منذ عقود عديدة ، تتلاحق فيها السنوات ولا نجد الحل المناسب لها ، وأوصلتنا بالتالي إلى مثل هذا التصور الذي يصبح من حق المفكر الكردي فيه مثلا ، التشبث به دفاعا عن (أناه) هو الآخر. ولربما لا يجهل معظمنا مفهومات (الفرانكفونية) و(التأنجلز) و(التأمرك) وسواها من المفهومات التي تبين بأن تعدد الولاءات والأمكنة التي توضع فيها الأقدام لا يمكن أن تأتي بالخير للثقافات والشعوب التي لا تحافظ على شخصياتها الوطنية. لقد قال رشيد بوجدرة الروائي الجزائري المشهور حكمة بالغة الأهمية مفادها : إن الاستلاب إنما يعني الكتابة بلغة الآخر ، وإن الحالة السوية في حياة البشر ، إنما يمكن تحقيقها من خلال الكتابة بلغة الأنا .

إننا في الكلام حول الحداثة مثلا، لا ننكر رغبتنا في رؤية انعكاساتها في حياتنا كعرب ، ولكن الحداثة التي نتوخى منها أن تهزّ هذا الجمود الذي نحن فيها ، وتضع في الوقت نفسه حدا للتخلف الذي نرتع فيه ، إنما

يجب أن تكون حداثتنا نحن كما يقول عبد العزيز حموده ، وليست نسخة باهتة ومشوهة عن الحداثة الغربية (٧) . هذه واحدة من المسائل الهامة ، وعلينا أن نعي

بشكل جيد ، أن طريقتنا في التفكير ، ينبغي أن نحرر فيها أنفسنا من الاعتقاد بأن ملوكنا ورؤساءنا آلهة . ذلك لأن اعتقادا من هذا القبيل ، هو الذي يكرس رغبتنا في البحث المتواصل عن أوثان نعبدها ونتقرب منها ، أشخاصا كانت هذه الأوثان أو أفكارا ، أو على غرار ما يجري في تعاملنا مع الغرب ، الذي ننظر إليه على وفق ثنائية الرغبة والخوف من الفضيحة .

عندما جاء الطهطاوي وظهرت معه أفكاره التنويرية ، كان قد وضع جانبا مختلف المعايير الدينية والقومية والوطنية التي يمكن أن تكون عائقا أمام التواصل مع الآخرين . وهو قد فعل ذلك لإيمانه بأن العقل هو الآخر كوني النزعة ، كمثل الحضارة ، وان الله أعطى البشر على مختلف ألوانهم وأديانهم وجنسياتهم حظوظا متساوية من العقل ولم يفضل أحدا على أحد . وواقع الأمر فإن الثقافات الانسانية جميعها بدون استثناء تتحاور وتتكامل وتتبادل المعارف ، وإن هذا إنما يقع على سبيل التلاقح والتثاقف معا.

لقد ظهرت الأزمة التي نتحدث عنها عندما لم يقم المفكر العربي المأزوم أصلا، بتأمل أزمته الداخلية ، وتأمل تخلفه وتخلف مجتمعه بشكل أدق ، إلا بعد أن جاءه الآخر الغربي محتلا (٧) ، وإن ظهرت لهذا الغربي كما يقول محمد شاهين صورتان متناقضتان : الاولى تمثل صورة العدو الذي دخل بجنوده في ساحة الأزهر ولم يقم(برفع الياء وكسر القاف) وزنا لحرية المصريين ، والثانية المغايرة تماما ، وهي التي تكونت بعد الاكتشاف بأن نابليون قد جاء ومعه المطبعة التي تؤرخ لمرحلة جديدة من حياة مصر(٨).

ومعنى هذا فإن الحديث عن إنسان يمكنه العيش والاكتفاء بذاته ، ما هو إلا محض افتراء واختلاق كبيرين . ذلك أن الأخر حقيقة موجودة في داخل كل واحد منا ، ومن الخطأ الاعتقاد بأنه ثمة ذات في هذا الكوكب

هي حصيلة أنيتها الخالصة ، وإنما وهذا هو المنطق الصحيح ، تتسرب في ذات كل منا ذوات أخرى ، من كل لون واتجاه (٩). لكن من أجل أن

يطور الواحد منا ذاته كفرد أولا ، وكمجموعة بشرية ثانيا ، وتتحقق لكل منا اليوتوبيا التي يؤسسها عادة في مخياله ، علينا : كل واحد منا على انفراد أو مجتمعين أن نكتب بلغاتنا وليس بلغات غيرنا . وهذا الفهم هو ما جعل عزالدين المناصرة يميز بين نوعين من الأدب : الأدب المكتوب بالفرنسية ، والآخر الفرانكفوني الذي هو أدب اندماجي في الروح الفرنسية .

يقول عالم الاجتماع الفرنسي الشهير غوستاف لوبون بأن كل شعب يحمل في كيانه العقلي نواميس مآله في الوجود . وهذه النواميس هي التي تمكن الشعوب من

البقاء كمجموعات لها خصوصياتها ، وتحدد طرق تواصلها مع بعضها . وبما يقترب من هذا نقرأ لحاتم بن عثمان قوله : إن الحديث عن (الأنا) و(الآخر) ، يطرح بخلفية الفصل بين عالمين : عالم لي وعالم له . بين كثرتين : جنس أنا منه وأجناس منها الآخر ، حتى وإن شاركني الهموم والطموح والأحلام والآلام ذاتها ، وكأن مجرد احتمال التواصل إلى الأبد قد استحال ، فهي عند البعض القطيعة التي تنفي الحوار والنقاش (١٠) .

وإذا كان حديث غوستاف لوبون يدفعنا إلى البحث عن عناصر القوة الكامنة في ذواتنا ، فإن ازدواجية الولاء عند الحداثيين العرب كما يراها شكري عياد ، هي التي أنتجت عملية الانشطار الدائمة عند هؤلاء الحداثيين الذين لم يستطيعوا رؤية ذواتهم رؤية دقيقة ، ولم يتمكنوا حتى من اكتشاف عناصر القوة الكامنة في مجتمعاتهم التي يتشكل منها بحسب لوبون قانون المآل في الوجود . إننا وهذه هي الطامة الكبرى ، نلهث في الغالب وراء شعارات جاءت إلينا من دنيا الآيديولوجيا ومن الرغبة في تسييس كل شيء ، في حين أننا لم يعر الواحد منا ذاته أدنى اهتمام . وحتى أولئك الذين لا يخفون نزوعهم إلى تمثل النموذج الأمريكي ، أوالحداثة الأمريكية ، فإنهم يصرفون أنظارهم عن مسألتين هامتين تفيدان الباحثين عن ذواتهم وقواها الكامنة : الاولى تتمثل بوجود اختلاف كبير وحقيقي بين كل من الحداثتين الأمريكية والاوروبية ، مع ما يحتمه هذا الاختلاف من وجوب احترام الذات والدفاع عنها ، والثانية تتمثل بتركيبة الثقافة الأمريكية التي يعمل العقل الأمريكي في ضوئها ، من أجل المحافظة على ذات حرّة موحّدة وتلقائية وشبه ديكارتية بأي ثمن (١١).

إن الشعوب التي تعتبر زعماءها آلهة ، وحدها دون سواها تنفي قيمة الذات ولا تعلي شأنها، بل وقد تلغي وجودها تماما ، لصالح آخرين ، وبما يتعارض مع منطق الوجود وسيرورة الحياة . وهذه هي نقطة الضعف التي علينا الاعتراف بوجودها ، بدل الحديث كما جرت العادة حول ما نسميها (همجية الغزو الخارجي) . صحيح أنه ثمة قوة سياسية هائلة تندفع إلينا من الخارج ، ومعها أيضا ثمة ما لا يمكن التقليل من شأنها في اندفاعتها كقوة عسكرية ضاغطة وقاهرة ربما ، إلا أن كل مستعمرة من المستعمرات أينما كانت وفي أي الأزمنة تظهر ، ما هي في المحصلة النهائية إلا نتاج جدلية وترتيب خاصين بها ، داخليين إن شئنا الدقة . إننا هنا في صدد الاشارة إلى مجموعة العوامل التي من شأنها الكشف عن استعداد الذات للخنوع للآخر ، وإلى ما أطلق عليه المفكر الاسلامي مالك بن نبي استعداد العرب لأن يستعمروا (برفع الياء وفتح التاء والميم).

في الحديث حول التنوع الثقافي والمثاقفة ، أوحول المثاقفة والاستلاب، يمكن التذكير باليوتوبيا ، من حيث هي واقع آخر أفضل من الواقع الذي يعيش فيه صاحب هذه اليوتوبيا والحالم بها . واليوتوبيا في مفهوم آخر، لغة أخرى ومجتمع آخر ، وهي كذلك عالم آخر يبرز في الخيال ، وقد أظهرها إلى الوجود المعجمي توماس مور(١٢) ، الذي أراد التعبير من خلالها عن مكان غير موجود . وقد احتفظت منذ ذلك التاريخ على ما أراده منها : التبصّر في الواقع والعمل على تغييره نحو ما هو أجمل وأفضل .

ما سبق من الحديث حول الذات والآخر ، وضرورة التفاعل بينهما وعدم الاصطدام والتصارع ، يحيلنا إلى ثنائية التجانس والانفصال ، وارتباطها بسيرورة الحياة البشرية . وإلى هذه الثنائية من أجل التقريب

فما إن بشّر أفلاطون بجمهوريته الفاضلة ، وهي مثال للتجانس الذي نتصوره بين البشر ، سرعان ما اكتشف القريبون منه آنذاك ، أن الخارجين على هذه الجمهورية ذات الصفات الجذبية المدهشة ، يفوق عددهم عدد الدعاة إليها والراغبين بها . أي أنه ثمة دعوة ضمنية للانفصال عما كنا نتصوره في البدء تجانسا . وعندما توغل الاسكندر المقدوني في الشرق زاحفا بجيوشه آلاف الأميال ، كان يحمل في أعماقه رغبة قوية في السيطرة أو في توحيد العالم دينيا على الأقل ، لكنه هو الآخر سرعان ما اكتشف أنه ليس في مقدوره تحقيق ذلك . وقبل هذا وذاك ، وقع ما يؤكد أن الناس أجناس وأصول ومشارب وبيئات متباينة، وأنهم ليسوا جميعهم على منوال واحد ، بل ولا يمكنهم أن يكونوا كذلك ، فالأساس في الخليقة (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) (١٢) و(ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك آيات للعالمين) (١٣) . وحتى عندما شق محمد بن القاسم الثقفي القائد الاسلامي الطريق واتجه نحو بلاد السند والهند ، ومثله طارق بن زياد لكن إلى بلاد إسبانيا ، فإن تحويل العالم إلى ملة الاسلام لم يكتمل تماما وقد بقيت المليارات من البشرعلى أديانها . وفي الحروب الصليبية لاحقا ، فإن ريتشارد قلب الأسد ، لم يستطع تحقيق آماله بتحويل المسلمين إلى مسيحيين إن كان عنده ثمة أمل من هذا النوع يحمله في أعماقه . كما أنه لم يستطع أن يحتفظ حتى بالجغرافيا التي ظل يحلم بها باعتبارها أرضا مقدسة عند أصحاب الصليب ويريد انتزاعها من أيادي المسلمين . إنه السعي لخلق التجانس بين البشر ، يقابله الانفصال ، والأمثلة إلى هذا التصور كثيرة . فاليهود وهم أصحاب ديانة واحدة ، لماذا أصبحت لهم ولاءات ومفهومات مختلفة ، أو هي قد تتضارب أحيانا ؟ ومثلهم أيضا : لماذا انقسم المسيحيون وهم

الآخرون أصحاب ديانة واحدة في الأصل إلى بروتستانت وكاثوليك وأرثوذكس ..؟ وعلى غرار هذا نسأل : لماذا المسلمون وهم كمثل سابقيهم أصحاب ديانة واحدة ونبي واحد أصبحوا سنة وشيعة وإباظية وزيدية وغيرها من الفرق يناصبون بعضهم العداء ولا يرسون عند اتفاق يوقف حمامات الدم التي لا تتوقف منذ أزمنة بعيدة ؟ وشبيه ما حدث للمسلمين في معركتي صفين والجمل ، ما يزال قائما في الغرب بين مذاهب الدين المسيحي ذاته . لماذا (الفلمنج) وهم أصحاب قومية واحدة ، ولغة واحدة ، اختاروا الانقسام إلى مجموعتين إحداهما في بلجيكا والأخرى في هولندا ؟ هل صحيح إنه الاختلاف الديني ، والقسمان مسيحيان . ومثلهم أيضا : ماذا عن الصرب والكروات وهم أصحاب لغة واحدة وديانة واحدة ، لماذا العداء بينهم وتلك الحرب التي لا تكاد تتوقف؟

لقد تشظت الدولة الاسلامية الواحدة فأصبحت دولا . والعرب وهم في غالبيتهم أصحاب ديانة واحدة ، لماذا أصبحوا دولا ؟ هل إنها المؤامرة كما يقول السياسيون والمؤرخون حقا أم إنها الرغبة بالانفصال يحملونها في أعماقهم ؟ وقبل هذا أو بعده : لماذا حدد الغرب سلطة الكنيسة في مساحة ضيقة أطلق عليها تسمية الفاتيكان وجرّدها من أي تأثير حقيقي عليه وعلى سياساته ؟ أي لماذا هذا الغرب المسيحي هو الآخر أصبح دولا : فهذه دولة إنجليزية ، وتلك فرنسية ، وأخرى غيرهما إيطالية ، وهكذا إلى ما يفصح عنه القاموس السياسي من أسماء الدول : دول ظاهرها الاتفاق ، والسوق الاوروبية المشتركة ، وحلف الأطلسي ، وسوى ذلك من المسميات ، وباطنها خلافات حادة وعميقة ، شأنهم في ذلك كمثل شأن العرب ، فهذه ثقافة فرنسية ، وتلك إسبانية ، وغيرهما يونانية ، تماما وعلى غرار ما يقال حول وجود ثقافات عراقية ومصرية وسورية .. إلخ من ثقافات مساحة المستتر فيها أكثر من مساحة المعلن شئنا الاعتراف بذلك أم لم نشأ. قد يقول قائل هنا : إن اتفاقية سايكس – بيكو هي التي فرضت على العرب الانقسام ، ولكن الصدق الذي يتمتع صاحبه بالجرأة في مهاجمة الزيف والدوغمائية الكاذبة ، يجب أن لا يغيّب(برفع الياء الاولى وتشديد الثانية) الرغبة بالانفصال ، وما دعوة وزير العدل الفرنسي على سبيل المثال لتطهير اللغة الفرنسية من تأثيرات اللغة الانجليزية ، إلا دليل على صحة ما نذهب إليه ، من القول بأن البشر يميلون باستمرار إلى رفض القوة القاهرة ، التي تحاول تدمير حقيقتهم من حيث أنه لا بدّ من وجود ذوات وليس مجرد ذات واحدة على البشر جميعهم الاندغام فيها .

في البدء كان التجانس ، ثم تبعه الانفصال . لقد كان آدم متجانسا مع نفسه – ذكورته غير المكتشفة . وعندما حاول

التجانس – الالتحام كرجل مع أنثاه حواء التي خلقها الله خصيصا له ، تبع ذلك الطرد من الجنة – اليوتوبيا اللاحقة التي سيبقى بنو الانسان يبحثون عنها ، باعتبارها المكان الأفضل للابقاء على التجانس ورفض الانفصال . صحيح أن الطرد من الجنة كان ثمنا باهظا في مقابل الخطيئة التي لا شأن للاثنين : آدم وحواء بها ، إلا أن آدم واصل السعي من أجل المحافظة على تجانسه مع حواء – الجسد المشتهى ، ربما لأنها أصبحت ملاذه الوحيد للخلاص من عذاباته . لقد حرضت الخطيئة آدم على البكاء والاستغفار وعلى الصلاة ومحاولة التقرب من الله ، فاكتشف أن ثقافة الأرض قد نزعت منه الكثير من مبررات سعادته، فصار المعراج إلى الجنة سبيله إلى التجانس المأمول . لكن ما الذي حدث ؟ لقد رزق آدم بذكرين وأنثيين نعرف من بينهم قابيل وهابيل . وإذ أبصر في الذكرين جسده ، وفي الأنثيين شكل حواء ، فرح بالتجانس الذي رأه يكبر ، وحدث لاحقا ما يؤكد بديهية الانفصال .. فهذا قابيل يقتل أخاه هابيل ، وهو يستسلم لثقافة أفرزتها أحاسيس بائسة وطموح لا قبل لطفولة وعيه باستيعابه . إن تلك الثقافة في نظر آدم – الأب ، كانت ذات طابع دنيوي شهواني ولا علاقة لها باليوتوبيا التي كان يحلم بها ويطوّع حواء هي الأخرى لتحلم بها . ثقافة قابيل تلك حملته إلى ليوثا أخته فأراد التجانس معها هي الأخرى كمثل ما فعل أبوه مع أمه حواء ، فكان الانفصال عن أبيه وأمه بعد أن قتل أخاه أيضا ، وهكذا صارت الحال تتكرر ، ولد ذكر من ظهر رجل ، وبنت أنثى من ظهر رجل آخر ، يتجانسان ، ولكنهما سرعان ما ينفصلان عن بيتيهما الأولين ، ويؤسسان بيتا جديدا.

لقد أراد الأب آدم ولاعتبارات سلطوية تمنحه إياها الشريعة وسنة الحياة تنظيم أسرته ، وصياغتها ثقافيا على وفق ما سبقت الاشارة إليه – نمو التجانس والعيش في الجنة ثانية . بيد أن الابن قابيل لم يذعن لخطاب الأب، فانتصرت في أعماقه الرغبة التي تتاجج محتدمة أولا لعدم قبول قربانه ، وثانيا لطمعه في توام أخيه – أنثاه الموعودة من آدم ، فقتل أخاه ، في بادرة تعتبر الاولى في تاريخ الانسان الراغب بالانفصال عن المركز. فهل نفهم من هذا أن السعي إلى التجانس يقابله باستمرار سعي نحو الانفصال ؟

لقد جاء فرويد عالم النفس الشهير وحسم الأمر عندما تحدث عن موقع اللاوعي في حياة الانسان ، واعتبر ذلك اللاوعي المحرك الأساسي لكل الأفعال التي يقوم بها هذا الانسان : الظاهر منها والمستتر على حدّ سواء . لذا وعلى سبيل المثال ، فإن الغرب الذي كان يرى في الدين سببا للحروب الأهلية التي حصدت من أرواح أبنائه مئات الآلاف ، سرعان ما وجد في قول فرويد ما

يخدم غايته ، فوظفه بشكل ماكر وشيطاني ، بحيث جعل موضوعة كالحروب الصليبية مما يدرسه في مناهجه الدراسية . أي إنه وفي ضوء ما يفهمه من قول فرويد ، بدأ يزرع في وجدان الناشئة سببا لكراهية العرب والمسلمين ، من خلال ما سوف يغرسه في لا وعيهم .

يعطينا كل ما سبق مدخلا للحديث حول الحروب في شقيها المعلن والمستتر وثقافاتها التي قدمت التوطئات إليها . فالنظام الاعلامي الدولي الجديد على سبيل التقريب مثلا، ونظرية التدفق الحر للمعلومات ، وفكرة تحويل العالم إلى قرية صغيرة لا تغيب عنها أية صغيرة أو كبيرة مما يحدث في مختلف أرجاء العالم ، جميعها لافتات براقة لتحقيق أهداف تخلو في محصلاتها الأخيرة من النبل والأخلاق . صحيح أنه من المهم أن يكون الانسان على معرفة بالمحيط الذي حوله ، وأن يعرف على الأقل ما

يدور فيه ، ليأخذ منه ويعطيه ، على وفق ما نفهمه من مفهوم المثاقفة وأبجدياتها وشروطها التي تنفي عنها صفة استلاب حق الآخر ، إلا أن هذه المثاقفة من المنظور الغربي ، بقيت كما هي ، تجري في اتجاه واحد غرب – شرق ، وبقيت فيها من رغبات السوء ، أكثر مما فيها من أهداف الخير ، خصوصا وأنها تحدث في الغالب من طرف واحد يأبى الأخذ من الطرف الآخر الذي يتعامل معه بنوع من الاستعلاء المقيت . وكيف لا نقول بانعدام النبل في مثل هذه اللافتات ، وعلماء الغرب ومفكروه أنفسهم وقبل غيرهم يدركون أن الدين الواحد قد أصبح أديانا ، والقومية الواحدة صارت مجموعات متناحرة ، والدولة الواحدة صارت دولا ، والوطن الواحد صار هو الآخر أوطانا ، فهل من المعقول التفكير بعقلية القائلين بإمكانية الاستنساخ الجيني ، ونقل الثقافات من بيئات وأمكنة إلى أخرى لوضع حدّ نهائي لكل أشكال الصراع وبضمنه الثقافي الذي يأبى السيطرة عليه بمختلف أشكالها ؟

إننا إذا ما افترضنا بأن كل هذه اللافتات سوف تحقق أهدافها ، وأن العالم سوف يتحول بالفعل إلى قرية صغيرة كما تتوخى العولمة في أطروحاتها التي تبشر فيها بخطاب ثقافي واحد سوف تكون له الغلبة ، فإن معنى ذلك أننا أمام حروب جديدة ، غايتها السعي إلى الانفصال بعد التجانس ، حتى لو كان قد وجد طريقه إلى الحياة بقوة قاهرة . وهنا نكرر السؤال : ألم يغادر العرب الأندلس بعد عيشهم فيها قرونا عديدة أسسوا خلالها دولة وحضارة ؟ والصليبيون هم الآخرون : ألم يطردوا(برفع الياء) من الأراضي العربية بعد أن دانت لهم سنوات طويلة وبالطريقة ذاتها التي طرد فيها العرب من الأندلس وسواها من البلدان التي وصلوها لنشر ديانتهم الجديدة – الإسلام ؟ والعثمانيون

الذين حكمت امبراطوريتهم مئات السنين وعاشت دهرا طويلا ، كيف كانت نتيجة وجودهم كقوة سياسية وعسكرية وثقافية ضاغطة ؟ وأولئك الفرنسيون الذين عملوا على فرنسة الجزائر ، ماذا بشأنهم ؟

إن الاعتقاد بإمكانية التجانس ، يخالف ما نشأ عليه الانسان منذ بداية الخليقة . فهل إنه السباق بين العلم ممثلا بما تسمى ثورة الاتصالات، وبين الكارثة ممثلة بمختلف محاولات استلاب لا وعي الآخر ، وتحويله إلى رديف كاربوني لأصل وافد عليه بقوة العلم في هذه المرة . ولربما يجوز أن نسأل من زاوية أخرى : هل إنه السباق الذي تحدث عنه ويلز وهو يرى أن العالم يندفع باتجاه الهاوية ؟

ربما لا تروق الأمثلة السابقة للبعض بحكم أن فعل الانفصال فيها إنما يقع باعتباره نوعا من رد الفعل على محاولات فرض التجانس بالقوة كمثل ما يجري في تعامل العرب مع غيرهم من الأثنيات التي تعيش معهم

في الحيز الجغرافي ذاته ، إلا أن الاشارة إلى واقع التكون الأسري أينما كان، وفي أي زمان ومكان ، يفي بالغرض لتبرير ما نذهب إليه ، وللحكم بصحة هذا الاستنتاج . فالبنية الاجتماعية التي تبدأ بالأب والأم ، هي بنية منسجمة مع ذاتها وفيها ، سرعان ما تنمو بالتناسل الذي يحدث ، ولكنها سرعان ما تتحول أيضا إلى عدد من الأبنية الأخرى ، فإذا الأسرة الواحدة تصبح أسرا، وهكذا الحال في ظهور المجتمعات ، التي بدورها يمكن أن تتشظى على ذات المنوال الذي تتشظى فيه الأسرة بزواج أبنائها وبناتها وتأسيسهم بيوتا جديدة. وهكذا فإنه إذا كان لا بدّ من الانفصال في الأمثلة الاولى ، فإنه ضروري للحياة في مثل حال الأسرة منذ بدء الحياة .

إن ما يهدد البشر اليوم ، وبحسب كلود ليفي شتراوس في كتابه ذائع الصيت (الأسطورة والمعنى)(١٤) هو ما تمكن تسميته بالاتصال الزائد بين الناس ، الذي يتمثل بالنزعة السائدة بينهم في مختلف أماكن وجودهم في هذا العالم ، لمعرفة كل ما يحدث في كل الأجزاء الأخرى منه . قد يثير مثل هذا الرأي استغراب ودهشة البعض ، إلا أن التوقف أمام ما يحدث من منظور دلالي ، يؤكد صواب قول شتراوس حول خشيته من هذا الاتصال الذي تلهث البشرية وراءه . وإذا كنا ننظر إلى التاريخ من حيث أن السابقين قد أنتجوا تاريخهم الخاص بهم ، وأنه علينا بالتالي أن ننتج نحن الآخرون تاريخنا الخاص بنا، فإنه من المنطق القول بأنه على الواحد منا أن يكون ذاته هو ، وليس أي ذات أخرى ، وأنه على المجتمعات أن تكون هي أنفسها بشكل حقيقي ، وأن تنتج أشياءها الخاصة وتاريخها ، لا أن تقوم باجترار إنتاجات الآخرين ، وهذا لن يتم إلا إذا اقتنع هذا المجتمع وذاك ، هذا القوم

أوسواه ، بأصالتهم التي لها ثقافتها ، ومن هنا فهمنا للمثاقفة بمعناها الصحيح.

الهوامش :

(١) أنظر / عبد العزيز حموده / المرايا المحدبة / سلسلة عالم المعرفة /
العدد ٢٣٢ الكويت ١٩٩٨ ، ص ٣٢

(٢) د. محمد شاهين / الأنا والآخر ، المجلة الثقافية ، ع ٧٥ ، الجامعة
الأردنية ، عمان ٢٠٠٩

(٣) حاتم بن عثمان / العولمة والثقافة / المؤسسة العربية للدراسات
والنشر ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص١٢٥

(٤) د. محمد شاهين / المرجع السابق

(٥) أنظر : د. عبد العزيز حموده / الخروج من التيه / سلسلة عالم المعرفة / ع: ٢٩٨ ، ٢٠٠٣ ، ص٩

(٦) يقول الدكتور عزالدين المناصرة : الفرانكفونية روح وموقف ولغة، ومما يؤكد ذلك أننا نجد كتابا فرانكفونيين لا يعرفون كلمة فرنسية واحدة ، ونجد متأمركين لا يعرفون كلمة إنجليزية واحدة . فاللغة ليست وحدها العامل المقرر ، ولهذا نفصل بين نوعين : أدب مكتوب بالفرنسية وأدب فرانكفوني ، أي أدب اندماجي في الروح الفرنسية .أدب فرنسي ، وأدب مكتوب بالفرنسية ولكنه عربي الموقف (مقدمة في نظرية المقارنة / دار الكرمل / عمان ١٩٨٨ ، ص٨٣

(٧) أنظر/ د. عبد العزيز حموده ، المرايا المحدبة ، سلسلة عالم المعرفة ،
٢٣٢، الكويت ١٩٩٨، ص١١

(٨) للمزيد أنظر د. شاهين / المرجع نفسه

(٩) د. شاهين / نفسه

(١٠) غالب حسن الشابندر / الآخر في القرآن / مركز دراسات فلسفة الدين / بغداد / وزارة الثقافة / ٢٠٠٥، ص٣٨

(١١) حاتم بن عثمان / المرجع السابق ، ص١٣٦

(١٢) للمزيد أنظر: باربرا ويتمر ، الأنماط الثقافية للعنف، ترجمة د. ممدوح
يوسف عمران، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت، ٣٣٧، ٢٠٠٧،ص٩١

(١٣) أنظر د. عبد العزيز حموده/ المرايا المحدبة / ص٧٣

(١٤) سورة المائدة / ألآية ٨٤

(١٥) سورة الروم/ الآية ٢٢

(١٦) للمزيد أنظر / كلود ليفي شتراوس / الأسطورة والمعنى / ترجمة د. شاكر عبد الحميد/ دار الشؤون الثقافية / بغداد ١٩٨٦

الفصول المتناسية من معاناة الكرد في كردستان سوريا

بقلم: بشار عيسى

أجيال لم يعد في مقدورها تحمل ذلّ الخضوع والعبودية ولا القبول بإذابة هويته القومية، ولا في أن تكون حياتها رهناً أسيرة لهذا العاجز الوطني أو ذاك العنصري الحاكم، بعدما فقدوا كل شيء ولم يبق لهم ما يفقدونه غير قيود التمييز العنصري والإلغاء القومي.
لقد تمادت الحزبيات الكردية أكثر من مرة في قصورها الفكري والسياسي في تلمس الحس الشعبي في أكثر من لحظة تاريخية، وهي دائما كعادتها، تستجدي بدماء الشباب الكرد خطباً رنانة على المقابر وفي خيم العزاء تتقدمها باقات الزهور العملاقة لتليق بمقاماتها، تتنافخ بحجومها بالمساومة على عجز وخلاف من حول الحق القومي للشعب الكردي في سوريا بحصره في حجم همم القيادات وتمنيات الأجهزة الأمنية.
جرت في الأيام الخوالي عشرات الاحتفالات بعيد المرأة حتى حسبنا أنه عيد قيامة كردستان، وفي خيم عزاء الشهادة لا نقع على حضور امرأة، و في قيادات الأحزاب لا وجود لغير شوارب الرجال وربطات العنق الأطول من الهامات، ولا صوت لأمهات الشهداء أمام المكرفونات، خوفا من سماع لوعة أمّ بشهيدها .
للأسف لم تُعوّد الحزبية الكردية في سوريا شعبها على تقدم الصفوف بقدر ما تريده مطية لهمومها الذاتية وخلافاتها وقدراتها المرتهنة لأكثر من مربط فرس، وحين تتقدم الأجيال الشابة للمهام الوطنية برفع نضالاتها وطموحاتها إلى حجم الهمّ القومي الكردي الخاص، و

الوطني السوري العام، تركض القيادات الحزبية بحجج ثعلبية شتى تقطع عليها الطريق لإعادتها إلى زريبة السقوف الأمنية للسلطة المستبدة العنصرية. فمنذ أن قامت دولة الوحدة السورية ـ المصرية، والكرد يفقدون باستمرار أجزاء من حرياتهم العامة والخاصة والكثير من حقوقهم المدنية والسياسية وحتى الإنسانية، دون استخلاص الكثير من العبر والدروس للانتقال إلى المواجهة التي تصبح كل يوم فرض واجب على كل عاقل غير سفيه. في دولة البعث الأولى، جرى تثبيت النتائج الفاحشة لقانون الإحصاء، الذي جرّد مئات الآلاف من الكرد في منطقة الجزيرة من الجنسية السورية وبالتالي من ملكياتهم ومن حقوقهم المدنية في الإرث والزواج شرعا وقانونا ومن حق العمل والتملك و حق المواطنة السياسي، الحق بالوصول إلى منصبي القاضي والحاكم، وفي كل يوم مع كل ولادة جديدة بين هؤلاء المجردين من جنسيتهم منذ ٤٨ سنة تتجدد جريمة تجريد الكرد من جنسيتهم، إذ يجرد القانون حتى الولادات القادمة سلفا من الحق بالجنسية.

مع استيلاء الجنرال حافظ الأسد على السلطة بانقلاب من الشعارات القومية والاشتراكية، تمّ بمفاعيل قانون الطوارئ والأحكام العرفية والإصلاح الزراعي، استكمال الجريمة بتجريد الكرد من ملكيات الأرض في حدود خط المطر بعمق ١٠ ـ ١٥ كيلومترات على امتداد حدود الإقليم الكردي مع مثيله على الجانب التركي، وجرى زرعها بمستوطنات عربية مستقدمة من الداخل السوري على غرار المستوطنات الإسرائيلية في الجولان، حسب خطة السيء الذكر محمد طلب هلال. والنتائج هي كما يلي:

ـ منذ سنة ١٩٨٤ يتم سنويا طرد العشرات من الطلبة الكرد من المعاهد والثانويات، ويجري فصل المعلمين والموظفين من مواقعهم تحت بند مقتضيات المصلحة العامة.
ـ في سنة ١٩٨٦ جرى إطلاق الرصاص على المحتفلين الكرد بعيد النوروز في دمشق والقامشلي.
ـ وفي سنة ١٩٨٦ تم بقرار من محافظ الحسكة «صبحي حرب» حظر تسمية الولادات والمحال التجارية بأسماء يشتم منها أن لها ايقاعا كرديا، بسياسات التعريب العرفية منعت اللغة الكردية من التداول في الدوائر والمدارس وتمت وتتم عملية تعريب لأسماء مئات البلدات والقرى الكردية تعتبر بعضها مواقع أركيولوجية نادرة في الأقاليم الكردية.
ـ وفي سنة ١٩٨٩ صدر قرار يحظر الأغاني الكردية في الحفلات و الأعراس.
ـ ، وفي سنة ١٩٩٣ نفذت السلطات

جريمة إحراق متعمد في احد مهاجع سجن الحسكة المدني أودى بحياة ٥٤ من الموقوفين الكرد بالتواطئ بين «محمد منصورة» والمجرم «محمد مصطفى ميرو» وقائد شرطته محمد مخلوف.
- ليست مجازر ١٢-١٣ آذار سنة ٢٠٠٤ آخر جرائم سلطة بشار الاسد، حيث تمّ بهذا التاريخ إطلاق الرصاص بأمر من محافظ الحسكة القاتل» سليم كبول» على المدنيين في مدينة القامشلي وعلى جنازات الشهداء مضافا إليها نهب محلات الكرد في مدينة الحسكة وعامودا ورأس العين والقامشلي ، والتي أعادت إلى الأذهان ما يحدث أثناء الانقلابات القبلية الافريقية.

ترافقت سياسات السلطة العنصرية هذه، مع عملية مطاردة مستمرة بما يشبه التواطؤ مع قيادات بعض الأحزاب الكردية للكتلة المجتمعية غير المتناغمة مع المنظومة الحزبية الكردية المتناغمة وآمال وتمنيات صديقها السيد «محمد منصورة « برشوة سياسية شكلية:
- إيصال بعض من قيادات هذه الأحزاب إلى مجلس الشعب لمرة واحدة سرعان ما استبدلوا بنخب عشائرية أكثر من تافهة ووضيعة.
- السماح بالاحتفال بأعياد النوروز بإشراف مباشر من الأجهزة الأمنية والحزبية الكردية تحت مسمى عيد الأم، ولكن حين تجاوزت النخب الشعبية الأحزاب والقيود الأمنية جرى قمعها بإطلاق الرصاص عليها منذ سنة ١٩٨٦ .
لقد فشلت سياسات السلطة وجرائمها في ترويع المجتمع والنخب الكردية المستقلة، بأشد أساليب الفاشية فجورا وضراوة، التهديد في اللحم الحي مترافقا وسلسلة تدابير الغائية ورشائية، فضلا عن النجدات المعنوية والدعائية للأحزاب الكردستانية المستضافة إلى حماية السلطة: بالتضييق المستمر على النشطاء الخارجين على التفاهمات الحزبية للحضور الكاريزمائي للنخب غير المنضبطة و الثقافية، بالطرد من الوظائف وسد أبواب العمل وإدارات الدولة والدراسة أمام النشطاء. كما أصبح النشطاء ضيوفا دائمين على معتقلات الأجهزة الأمنية.هذا ولا بد من التذكير دائما بالضحية الرمز المجردين من الجنسية.

كردستان سوريا اليوم بعد تراكمات النهضة الذاتية لحوالي ثلاثين سنة خلت، مجمرة شبابية مثقفة مكتوية بنار التمييز العنصري وهم يروون الأرض التي تقضم من تحت أقدامهم باستملاكها المستمر للعرب المستوردين، والوظائف والإدارات التي تسند إلى الغرباء دون أهل البلاد وسكانها الأصليين، ومدنهم وشوارعهم وأسماءهم تصبح منحة من خارجين من قوانين عنصرية، وحقوقهم تصبح في سحنة هؤلاء المستوردين

بعقيدة البعث والشوفينية القومية بحكم قوانين عرفية لسلطة مغتصبة للوطن من شرقه لغربه ومن جنوبه لشماله في منافع عائلة الأسد الفاسدة، يجرم فيها الكردي بحقيقة وجوده التاريخي الشرعي في أرضه مطالبا الآخر بالمساواة بحق التكافؤ أمام القوانين الوضعية والشرائع. لذلك سيكون من المستحيل على الضحية الكردية المذلّة والمهانة والاستمرار في هذا الحال دون أن تعض الآخر في أذنه، كما سيكون من المستحيل أن تبقى النخب الكردية متفرجة على تهميشها وهي الأكثر ثقافة ونشاطا وحيوية في الوطن السوري على ضيق المسالك وصعوبة المراقي مقارنة بباقي السوريين، ولا نفشي سراً إذا قلنا أن الساحة الكردستانية السورية على قلّة عددها السكاني مقارنة بغيرها من الساحات الكردستانية هي الأكثر تحصيلا دراسياً في مختلف فروع الدراسات العليا والمتوسطة، بالاضافة الى نشاطها الثقافي في مختلف أجناس الآداب والفنون والأكثر انفتاحا وحيوية كردستانيا والأكثر وطنية ونهضوية قوميا، ومع ذلك ترى نفسها في وطنها وفي كردستانيتها تقوم بدور الكومبارس.

وهنا، سأركز بحثي على مدينة «عامودا»، طالما للمدن مثل الافراد، شخصية وخصوصية كارزمية لا تصنع بالقرارات ولا من قطع غيار مستوردة، فالمدن تبنى من آجر مشوي في حرائق الزمن، تنسج خصوصيتها في بوتقة التاريخ مثل البسط والكليم والسجاد من اصواف محلية بأصباغ متخرجة من براري البلاد /الاوطان.

«عامودا» المدينة السورية بامتياز، الكردية بامتياز، المتعددة بامتياز، من المدن القليلة التي تلف جراحها بظلالها وتصيغ نطقها بتعابير تخرج من عمق الحارات كسحنات الابناء، من اكثر المدن السورية نهضوية، ففضلا عن غرفها الفقهية على مدى التاريخ دخلت العصر السوري الحديث بانتفاضتها الكبيرة على المستعمر الفرنسي وتم احراقها مما جعل اسمها مرادفاً ب « شو ّتي» المحترقة تيمنا ببهائها القدسي وافتخار اهلها بثورتها الكبيرة على المستعمر الفرنسي استدعى قصفها بالطيران سنة ١٩٣٦، ومنذ ذلك التاريخ وعامودا درة في بلاد الجزيرة السورية ورمز التمرد والحراك السياسي والثقافي، ولأبنائها من سياسيين وشخصيات وطنية ومثقفين قصب السبق على باقي مدن الجزيرة، عليها نزل غضب السلطات المتتالية منذ ايام الوحدة الناصرية، وتتالت عليها سياسات القمع والقهر على مدى ٩٤ سنة من ايام البعث وما زال، ومع ذلك لم تحني عامودا رأسها يوما، ولم تتنكر لتاريخها الريادي النهضوي والمتمرد، دائما بالحق، مدينة الشهداء التي قدمت مئات من اطفالها في

حريق سينما عامودا بسبب عروض فيلم جميلة بوحيرد لمعونة الثورة الجزائرية.

لم تفت سياسات البعث في عضد ابناء عامودا وهي أصغر مدن المحافظة فرغم سياسات التهجير والتجريد من الجنسية والحرمان من التعليم والتوظيف وتسليط اجهزة الامن المتعددة الفروع والقهر والتجويع والتهميش، بقيت عامودا، المشتهرة بروح الدعابة والسخرية المرّة، بقيت، كردية الشخصية، رغم وجود بيوتات عربية بعراقة تداخل التاريخ الكردي العربي منذ بديات الاسلام أضافت لها نكهة بخصوصية: جمعت ولم تفرّق، أغنت بغير تقوقع، والغالبية القصوى من موظفيها عرب من مختلف المناطق السورية: مدراء وشرطة ورجال امن ومخبرين وعسس ومستوطنين من البادية لقهرها. ولم تقهر عامودا، ويوم حملت دبابات آل الاسد/ مخلوف ورصاص قناصة الحرس الجمهوري، الى درعا وارياف حوران القتل والبطش، كانت عامودا من أول المدن التي صرخت «بالدم بالروح نفديك يا درعا» ومنذ ذلك اليوم وهي على الموعد كل جمعة وطنية من جُمَع الثورة السورية، تكون في مقدمة ليس المدن الجزراوية الكردية وحسب، بل المدن السورية قاطبة.

عامودا الآزادية تهتف الحرية بالعربي، مثلما صارت المدن العربية تهتف الحرية بالآزادي الكردية، عامودا المستقلة العصية على ترجرج المواقف الحزبية الكردية أسوة بباقي الاحزاب المعارضة العربية، تخرج بآزادية مستقلة مدعّمة بالقواعد الحزبية التي تختار الوطنية العامودية على الانقسامية الحزبية الثقيلة الحركة ضعيفة المبادرة رمادية المواقف.

عامودا التي تسند ظهرها الى حقول الالغام التركية في كردستان تسندها من الشرق قامشلي التي لم تخلف الوعد بالثورة يوما مثلما تسندها من الغرب درباسية وراس العين وعينها على الحسكة ان تنهض ولحوران ان يتحرر ولحمص ان تنهض ويا حلب! يا حلب! يا حيف، عامودا يا درّة الجزيرة ومفخرة الكرد جميعاً وصدى الثورة السوري حتى النصر، تسطرين اليوم بعزة شبابك ومجد تاريخك مواطنية سورية حقة صحيحة صادقة لا ظلم فيها ولا طغيان ولا سيطرة ولا اقصاء ولا استفراد ولا تخلف بل شراكة وطنية ديموقراطية حقّة مشرّفة تقيم العدل وتؤسس لوطن طال انتظار الاجيال له.

ميثاق الذكريات في السليمانية وجامعاتها

د. عدنان الظاهر

صمتت جامعة الفاتح الليبية على قبولها ترشيحي وزميليّ الآخرين للتدريس فيها. لذا لم أستطع الحصول على تأشيرة دخول أراضيها. في عين الوقت، كان في حوزتي عقدٌ للتدريس في جامعة الجزائر وتذكرة للسفر طيراناً من بغداد إلى مدينة الجزائر العاصمة ولكن، كان راتب الأستاذ الجامعي في الجزائر هو الآخر متواضعاً. في ربيع عام ١٩٧٣ عرض عليّ الصديق والزميل الدكتور عبد الرضا الصالحي أن نرحل شمالاً ولكنْ داخل الوطن للتدريس في جامعة السليمانية لفترة عامين فقط تنسيباً لا نقلاً دائماً. رأيت في هذا المقترح الحل الأمثل للإبتعاد عن مشاكل ومضايقات الطلبة البعثيين وأجهزة أمن ومخابرات حزب البعث داخل وخارج جامعة بغداد، ثم التمتع بمزايا لا توفرها لي خدمتي في جامعة بغداد. كانت جامعة السليمانية تمنح الأساتذة الجُدُد والقادمين إليها من جامعات عراقية أخرى من باب التشجيع درجةً أعلى في سلّم الرواتب، فضلاً عن مخصصات سكن مجزية (٣٥ ديناراً شهرياً). بهذا سيقفز راتبي الشهري الأصلي إلى مائة دينارٍ مضافاً إليه مخصصات غلاء المعيشة ثم مخصصات السَكن. الحاصل النهائي مبلغ محترم بمقاييس ذاك الزمان. أمام هذه المغريات إقتنع صديقنا الدكتور محسن البيرماني بالفكرة فوافق على الإلتحاق بنا فقدمنا ثلاثتنا إلى رئاسة جامعة بغداد طلبات التنسيب لعامين دراسيين للتدريس في جامعة السليمانية. وافقت جامعة بغداد ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي ((أمر وزاري برقم ١٨٧٨٧ بتأريخ ٢١-٨-١٩٧٣)) على طلب التنسيب فتأهبنا جميعاً للإنتقال شمالاً كيما نجرب حظاً آخرَ مختلفاً بعض الشيء عما كنا

فيــه في بغداد وجامعة بغداد. زرنا مدينة السليمانية وإستأجرنا دوراً لنا فكان داري مقابل المدخل الخلفي لجامعة السليمانية. أضحكنــي صاحب داري الســيد (حه مه أمــين). عرضــت عليــه ثلاثــين ديناراً إيجــاراً للبيت فاعترض قائــلاً : كاكا إنت ياخذ خمســةً وثلاثين ديناراً بدلَ ســكن، ليــش ينطيني ثلاثــين ؟). إذن فالرجل يعرف حكاية مخصصات السكن ومقدارها المضبوط.

غــادرتُ وعائلتــي بغــدادَ صبــاح اليوم الحــادي والثلاثــين مــن شــهر آب ١٩٧٣ متجهين نحو مدينة الســليمانية : سيارة صغيرة إســتأجرناها لنا، وشــاحنة كبيرة تتبعنا تحمل متاعنا البيتي. وصلنا مدينة الســليمانية عصراً فرتبنا أمورنا في بيتنا الجديــد وكان بيتاً كبــيراً حديث البناء لا تفصله عن مباني الجامعة إلاّ بضعة أمتار. ســجلّت صباح الأول من أيلول مباشرتي في قســم الكيمياء الذي كان يرأســه الدكتور الصيدلي إحسان الراوي. وكان عميد كلية العلوم إبن السليمانية الدكتور علي توفيق ورئيــس الجامعة الدكتــور حكمت توفيق فكرت. كما ســارعت إلى تســجيل أطفالي (أمثــل وأخته قرطبة) في مدرســة أهلية للأطفال تديرها الراهبة الست (فرانسوا) التي سـَرعان ما إكتشفتها زوجتي بأنهاكانت في الماضي تدير مدرســة مماثلة في مدينة البصرة. إنســجمت طفلتنا مع مدرســتها الجديــدة على الفور.لم تبلغ ســن الفطام بعدُ، فكانت ترضع سائل حليب (النيدو) المجفف بالزجاجة فيصرٌ أخوها الذي أتمَّ عامــه الثالث أن يحــذو حذوها ويأخذ ما تأخذ مــن ســوائل وأغذية.كأخيها، كانت تردد ما تسمع وترى على شاشة التلفزيون مــن أغانٍ. ففي مدرســتها الجديدة كانت تغني أغنية (ما أندل دلوني يا بابا ما أندل دلونــي) وأغنية أخــرى للأطفال (تحيا بلادي... بابا حياتي روحي وقلبي، لكنها كانت تؤديها بشكل آخر : بابا حياتي لوعي وببّي). وكانت تسمّي عمها جليل (عمو دليل) وتســمّي العنب (عِمَنْ) والجبل (جَمَنْ) والبقلاوة (واوهْ) ونافورة المياه العاليــة والأضواء الملونة القريبة من بيتنا في بغــداد (ماموثة).كانت قد أتمت عاماً واحداً وثمانية أشهر.كَبُر أطفالنا وأصبحوا يتكلمون ويغنّون ويحبون رياض الأطفال. صارا لأبويهمــا المتعة والســعادة والنعيم. الصوت والحركة. الأمل والمستقبل. رأينا في السليمانية عالماً جديداً لنا. الطقس والناس والجبال الشاهقة المحيطة بالمدينة. أخذت من الجامعة ســلفة عالية لشــراء السجّاد الإيراني الفاخر، فلقد درجت الجامعة على تســليف أســاتذتها مبالغَ محترمة لتأثيث بيوتهم وإعدادها لمقاومة برد وثلوج شتاء كردســتان. تم توزيع المقررات الدراســية فكان نصيبي تدريس مــادة الكيمياء غير العضويــة لطلبة الســنة الثالثــة / كلية

العلوم، ومادة الكيمياء الفيزيائية لطلبة السنة الثالثة / قسم الفيزياء من نفس الكلية. كان رئيس قسم الفيزياء إبن العائلة الحلاوية وزميل الدراسة في جامعة موسكو الدكتور (ماجد صادق علوش). وجدت في مكتبة الجامعة الكتب التي أحتاج كمصادر للتدريس. كانت كتباً جيدة وباللغة الإنجليزية. في نفس الوقت باشرت زوجتي دوامها مدرّسةً للفن (الإقتصاد المنزلي) في مدرسة للفنون البيتية مديرتها السيدة الرائعة الخلق (حسيبة شالي)، شقيقة أحد طلابي (بختيار)، والأستاذ في كلية الزراعة الدكتور (خسرو شالي). تعرفنا على المدينة والبعض من ضواحيها القريبة ولاسيما منطقة (سرجنار) السياحية حيث معمل الإسمنت والمقهى الحديث وبركة الأسماك.كان منظر جبل (كويزه) ، ساحراً مهيباً رغم كونه أجردَ خالياً من الخضرة والشجر. قيل لي إنَّ في قمته العالية مقهى تطل من الأعالي على مدينة السليمانية، لكني لم أرها للأسف الشديد. كنت في غاية السعادة في عملي الجديد بعيداً عن تسلط البعث. كنت سعيداً وأنا في وسط الشعب الكردي الكريم الأبي المضياف والطلبة الكرد الشجعان. كانوا في غاية الأدب وكنت أتعلم منهم بعض الكلمات الكردية مثل سرجاو، سوباس، خوا حافيز، روز باش...، كنا في كردستان لكن غالبية طلبة الجامعة كانوا عرباً. لذلك كنتُ أقدم محاضراتي بشكل أساس بالعربية ثم بالإنجليزية. إحتج يوماً أحد طلبتي من أهالي السليمانية طالباً مني الكلام بالإنجليزية فقط. قلت له لكنَّ غالبية الحاضرين من الطلبة العرب. ولو كنت أعرف اللغة الكردية لتكلّمتها مع الإنجليزية. أحببتُ الطلبة الكرد حباً لا مثيلَ له. مجتهدون مؤدبون وصبورون.

من طرائف أو غرائب ما صادفت هناك خلال تدريسي في الجامعة أني إكتشفتُ في أحد الأيام طالباً جالساً في الصفوف الوسطية مغمض العينين لا من كتاب أو دفتر أمامه. حسبته نائماً وطالباً مهملاً فطلبتُ منه مغادرة القاعة لأنها ليست المكان المناسب للنوم. غادر الطالب المسكين قاعة الدرس ممتثلاً للأمر. يا للمصيبة ! أخبرني الطلبة بعد المحاضرة أنَّ هذا الشاب طالب متفوق على جميع أقرانه، وإنه لا ينام خلال ساعة الدرس إنما عادته أن يغمض عينيه ويلتقط كل حرف يسمعه من الأستاذ، لذا لا يحتاج إلى دفتر وقلم لتدوين المحاضرة. بعد الإمتحان الأول فوجئت بصحة ودقة ما قال لي زملاء هذا الطالب الكردي.

إعتذرت له وقرّبته مني وأطلتُ في مديحه. تلكم ظاهرة لم أرَ لها مثيلاً في حياتي.

كانت السليمانية غنية بالفواكه والأسماك الممتازة التي تأتي من بحيرة سد دوكان.

أتذكــر أعناب وبطيخ الجبال يصل المدينة بــارداً شــديد الــبرودة. كنا قد زرنا ســد دوكان ومجــاري الزابين الأعلى والأســفل، كمــا تعرفنا على مدينتي كركوك وأربيل. هــل تتركني الحياة والأقدار ســعيداً هانئاً لفــترة طويلة ؟ كلاّ ثــم كلاّ. ففي بدايات شــهر أيلول وقع الإنقلاب الدموي الفاشي في شــيلي وقُتل الرئيس المنتخب الدكتور (ســلفادور الليـنــدي). وفي فجــر اليــوم السادس من شــهر أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ عــبر الجيش المصري قناة الســويس وحقق إنتصاراً مفاجئاً مذهلاً على الجيش الإسرائيلي في بعض مناطق صحراء سيناء. لكن سرعان ما تحول هذا النصر المفاجيء إلى كارثة بعد أن نجح الجيش الإســرائيلي بالعبــور المضــاد في منطقة (الدفرســوار) وتطويــق جيش مصــري أو فرقة منه تطويقــاً محكمــاً ومنع الماء عنــه. قبيل العيــد دعوتُ شــقيقتي وزوجها لزيارتنا وتمضيتــه معنــا. كذلك كان قــرار أخي جليل. في اليوم السادس والعشرين من شهر تشــرين الأول ١٩٧٣ تحركت شــقيقتي من الحلة تجاه السليمانية، وتحرك أخي جليل مــن بغــداد في نفس الإتجــاه. وصل أخي بسيارته تصحبه عائلته عصر ذلكم اليوم المشــؤوم. بـُعيد وصولــه بقليل طرق باب بيتي أحد الأســاتذة وأخبرني أن سيارة قد إنقلبت في مدخل مدينة السليمانية وكانت شقيقتي وقرينها من بين راكبيها. هُرِعت إلى مستشــفى المدينة برفقة هذا الأســتاذ فوجدت صهرنا مصاباً بكســور. طلب مني السؤال عن مصير شقيقتي. سألت الطبيب فكانت الصاعقة. قــال : البقاء في حياتك، إنها مسجاة في المشرحة. ذهبت إلى المشرحة وليت أمي لم تنجبني. رأيت شقيقتي وتاج عائلتنــا قتيلــةً مغطــاة بعبائتها. لطمت وجهي وتهاويــت على الأرض غير مصدّق ما أرى. جاءت لتقضي أيام العيد مع أخيها وأطفــال أخيها في مدينة لم ترها من قبلُ فضيعت حياتها في مدخل هذه المدينة ليس بعيداً عن بيت أخيها. أعطاني أحد موظفي الجامعة حقيبتهــا اليدوية وما وجدوا في جيدها ومعصمها وأصابعها من ذهب وحلي وجواهر. جمعوها مشــكورين خوفاً عليها من الضياع أو الســرقة. فاجعة مروّعة ما زلــت أرفض تصديقهــا. أي عيد يواجهني إذن ؟ عيــدٌ بأيــة حالٍ عـُـدتَ يا عيدُ. إنقلــب العيد إلى مأتم وتعازٍ وفواتح. كانت الصبيّة (عايدة)، إبِنة أخِي فيصل، معها شاركتها الحادث والمصيبة فأُصيبت بكسور متعددة بالغة في يديها وســاقيها. كانت قد قضّــت معنا الليلة الأخــيرة في بغداد قبل مغادرتنا. وفي ســاعة المغــادرة إحتضنتني كما كانــت تفعــل والدتي معــي، من ثم أجهشت في بكاء حاد. ســألتها أن تكف عن البــكاء إذ ليس له من داعٍ البتّة. فاجأتني بقولها : ســوف لن أراك ثانيةً !! ضحكتُ، قلت لها ســنكون في مدينــة عراقية وعلى

أرض عراقية ليست قصيّة عن بغداد، وسنتزاور حتماً، ماذا كنتِ ستقولين لو نفّذتُ عقدي مع جامعة الجزائر وغادرت العراق جملةً وتفصيلاً ؟؟ من أين أتتها نبوءة أنْ سوف لن تراني ثانيةً ؟؟ كيف ولماذا خطرت في بالها هذه الفكرة في ساعة الوداع ولحظةَ أنْ تأهبتُ لركوب السيارة ؟؟ كانت على حق، لم تَرَني بعد أن قامت بتوديعنا صبيحة الحادي والثلاثين من شهر آب ١٩٧٣ أمام البيت في شارع المغرب في بغداد، لكني رأيتها... أجل، رأيتها قتيلة وسط بركة من دم ترقد بإباء وجلال كإلهٍ من رخام أبيض في مستشفى مدينة السليمانية. كانت كالنائمة راضيةً مرضيةً فلقد نفّذت دعوتي وجاءت لزيارتنا وكادت أن تلتقينا ولكن حالت دون هذا اللقاء مسافة كيلومتر واحد لا أكثر. حلَّ أجلها في مدخل المدينة. رفضت مدينة السليمانية أنْ تستقبلَ شقيقتي حيّةً فإستقبلتها جثةً هامدة. إصطدمت السيارة التي كانت فيها مع سيارة عسكرية مقبلة من الإتجاه المعاكس فقُتِلَ بعض راكبيها وجُرح الباقون. أعددنا التابوت وأخبرنا الأهل في بغداد والحلة وتأهبنا لنقل جثمان شقيقتي لنواريها التراب في مقبرة العائلة في النجف. لم ينمْ أحدٌ في تلكم الليلة.

أبو طُبَرْ

أوائل خريف هذا العام ١٩٧٣ ظهر على مسرح الأحداث في بغداد شبحُ جزّار قاتل يفتك بالناس نياماً. لقد رُوِّعتْ بغداد بظاهرة (أبو طبر) الذي كان يقتل الناس بتهشيم رؤوسهم بآلة حادة تُسمّى في العراق (طُبَرْ) كذاك الذي يستخدمه القصّابون في تكسير عظام جزورهم. هل من علاقة تربط ناظم كزار بأبي طبر ؟؟ الجواب نعم ولكنْ في حالة واحدة. إذا كان (أبو طبر) عميلاً أو متعاوناً أو أحد عناصر الأمن. إنه مولود في قرية (أبو الجاسم) التابعة إلى قضاء المسيب جنوب بغداد. ثم إنه كان مفوض شرطةٍ في مدينة الحلة حتى عام ١٩٥٣ حيث فُصِل من وظيفته لأسباب تتعلق بالأمانة والنزاهة ونظافة اليد. كان يحمل نجمة واحدة في رقبته فقط. أجهزة الأمن البعثي ومخابراته تلتقط العناصر المشرّدة والمفصولة والعاطلة عن العمل ولا سيما أولئك الذين تتوفر فيهم شروط خاصة. فأبو طبر (وإسمه الحقيقي دحّام كاظم الهضم / ثم أبدل إسمه الأول فأصبح حاتم) من المحسوبين على الشرطة أولاً ثم إنه كان رياضياً طويل القامة مفتول العضل. ميزتان كبيرتان كان ناظم كزار وأجهزته الضاربة بأمس الحاجة إليهما. ثم إنه كان بحكم المشرّد والضائع في الحياة. بعد فصله من وظيفته لم يغادر مدينة الحلة إذ وفّر له صديقه الرياضي حساني كاظم الموسوي السكن والإقامة في داره مع الطعام والشراب. لم يدع وقته يمر سُدىً، فسجّل في ثانوية

الحلــة للبنـــين طالبــاً خارجيــاً ونجح في إمتحانات بكالوريا عام ١٩٥٤. صغـّر بطرقه الخاصة عمره ودخل كلية الطيران وإبتسمت الحياة له لكنه من طينة بعض البشر الذين لا يرتاحون للنعيم ولا ينسجمون مع الطبع السـوي. في ســنته الثانية في كلية الطيران خالف الآوامر فقــاد طائرة التدريب خارج حدود مدينة بغداد حتى وصل بها قريته (أبو الجاسم) وشرع بالدوران والهبوط إلى مســتويات منخفضة فإصطدمــت الطائرة برؤوس النخيل وإستقرت هناك ولم يـُصب بإذى. معجزة. فُصِل من الكلية (عام ١٩٥٦) فضاعت أخباره عني. كنت أعرفه منذ عام ١٩٥١ وكان يأتي بمعية أخي قحطان إلى بيتنا في الحلة حين كان مفوضَ شرطة. كان أخي كذلك رياضيــاً وكان وقتها ما زال طالباً في الكلية العســكرية. بعد إلقــاء القبض عليه عام ١٩٧٤ تم عرض لقاء مســجّل معه على شاشـــة التلفزيون العراقي. حين سـُئل عن إسمه ووظيفته أو عمله ذكر إسمه المصحح (حاتــم كاظم) ثم قال إنـــه كان مفوض شرطة ولم يقل مفصولاً. ثم أفاد كَذِباً إنه كان ضابطاً طياراً في سلاح الجو العراقي ولم يقلْ طالباً مفصولاً من كلية الطيران.

كيف دخــل دحـّام كاظم الهضم مدرســة المفوضــين ؟ تلكم قصة طريفة ســمعتها منه. أكمل دراســته المتوسطة في متوسطة المســيب عام ١٩٥٠ فقرر المجازفة بالتقديم لمدرسة المفوضين. حدثت المعجزة في ساعة المقابلــة. نــوديَ على إســمه فدخل على لجنة المقابلة بقميص عتيق مفتوح الصدر يحتذي نعلاً. ســألته لجنــة المقابلة بعض الأسئلة التقليدية ثم ســأله أحد أعضائها سؤالاً حيـّر هذا الطالب البائس : سأله من هو واســطتك (كعادة ذلــك الزمان، لا بد من الوســاطة والتوســيط لدخول مدرسة وكلية الشــرطة فقــد كانت حِكــراً على طلبة راوة وعنه وســامراء والموصل). لم يـُكلّف وسيطاً وما كان يعرف وسيطاً أصلاً. فكّر بالأمر مليّاً ثم قــال رافعاً ذراعه إلى الأعلى : واســطتي الله وأنتم. غرق أعضاء اللجنـــة بضحك هســتيري طويــل. أعادوا عليه الســؤال فأعاد نفس الجواب. واصلوا الضحك ففقدَ صاحبـُنــا الأمل. متى كان اللهُ واســطةً للفقراء والمعدمين ؟! ما كانوا يصدقون ما يرون : شــابٌ شــاهق القامة قوي العضل، قــروي فقير بائس من قرية أبي الجاسم الشيعية يأتي المقابلةَ بقميص مهترىء ونعلــين أجربين يــروم الدخول بدون ظهير أو نصير أو وســاطة في مدرسة مخصصة أصلاً لفئات معينة من الشــعب العراقي. جــاءت المفاجأة الكبرى إذ ســمع مــن جهــاز الراديو نبأ قبوله في مدرســة المفوضــين. هكــذا أصبح (دحــّام كاظم الهضــم / أبو طبر لاحقاً) الفقير والطالب اليساري مفوضاً في سلك الشرطة العراقية. من مفارقات وغرابة طبيعة وســلوك هذا الرجل إنـــه كان أثناء خدمته في شــرطة

الحلة يقضي ساعات خفاراته الليلية يأكل ويسكر مجاناً في دار سرية مخصصة للقمار. حاميها حراميها. دخل مدرسةً لمفوضي الشرطة لم يدخلها قبله شخص مثله أبداً. أساء إلى وظيفته في خدمته كمفوض شرطة ففُصِل. خالف تعليمات سلاح الجو العراقي فطُرد ليجدَ نفسه مشرداً ضائعاً. قُبيل إلقاء القبض عليه، رأيته أوائل عام ١٩٧٤ في شارع السعدون في قلب بغداد. وبعد السلام والتحيات وتبادل الأشواق سألته عن وضعه ومـاذا يعمل وأين. جاءني جوابه حرفياً : على حطّة إيدك... أتاجر بالسيارات بين ألمانيا والكويت. سـألني عـن أخي قحطان (صديقه القديم) وأين يسكن ؟ أعطيته بعـض المعلومات العامة غـير الدقيقة من قبيل إنه ما زال ضابطاً في الجيش ويسكن وعائلتـه في منطقة الكرادة الشـرقية من بغـداد. رأيته صباح اليوم التالي وفي المكان نفسـه فلم أشـأ أن ألتقيه فضيّعت نفسي وتواريـت عنه ظناً مني إنه - وهو العاطل عن العمل - قد يطلب مني مساعدة نقدية ما كنت قادراً ولا مسـتعداً لتقديمها. بعد ذلك بفـترة قصيرة تـم إكتشـافه وإلقاء القبض عليه. يا لغرائـب المصادفات !! أنا ألتقـي (أبا طبر) في قلـب بغداد دون أن يخطر في بال بشـر إنه هو هذا الإنسان أبو طبر بعينه. عندذاك أدركت سـر إهتمامه بمعرفة عنوان سـكن أخي قحطان. لربما وضعه في قائمة ضحاياه. أما أنا فقد كنتُ يومها بعيداً عنه وعـن بغداد، جئتها من السـليمانية لأقضّي عطلة نصف السـنة. في المقابلة التلفزيونيـة التي أُجريت معه قال إنه بسـبب ما عانى في الحياة من فشل ومصائب مسـتعدٌ لشرب دماء البشر. قال ذلك بالحرف الواحد. بعد محاكمته أُعدِم مع زوجه وشقيقيه.

الحرب في كردستان / أوائل ١٩٧٤

برزت ظاهرة (أبو طبر) بعد هبّة ناظم كزار الفاشـلة، وسبقت مباشـرةً الأحداث الجسـام التي عصفت بكردسـتان العراق حيث فرض نظام حكم البعث الحرب على الكرد وكنتُ شاهد أحداثها دقيقةً بدقيقة. بدأت الغيوم السود ونُذُر الحرب تتجمع في سماء كردستان بعد نهاية العطلة الربيعية ومباشرتنا الدوام المعتاد. إزداد الوضع توتراً بعد أن منع محافظ السـليمانية القطعات العسـكرية المتمركـزة في وحـول مدينة السـليمانية من إجراء تدريبات ومناورات عسـكرية بإعتبارهـا تتنافى مـع صفاء الضمائر وحسـن النوايا وتمثل إسـتفزازاً وتهديـداً لا مبررَ ولا مـن ضرورة لهما في زمن السـلم. في نفـس الوقت زار آمر أحد أفواج الجيش العراقـي معاونَ عميد كلية العلوم في مكتبه في الجامعة زيارة شخصية، فقد كانا أصدقـاء أو معارفَ قدامى ومن مدينة واحـدة. دخل أحـد ممثلي إتحاد

طلبة كردستان مكتب معاون العميد وطلب من الضابط مغــادرة الجامعة على الفور. إمتثــل الضابط للأمر وغادر الجامعة على عجل. لســبب ما جرت مشادة كلامية بين طالب بعثي وعميد كلية الزراعة الدكتور كمال خوشــناو.لم يتمالك الدكتور نفسه فصفــع الطالبَ وطلب تفتيشــه خشــيةَ أن يكــون حاملاً مسدســاً. بعد بضعة أيام طلبت مديريــة الأمن والأجهــزة البعثية المتفرعة منهــا أو المندمجــة فيها، طلبت مــن الغالبية العظمى من الأســاتذة العرب ترك الجامعة والمدينة على عجل والتوجه صوب بغداد أو ســواها مــن المدن العراقية الأخرى البعيدة عن كردستان. لم يخبرني أحدٌ بأمر النزوح والمغادرة. ثم إني كنتُ من جانبي ملتزمــاً بالبقاء في المدينة، لذا لم أغادر أسوةً بمن غادر. كانت لي ظروفي الخاصة. عمّت الفوضى وتوقفت الدراسة في الجامعــة. مع نزوح العرب جنوباً بعيداً عن مدينــة الســليمانية حدثــت موجة نزوح كبرى معاكســة قام بها الرجال الكرد متجهين شمالاً وشــرقاً للتحصن في الجبال الشــاهقة والمنيعــة. فلقد راجت شــائعات مفادها أنَّ حكومة البعث والجيش العراقي بصدد القضاء علــى الرجال الكرد قاطبةً. بقي في مدينة الســليمانية الشيوخ والنساء والأطفــال في وضع بائس وأقفرت شــوارع ومقاهي المدينــة التي كانت تعج بالحركة وشــتى أصناف النشاط التجاري والعمراني والتعليمي والسياحي. أصبحت بين عشية وضحاها مدينة أشــباح خالية هادئة نهاراً لكنها تتحول ليلاً إلى جحيم لا يطاق. إطلاق نــار كثيف متواصل يأتي من الجبال وترد عليه مدافع ودبابات الجيش العراقي. أزيز قذائــف المدفعية وأصوات إنفجارات قريبة مــن منزلي تهز جدران البيوت هزّاً. صار النوم ليلاً شــبه مســتحيل. تركنــا بيتنا وأثاثنا وإنتقلنا للســكن في فندق السلام في قلب المدينة. لا أدري من كلّف مدرس كلية الزراعــة البصري الأصــل وخريّج بعض الجامعــات البلغارية الدكتــور محمد عبد الله النجــم أن يقوم بمهــام رئيس جامعة الســليمانية التي تركها رئيســها الدكتور حكمت توفيق فكرت وعمداء كلياتها العرب ورؤساء الأقسام. عرض عليَ الدكتور محمد عبد الله النجم أن أكون عميداً لكلية العلوم بالوكالة فوافقت بعد إستشــارة من يهمهم أمري ومتطلبات بقائي. أصدر أمراً جامعياً فباشرت مهمات العمادة ((رقم الأمر ٣٢٩٣ وتأريخه التاسع من شــهر نيسان ١٩٧٤)). عمادة بدون طلبة وأساتذة أو دوام. تمشية الكتب الصادرة والــواردة فقط. في واحدة مــن مكالماتي التلفونية مــع أخي قحطان الذي كان وقتذاك ضابطاً في وزارة الدفاع، إقــترح عليَّ مراجعة صديقــه وزميله في الجيــش قائد حامية الســليمانية فيما لو تطلب الأمر مســاعدته أو حماية وحداته العســكرية. زرت الرجل في مقره الواقع في

وسط مدينة السليمانية وعرّفته بنفسي ثـم طلبت منه إرسـال وحدة عسـكرية صغيرة لحماية بنايات جامعة السـليمانية وخاصة مختبرات ومخازن قسـم الكيمياء. في هـذه المخـازن كمـا هو معـروف مواد كيميائية قابلة للإشـتعال السريع وأخرى متفجّرة وغيرها سـامّة. وكانت القذائف تتسـاقط قريباً مـن هذه المخـازن ليلاً. قال الضابـط إنَّ المدينـة تحاصرها قوات (البيشـمه ركـه)، وإنَّ قيـادة الفرقة في كركوك لا تستطيع إرسـال تعزيزات لفك الحصار المضروب علـى المدينة لأنَّ طريق كركوك ـ السـليمانية واقع في قبضة قوات المقاتلـين الكرد ولا سـيما قسـم الطريق الصاعد عالياً قريباً من مدخل السليمانية والمحصّن بجبال صخرية شديدة الوعورة. وعد آمر الموقع أن يـدرس الموضوع جيداً قبـل إتخاذ القـرار المناسـب. بعد يومين فقـط زارني في مكتب عمـادة كلية العلوم ضابط شـاب برتبة مـلازم أول فأدى لي التحية العسـكرية ـ أنا الرجل المدني الذي لم يخدم الجيش يوماً في حياته ـ ثم قال : حضرتُ ومعي فصيلٌ من الجنود سأوزعه على أكثر النقاط حساسـيةً. عرض عليَّ أن أرافقـه للقيـام بالمهمة. إتخـذ الجُندُ مواقعهم في مداخل الجامعة وعلى سـقوف بعض بناياتها العالية. بهذا الإجراء سلمت الجامعـة مـن أعمـال النهـب والتخريب المتوقعـة في تلكم الظـروف. بعد أن أنهى الضابـط مهمته أخـذ مفاتيـح الجامعة وأبواب الكليات من الحارس الكردي المسؤول الذي كان وظلَّ أميناً على سـلامة بنايات وممتلـكات الجامعـة. لـم يـترك غالبية عمّال وفرّاشي الجامعة من الأخوة الكرد وظائفهم ومهماتهـم أبداً. كانوا حريصين على الدوام مواظبين عليه كدأبهم اليومي قبل نشـوب الحـرب. لا وجود للأسـاتذة الكرد في الجامعة عـدا بعض المعيدات من بنات السليمانية. أما الأساتذة العرب فكانوا يأتون رأس كل شـهر جماعـاتٍ جماعات لإسـتلام رواتبهـم ومغـادرة المدينة فوراً وبأسرع ما يستطيعون.كانوا خائفين على حياتهم حتى أنَّ أحدهم طلب مني تسـلم راتبه الشـهري وكالةً وإعفـاءه من المجيء الشهري لتسلمه. إنكمشـت عناصر البعث وأجهزته الأمنيـة والمخابراتية تحت هذه الظروف فأحجمت عن الحركة ليلاً ونهاراً ولم تجرؤ على إرتياد أسـواق المدينة شبه المعطّلة إلاّ في النـادر من الأحوال.كان أبرز هذه العناصـر وأكثرها خبثاً ونذالةً معيد في كلية الزراعـة يُدعى (عوده فنيخر) ومعلّم في معهد الإدارة والإقتصاد إسـمه (سـامي عدّاي / بِصراوي الأصل). كذلك كانت الحركة ليـلاً محظورةً على وحدات الجيـش العراقي. حدث في إحـدى الليالي أن حاصـرت بعـض عناصـر (البيشـمه ركـه) بيت مفوض شـرطة كردي الأصل من المتعاونين مع سـلطة البعـث. خابرَ

مركز الشـرطة طالباً المساعدة فلم يجرؤ أحدٌ على مغادرة المركز لفك الحصار عنه وإنقاذه من الموت. تسـلّق المقاتلون جدران البيت ثم قتلوه أمام عائلته دون أن يبدي أيـة مقاومة. يبدو أنه لم يكن مسـموحاً لـه أن يحمـل سـلاحاً دفاعاً عن نفسـه. كان الوضـع في المدينة صعبـاً لكنه ما كان شـديد الخطورة عدا بعض الإسـتثناءات. إغتال رجـل من المقاتلين الكرد شـيوعياً بـارزاً تركمانيّ الأصل من كركوك إسـمه (فِكـرتْ جاويـد) حين كان ماشـياً مع قرينته نهاراً في أحد شـوارع السـليمانية. كان الحزب الشـيوعي حليفاً لحزب البعث الحاكـم في الجبهـة الوطنيـة والقوميـة التقدمية... كما كانت تُسمّى يومذاك. شـاهدت مرةً وأنا على سطح فندق السلام العالـي حـادث إصابـة طائـرة مروحية وإشـتعال النيران فيها فوق مرتفعات جبل (كويزه) الشـاهقة أثناء مطاردتها لبعض المقاتلين المحصنين في شـعاب تلك السلاسل الجبليـة المنيعـة. ومن على سـطح هذا الفندق كنـتُ أتابع يوميـاً قبيل غروب الشـمس قذائف مدفعيـة المقاتلين الكرد تتسـاقط من قمـم الجبال على معسـكر الجيش الواقع في ضواحي مدينة السليمانية فتشـتعل النيران في الخيام وبعض سيارات النقل العسكرية الكبيرة وحاملات الجنود. حـين تأتـي طائـرات (الميغ) الروسـية مـن قاعدتهـا في كركوك لإسـكات المدافع ومعالجة الموقـف يكون قد حـلَّ الظلامُ وأُخفيـت المدافع. تدور فـوق قمم الجبال الشـاهقة والمنيعة لبعـض الوقت فلا ترى أهدافاً تسـتحق القصف فتعود بالخيبة إلى كركوك دون أن تنفّذ مهماتٍ قتالية. كان هذا المشـهد يتكرر يومياً فتنتعش الآمال وترتفع معنويـات الأخوة الكـرد فيزداد البعث شراسـةً ولؤماً وعدوانية لا في سوح المعارك وقتـال المواجهة ولكن مع المدنيين العُزّل.

غـدر البعثيين وسـفالة عناصـر أمنهم ومخابراتهم

دهست عن عمد وسابق إصرار سيارةُ جيب عسكرية رجلاً من السـليمانية كان يبيع الرقـي محمـولاً في عربة يدفعهـا بيديه، يدور ببضاعته علـى البيوت فقتلته على الفور. كنتُ شاهدَ عيانٍ على فظاعة هذا الحادث. أتته السـيارة مـن خلفه بأقصى سـرعة فإقتلعته مـن الأرض قلعـاً. طار جسـده أمام عيني في الفضـاء على إرتفاع مترين ثم هوى علـى الأرض جثةً هامدة. من يعـترض ومن يتجاسـر أن يفتح فمه بالشكوى ولمن ؟؟ لماذا يقتل البعثيون رجلاً مسـالماً فقيراً لم يدخل ضدهم حرباً ولم يحمـل السـلاح ؟؟ أي خطـر يحمل بائع رقّي لنظام فاشـي مدجج بالسلاح حصّن نفسه بالإرتباط مع بعض القوى السياسية

العراقية الأخرى ليخونَ فينقضَ إتفاقيةً أبرمها مع قيادة الشعب الكردي في شهر آذارَ ١٩٧٠ ؟؟ كان البعث حزباً وحكومةً ونظاماً مهزوزاً ومذعوراً وغيَر واثق من نتائج حربه الظالمة على الشعب العراقي الكردي. إمتنع الإتحاد السوفياتي عن إمداده بما كان يطلب من أسلحة حديثة متطورة. علاقاته مع الحزبِ الحليف كانت مضطربة ولم تقم أصلاً على مباديء وأهداف واضحة وسليمة. ما كانت علاقةُ ندٍّ لند، كانت علاقة ذئب دموي شرس يعاني من جوع أبدي بأرنب مسالم وديع. كانت من جانب حزب البعث ونظام الحكم الإستبدادي مناورة (تاكتيكية) وإئتلاف مرحلي مصلحي لا دوام له ولا ثبات. إئتلاف جبهوي ضعيف البُنى مهلهل الأواصر سيتخلى البعث عنه دون خجل أو حياء حين يحقق النصر العسكري على الكرد. رغم ذلك وقف الشيوعيون في كردستان في صف واحد مع حزب البعث وساندوه وقدموا له خدمات كثيرة منوعة. كان الرأي السائد يومذاك أنَّ حركة وقيادة الملا مصطفى برزاني إنما هي حركة مشبوهة ومرتبطة بشاه إيران ودوائر حلف بغداد وإسرائيل. لذا فإنها ـ حسب ذلكم الزعم ـ حركة غير وطنية ولا يمكن إدراجها في قائمة حركات التحرر الوطني. أذكر حادثة أخرى تفضح سلوك وعقلية عناصر حزب البعث وإستعدادهم لخيانة الصديق والحليف. داهمت عناصر من الشرطة البعثية وبعض رجال أمنهم دار الناشط الشيوعي في مجال نقابة المعلمين والمربي السيد (أحمد). إعتقلته وقادته إلى مركز الشرطة بشكل مهين بدعوى التحقيق معه في حادث قتل لا ناقة له فيه ولا جمل. في حملة إنتخابات نقابة المعلمين للعام ١٩٧٤ نافست القائمة الكردية قائمة موحدة تضم عناصر بعثية وأخرى شيوعية. مثّل البعثيين سواء في المفاوضات مع قادة القائمة الكردية أو الإجتماعات التمهيدية المنوعة وعلى شتى الصُعُد المعيد في كلية الزراعة ومسؤول الأمن في الجامعة المدعو (عودة فنيخر).كان هذا يخشى مغادرة مقره في مركز الشرطة إلاّ تحت حماية رفاق الجبهة الوطنية. لفتَ إنتباهي شدة حرص المربي الفاضل السيد (أحمد) على سلامة (عودة فنيخر) إذ كان يحيط به أينما كنا وحيث سرنا من كافة الجهات خوفاً عليه من إحتمالات الإختطاف أو الإعتداء أو الإغتيال التي لم يحدث شيء منها على الأطلاق. كان له بمثابة الحزام الأمني. قام أحمد بكل ذلك بتضحية وإخلاص يدفعه الحرص على سلامة ودوام ومتانة بناء الجبهة الوطنية والوفاء لحليف غدّار لا يعرف أخلاق السياسة ولا يلتزم بعهد أو إتفاق. رد الحليف البعثي هذا الجميل وهذه التضحيات بإعتقال حليفهم أحمد وجرجرته من بيته إلى مركز الشرطة

بشكل لا يليق بإنسان مثقف يمارس مهنة التعليم في مدينته ومسقط رأسه. وفعلوا معي ما هو أسوأ من ذلك. أتاني يوماً شاب وقدم لي رسالة مكتوبة بخط يده. قرأتها فذُهِلت !! قرأت فيها غـزلاً وتخنثاً. قلت لهـذا الخنيث المدسـوس سـأفضحك أمام معارفك وأصدقائك. إنهـار فتهاوى. قبّل يـدي أن لا أفعل ذلك. قلت حسـناً، ولكن بشـرط أن تعترف لـي وتفضـح الذي أو الذين رسموا لك هذا المخطط الدنيء. قال على الفـور : إنه ((عـودة فنيخر))... شـرطي الأمن في جامعة السليمانية وأحد عناصر قائمـة الجبهة الوطنية لإنتخابات نقابة المعلمين. طلب هذا الشرطي منه أن يكتب الرسالة بنسختين، أخذ منه واحدة وطلب منه أن يحمل لي الثانية !! كان هذا شـرط أجهزة البعث للسـماح لهذا الشـاب في الإنتقال إلى بغداد حيث أهله ومسـقط رأسه. كان موظفاً صحياً ليس إلاّ. أحتفظُ بإسـمه الكامل ومنطقة إقامته في بغداد. كان صديقـاً أو مرشّـحاً لعضوية الحزب الشيوعي، عميلاً وجاسوساً مندسّاً بتوجيه وتخطيط أجهـزة أمن ومخابـرات حزب البعث (الحليف) !!! هكذا كان حزب البعث يفسّـر ويترجم العلاقات مع الحلفاء. دس وتشـويه وإفتراء وتسقيط وشراء ذمم، ثم إغتيالات ثم حروب وغزو وسموم وأسلحة كيميائيـة محرّمـة دولياً ولكـنْ، إنقلب أخيراً السحرُ على الساحر. مثالٌ آخر على دس وخسّـة نظام وأجهـزة حزب البعث وتآمـر أعضائه وتورطهم في أحط الأفعال. بعد مباشرتي العمل في جامعة السليمانية بفترة قصـيرة، إتصل بي مُعيد في قسـم البايولوجـي ورجانـي أن أتكفـل بعثته للدراسـة في رومانيا.لـم أعتذر.لم أقلْ له عليَّ أن أستشـير زوجتي فالتبعات السيئة لمثل هذه الأمور تطالنا نحن الإثنين وتؤثر علـى أطفالنا. لم أقل له إنني متورط مع شخصين آخرين في كفالة صديق يدرس في أمريكا مقدارها سـبعة آلاف دينار. لم أقل لـه إنَّ كفالاتٍ بمبالغ كبيرة من هذا النوع لشخص يترك العراق خمسة أعوام للدراسة لا يقـوم بها عادةً إلاّ الأهل والأعمام وباقي الأقارب. وإذا لم يكن لهـؤلاء موارد كافية فيمكنهم رهن بسـتانهم أو دارهم أو بعض عقاراتهم. ذهبنا إلى المحكمة لتصديق عقد كفالتـه البالغة خمسـة آلاف دينار. كنتُ الكافـل الوحيد.لم يصـدق الحاكم الأمر فقال المفروض أن يتكفل صاحبك شخصان ضامنـان في الأقل. قلت له أسـتاذ : إنَّ هذا الشاب سـوف يدرس في رومانيا. ولو كانت بعثته إلى أمريكا مثلاً لما كفلته. سـوف لن يبقى هذا الشـخص في رومانيا مهما كانت نتائج بعثته ودراسـته. سوف يعود معيداً في جامعة السـليمانية إنْ فشل ولم يحقق المطلوب منه. إبتسم الحاكم المؤدب الوقور والوسيم إبن السليمانية على مضض ووضع أمامنا سـجل العقود فوقّعت على خمسـة

آلاف دينار لأكفل وحدي شخصاً ما سبق وأن رأيته في حياتي ولا أعرف من أبوه ومن أخوته في محافظة ديالى. المهم، غادر السيد (شريف حكيم) الجامعة والعراق لدراسة الدكتوراه في بعض الجامعات الرومانية ثم وصلتني أخباره بعد فترة قصيرة : إنقلب إذ وضع قدميه على الأرض الرومانية بعثياً ناشطاً في صفوف الإتحاد الوطني البعثي هناك !!! كان محسوباً على الحزب الشيوعي حين أتاني متضرعاً لأتكفل بعثته فوافقت بكل ما أحمل من عفوية ومثاليات ودون أن أتحرى أمره جيداً. يا ما حصلت فواجع لبعض من تكفل الآخرين فتحملوا أسوأ العواقب المالية ودفعوا أثمان العقود التي وقّعوها، وفي رأسي أنا أمثلة عديدة أعرفها جيداً لبعض المتورطين من أصدقائي ومعارفي. كنتُ مأخوذاً بأجواء جامعة ومدينة السليمانية التي بهرتني، ثم كنتُ واقعاً تحت أحلام وآمال وسحر إسم الجبهة الوطنية السام والزائف مع حزب البعث. من هذين العاملين جاءت براءتي وعفويتي فقبلتُ التوقيع على أمر لا تُعرفُ عواقبه. وقّعتُ في المحكمة في مدينة السليمانية عقدَ كفالة بمبلغ خمسة آلاف دينار لشخص لا أعرفه سيمضّي خمسة أعوام خارج العراق، في حين رفض صديق قديم لي أن يوقع على ورقة ضماناً شكلياً في دائرة السفر والجنسية في بغداد لضمان عودتي من سفرة قصيرة لي خارج العراق وبمبلغ مائة دينار فقط. ماذا أُسمّي نفسي ؟ على أية حال، أكمل هذا الرجل دراسته في رومانيا وعاد للعمل ثانيةً في جامعة السليمانية حسب ما وصلني من معلومات. ما كنتُ وقتَ رجوعه إلى العراق هناك، لذا استحال أمر مراجعة المحكمة وطلب إسقاط الكفالة لأنَّ الكفيل قد أدى شروطها كاملة : نال الشهادة وآب إلى جامعته وبلده فغدت الكفالة باطلة على حد علمي... ولست خبيراً ولا محامياً. هل يذكر، تُرى، هذا الشخص جميلي وهل سيرده لي إذا ما ألجأتني الحاجةُ يوماً إليه في أمر مماثل مثلاً ؟! أشكُّ كثيراً في ذلك. كان عميلاً للبعث مُندّساً في الحزب الشيوعي.

لم يستطع البعث وحكومته من حسم الحرب في كردستان سريعاً كما رسموا وتوقعوا. وكانت وحدات الجيش العراقي في وضع بائس ومعنويات متدهورة جراء تزايد سقوط عدد القتلى من الجنود. كان التخبط والفوضى بين العسكر شديدي الوضوح. فمثلاً إصطدمت أمامي مدرّعة بشاحنة كبيرة تحمل جنوداً فسقط جنديان تحت عجلات الشاحنة فأصيبا بكسور بليغة وتحطم القفص الصدري لأحدهما تحطماً كاملاً، ولا أدري أماتا بعدئذٍ أم سُرّحا من الجيش عاجزين عن مواصلة الخدمة فيه. بشر يتحطم كما الزجاج والخزف أو يلفظ آخر أنفاسه أمام عيني. لقد ألفتُ هذه المشاهد المروِّعة حيث كنتُ أرى

من خلال شـباك غرفتنا في فندق السلام فجر كل يوم الدروع والمصفحات العسكرية تعـود من بعًـض جبهات القتـال محمّلةً بجثث الجنود القتلى. شيء لا يُصدّق ولا ترتضيه الطبيعة السـوية. خُلِق الإنسانُ ليعيـش أَجَله لا ليموتَ في عمر الشـباب من أجل قضية لا يؤمـن بها أصلاً. يموت ليبقى الحاكم المتعسف والظالم حاكماً فرداً مستبداً لأطول فترة ممكنة. يحقق أهدافه المشـبوهة على جسـور من أجساد وعظام وجماجم الآخرين.

أنشطة إجتماعية

مـا كانت حياتي مقصـورة على الدوام في الجامعة ثم الرجوع إلى فندق السلام. كان لـديّ الكثير مـن الوقـت لأزور الأصدقاء وأطمئن علـى أحوالهم. خاصـة وقد كنا أرسـلنا طفلينـا إلى بغـداد ليكونـا تحت رعاية أخي جليل وقرينته السيدة فوزية خليل العبيـدي. كان قراري وزوجتي إننا قـد نمـوت أو نُقتل في طاحونـة الحرب وأقدارهـا العميـاء فليبـقَ أطفالنا بعدنا أحيـاءً. ثم أقفلنا دارنا وأرسـلنا الأثاث إلى بغداد. حين أخبرت صاحب البيت وجارنا الشـهم والوفي (كاكه حمه أمين، أبو شكار) بقـرار تخلية الدار تأثـرّ كثيراً واقترح عليّ أن لا أفعلَ ذلك. قال لا خطرَ عليكم أبداً. قـال إننا نعرف أعداءنـا جيداً. قال إنني مسؤول عن حياتكم وسلامتكم وإنما أنتم أمانة هنا ((رفع كفه اليمنى ووضعها علـى رقبته)). كان موقفاً مؤثراً جداً لن أنسـاه. كنـتُ أترك زوجتـي معهم حين تضطرنـي ظروف وظيفتي أنْ أسـافر إلى بغداد لقضاء بعض الأمور الرسمية. كانت زوجه بمثابة الأخت لزوجتي ونعم الجارة والصديقـة وكانـت مثالاً للخلـق والكرم والشـهامة ثم جمال الصورة. كيف ننسى هذا الشـعب ؟ كان كاكـه حمه أمين يحب السـيارات الأمريكية وخاصة الشيفروليه. فلقـد دأب علـى تبديل واحـدة بأخرى ومـا كان بيته ليخلو من سـيارة. مع ذلك لاحظت أنَّ ولده الصبي (شـكار) يذهب إلى مدرسـته البعيدة مشـياً على قدميه. حين عاتبته في هـذا الأمر أجابني : كاكه خلّـي يتعلّم... خلّي يصير رجال... أنا كذلك كنتُ أذهب لمدرسـتي ماشياً. خلّي يصير رجال. سـألته مرّةً هل يعرف محلاً في السـليمانية يبيـع الـرز العنـبر ؟ قال متهكماً : كاكه شـنو عنبر شنو بطيخ... جربّ وكلْ تمّن السليمانية. أتمنى اليوم أن أرى هـذه العائلـة التـي أحببناها من أعماق القلب. كيف السـبيل إلى السليمانية ؟؟ كمـا كنت أقوم بزيارة صديقي وزميلي الدكتور محسـن البيرماني وقـد أقام ولم يغادر السليمانية كما فعل الآخرون. كانت فرحته وعائلته بهـذه الزيارات لا حدودَ لهـا. وكنت أتناول معهم ما كانت السـيدة أم أيـاد تطهـو مـن أطعمة متوفـرة ولا

سـيّما (مرقة) الفاصولياء الجافة مع رز السليمانية. أتذكر من أطفالهم أياد الكبير وذُلفاء وغَسَـق ولا أتذكر أسـماء الباقين. سـمعت أخـيراً إنه والبعض مـن أولاده في كنـدا. كما كنا نـزور عائلة مـن العوائل المسـيحية القليلة في السليمانية. إنها عائلة الصديـق المعلم (نوفل). كنت أرتاح كثيراً لحميمية ودفء الجو العائلي في بيت نوفل ووالديه وشقيقاته الطيبات. كانت الفتيات يمارسـن الخياطة وصغراهنّ كانت تعمل في مدرسة الراهبات. كيف السبيل لرؤياهم ؟ العائلة الأخرى التي كنا نزورُ هي عائلة (هجينة) : الزوج الصديق (كاكه عثمان) كـردي من السـليمانية يعملُ مُدرِّسـاً في ثانويـة الصناعة، أما زوجـه (نجاة) فإنها فتاة عربية من مدينة الحلة. وكانت وجبتـي المفضّلة لديهما هـي (الباmياء) ورز السـليمانية. كانت هـذه كلها تتم في إطـار الزيارات العائليـة. فلقد كانت لديّ زيـارات أخرى أقوم بها منفـرداً للصديق عميد كلية التربية والآداب الدكتور محمد سعيد، وزيارات أُخَرَ للمربي الفاضل وأحد الوجوه البارزة بين المعلمين (الشيخ أحمد بَرَزَنجي). نشـاطات سـلمية إجتماعية رغـم أنف الحـرب، ورغم أنـف القذائف المتبادلـة التـي كانت تحيل ليـل المدينة إلى جحيم من الشـرر والضوضاء وأصوات الإنفجارات.

سفرة إلى بغداد

ركبتُ ورئيـس الجامعة المُكلَّف السـيارة الفولفو السويدية الخضراء اللون المخصصة أصـلاً لمن يشـغل منصب رئيـس جامعة السـليمانية، متجهـين إلى العاصمة بغداد لعرض شؤون ومشاكل الجامعة على وزير التعليـم العالـي والبحث العلمي السـيد (هشام الشاوي). كان ذلك آواخر شهر نيسان حيث الربيع وخضرة وزهور جبال ووديان كردسـتان. قصدنـا الوزراة صبـاح اليوم التالي. دخل السكرتير على الوزير وأخبره بحضورنا. قابل صاحبـي الدكتور محمد عبد الله النجم لكنه لـم يقابلني. أحالني على مدير عام الشـؤون الثقافية الطبيب البيطري الدكتور جواد العبيدي... حسب أصول مسلسـل المقابلات الرسمية. العميد يقابـل مديراً عاماً ورئيس الجامعة يقابل الوزيـر. إسـتقبلني الدكتـور العبيدي في مكتبـه في وزارة التعليـم العالي والبحث العلمي بودٍ وحرارة ثم طلب مني حسـب أمـر الوزير أن أكتـب تقريراً مفصّلاً عن وضع الجامعة ومدينة السـليمانية. كتبت التقرير مسـاء ذلكـم اليـوم وقدمته له حسـب الإتفاق صباح اليوم التالي. أنجزنا مهماتنا مع الوزارة فاقترح زميلي الدكتور محمد عبد الله النجم أن نزور مسـاء ذلك اليـوم رئيس الجامعة الذي تركها هارباً إلى بغداد. زرنا بيت الدكتور (حكمت توفيق فكـرت) في حـي الجامعة فإسـتقبلنا في

حديقــة منزله. وجدناه يُدخّن (البايب) متعباً شــاحب الوجــه ولديه متاعب في القلب. ســألنا عن وضــع الجامعة وأحوال مدينة السليمانية فشرحنا له الأوضاع كما نراها كل يوم وســاعة. في لحظة مغادرتنا حديقة داره طلب منا طلباً غاية في الغرابة : أنْ نهتم بسيارة رئاسة جامعة السليمانية الفولفو التي كانت برســم خدمته لبضعة أعــوام خلتْ. قال بالحرف الواحد (ديروا بالكم عالســيارة. لا تستعملوها). لم يعدْ الدكتور حكمت إلى رئاســة الجامعة حتى بعــد أن وضعــت الحــربُ أوزارهــا. نقل خدماته أستاذاً في كلية الصيدلة / جامعة بغداد، رغم كونه كردياً وأصل عائلته من مدينة السليمانية.

المعهد الطبي الفني في السليمانية

في ضوء التطورات العسكرية وتأمين طريق كركــوك ـ الســليمانية وزوال خطر الثوار الكرد الظاهري أجرت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في بغداد تغييرات جوهرية في هياكل ومفاصل الجامعة الأساسية. ففي اليوم الثاني والعشــرين من شــهر مايس ١٩٧٤ صــدرت الأوامــر الوزاريــة بتعيين الدكتــور طــارق حســن العمادي رئيســاً لجامعة الســليمانية والدكتور محمد عبد الله النجم نائباً لرئيس الجامعة. والدكتور خسرو شالي (إبن السليمانية) عميداً لكلية الزراعــة. وصديقي الدكتور محمد ســعيد (من الســليمانية) عميــداً لكلية التربية والآداب. والدكتور هادي كاظم عوض (أحد الهاربــين إلى بغداد) عميــداً لكلية العلوم. أما أنــا ـ الرجل الذي تحمّل المســؤولية في ظــروف بالغــة الدقــة والخطــورة، ثبتَ ولم يهــربْ وأنقذ الجامعــة من إحتمالات التدمــير أو النهب ـ فــكان نصيبي إبعادي من عمادة كلية العلوم التي تحمّلت تبعاتها ومسؤولياتها بالوكالة. كان نصيبي تعييني مديراً للمعهد الطبي الفني التابع إلى جامعة السليمانية حسب كتاب وزارة التعليم العالي والبحــث العلمي المرقّم ((س/ ١٠٩٦ بتأريخ الأول مــن حزيــران ١٩٧٤)). مديــر بدون مبنى لإدارة المعهد.كانت إدارته في الســابق تتبــع عمادة كلية العلوم، ويتقاضى العميد مخصصات مُجزيــة لقاء هذه المســؤولية الإضافية. ذلكم أمرٌ غير مسبوق ولا مبررَ لــه. الموظفــان الوحيدان المحســوبان على ملاك المعهد آنئذٍ كاتب كردي من كركوك ومعيــد شــاب يمتٌّ بصلة قربــى لرئيس الجامعة (إبن شــقيقته) هو السيد هشام، وكان يعيــش في بيت خاله. كلّفتُ صديقي سعدي برزنجي (أخذ شهادة الدكتوراه فيما بعد من فرنســا) الذي كان مديرَ الدائرة القانونية في رئاســة الجامعة فوجد لي داراً حديثة جميلة البناء إتخذتها مركزاً لإدارة شؤون المعهد الطبي الفني. إتفقتُ وصاحب الدار على إيجار ســنوي مقداره ٣٠٠ ديناراً تم دفعــه مقدما ونقداً مــن الميزانية (أو

الموازنة) المخصصة للمعهد. أخذت موافقة رئيس مؤسسة المعاهد الفنية السيد (محمد عبد) لصرف المبالغ اللازمة لتجهيز المركز بأثاث حديث كان لحسن الحظ متوفراً في السليمانية. جهزت الإدارة بخط تلفوني واحد طلبتُ نصبه في غرفة كاكا محمد كاتب المعهد. كان المعهد بحاجة ماسّة لبعض العمال والمستخدمين فقمت بتعيين حارس لمبنى الإدارة ومستخدمة واحدة وفرّاشٍ شاب يتيم جاءتني والدته العجوز تتوسط لتعيينه، ثم سائق لسيارة المعهد. قامت عليَّ القيامة. خابرني مدير دائرة العمل في مركز محافظة السليمانية محتجاً بشدة كيف أقوم أنا لا دائرته بتعيين عمالٍ ومستخدمين وبدون موافقته ؟ إعتذرتٍ منه ووعدته أنْ سوف لن أقومَ بذلك في المستقبل. ما كانت إدارة المعهد بحاجة للمزيد من العمّال أو الموظفين لكني، رغم ذلك، فوجئت صباح أحد الأيام بفتاة من أهالي السليمانية جاءت بصحبة خطيبها لكنها دخلت وحدها مكتبي تحمل أمراً صادراً من زارة التعليم العالي والبحث العلمي بتعيينها ملاحظةً في المعهد !! كيف يكون ذلك دون موافقتي أو في أقل تقدير السؤال مني عن إحتياجات المعهد ؟؟ ما كان المعهد بحاجة للمزيد من الموظفين. طلبتُ من كاكا محمد أن يسجّل مباشرتها ثم عرفت أنها شقيقة زوجة الدكتور محمد عبد الله النجم الذي أصبح الآن نائباً لرئيس الجامعة. الدكتور محمد عبد الله النجم شغل حتى هذا التاريخ ((٢٠/ ٤/ ٢٠٠٥)) وظيفة مستشار في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي !!!!

بداية الدوام

في الأول من شهر أيلول ١٩٧٤ بدأ الدوام الرسمي في المعهد والجامعة. ومع هذه البداية بدأت مشاكلي مع حزب البعث وعناصر مخابراته وأمنه وخاصة (سامي عدّاي) البصري. لقد نصّبوه مديراً لمعهد الإدارة والإقتصاد رغم إنه لا يحمل شهادة عليا. أكمل جامعة البصرة / القسم المسائي لا غير !! كان يتدخل في شؤون طلبتي في المعهد الطبي الفني ويقوم بزيارات ليلية إستفزازية لأقسامهم الداخلية ويعتدي على بعض الطلبة من غير المحسوبين عليهم وخاصةً مسؤولي الطلبة الشيوعيين. ثم تمادى أكثر فإستأثر بسيارة (الفولغا) الروسية البيضاء المخصصة لكلا المعهدين. قطعتُ عليه طريق التدخل في شؤون طلبة معهدنا بمنحي صلاحيات محدودة لمعاون مدير المعهد السيد هشام، وكان من بين هذه الصلاحيات مسؤولية الإشراف على الأقسام الداخلية المخصصة لطلبة وطالبات معهدنا. كنت مع هذه المشاكل منهمكاً في أمر إعداد جداول محاضرات المقررات الدراسية وإختيار الأساتذة المحاضرين فإصطدمتُ بالفخاخ والألغام القديمة التي

وجدتها منتصبةً أمامي: هادي كاظم عوض، عميد كلية العلوم الجديد يروم التدريس في معهدي كمحاضر، كأن مخصصات العمادة ومحاضراته في كلية العلوم لا تكفيه. رفضته وكلّفت بدلاً منه الدكتور عبد الرضا الصالحي أستاذاً لمادة الكيمياء التحليلية. أستاذ مصري مخضرم ومحال في مصر على التقاعد متعاقد مع كلية الزراعة، وجدت إسمه أمامي على قائمة المحاضرين. ما علاقة الزراعة بمعهدٍ للطب الفني ؟ إكتشفت السر.كانت تقف وراءه السيدة فائزة العمادي، زوج رئيس الجامعة الدكتور طارق العمادي. كان هذا الأستاذ المتهريء علماً وجسداً (ستوك) والذي لفظته الجامعات المصرية يقوم بزيارات خاصة إلى الكويت ليحمل حقائب الهدايا إلى (فائزة العمادي) مقابل تجديد عقد عمله في جامعة السليمانية. دأب هذا الرجل الخَرِف على النهوض فجرَ كل يوم والصعود إلى أعلى منارة مسجد المدينة ليؤدي أذان الفجر بدل الملاّ المسؤول. كان يقوم بهذا العمل نفاقاً وزوراً مدعياً التمسك بالدين الحنيف وما كان كذلك لا خُلقاً ولا مسلكاً ولا علماً. رفضت خدماته وقمت بتكليف أستاذ مصري آخر كفوء فقامت قيامة (فائزة) وحاولت فرضه عليَّ بشتى السبل فلم تفلح مساعيها. أكثر من ذلك، حاولت هي الأخرى أن تفرض نفسها معيدة في معهدي فرفضتها. لكن الخبيثة لم تيأس، إذ إستغلت غيابي لإنجاز بعض القضايا التي تخص المعهد في بغداد فأصدر معاون المدير السيد هشام (هو الآخر كردي) أمراً بالموافقة على خدماتها كمعيدة في المعهد. قام بهذه الخطوة في غيابي رغمٍ علمه بموقفي من هذه المرأة، فضلاً عن تجاوزه لحدود الصلاحيات التي منحتها له. ليس في هذه الصلاحيات ما يخوّله تعيين معيدة في المعهد. سكتُ ولم أشأ إثارة المزيد من المشاكل فلدي منها الكثير. تغاضيت عن تجاوز السيد هشام وقررت الإحتفاظ به كصديق لا خصم في محاولة لجعله منطقة فصل وحياداً بيني وبين جبهة أمن ومخابرات البعث العريضة والضاربة القدرات. كنتُ بحاجة ماسة لخدمات أطباء مختصين لتدريس مقررات ومفردات طبية معينة. لذا قمت بزيارة رئيس الصحة الدكتور (أُوميد مدحت) وسلّمته قائمة تتضمن ما يحتاج المعهد من إختصاصات وعدد الساعات الأسبوعية. تعاون الرجل معي بلا حدود. أعطاني حق مفاتحة من أشاء من الأطباء وتكليف من أشاء. أتصلت بعدد من الأطباء من ذوي الإختصاص والكفاءة فإعترضتني مشكلة غير محسوبة. طبيب مصري يمارس الجراحة بدون شهادة إختصاص. كان يدرّس في المعهد في الأعوام الخوالي. رأيت أن من الأنسب والأفضل تكليف

طبيب عراقي يحمل شهادة الدكتوراه في الجراحة من أرقى الجامعات البريطانية. كان المصريون طوال فترة حكم حزب البعث مدللين ووضعهم صدام حسين فوق رؤوس العراقيين.كأنه كان يسعى جاهداً للقضاء على العراقيين الأقحاح وقص جذورهم العريقة وإستبدالهم بمن هب ودب من مرتزقة العرب. ولم تكن السليمانية إستثناءً من هذا النهج البعثي المشبوه والشديد الخطورة. يأتي ((الأخوة العرب)) إلى العراق فيسارعوا للإنخراط في صفوف حزب البعث أصدقاءً أو مرشحين وبعضهم كشرطة أمن وجواسيسَ مخبرين. صيد رخيص بالنسبة لصدام حسين وحزبه يوفر عليه عناد العراقيين وتمسكهم بما يحملون من عقائد وإصرارهم على عفة ضمائرهم ونظافة أيديهم. هؤلاء الزوار الثقلاء الوافدون بحاجة ماسة للوظائف والأموال وصدّام حسين بحاجة ماسة للشرطة الرخيصة والعملاء والمخبرين. قواسم مشتركة ومصالح متبادلة وأصبح كل شيء في الحياة سلعة معروضة في أسواق العرض والطلب. لقد غدا الكثير من هؤلاء أعضاء في حزب البعث ورأيت عدداً من الأساتذة المصريين يحملون جوازات سفر عراقية. سقتُ هذه المقدمة الطويلة لكي أقول إني وجدت نفسي في مأزق حقيقي : هل يستمر الدكتور المصري (عبد الرحمن الريس) الذي لا يحمل شهادة إختصاص في التدريس كما كان دأبه خلال الحُقبة التي سبقتني، أم أقوم بتكليف طبيب عراقي يحمل أعلى شهادة إختصاص في موضوع الجراحة ؟؟ تلكم هي المسألة التي حيّرت شكسبير قبلي...!!! الأخ المصري متكيء على أريكتين ودعامتين قويتين : زوجه طبيبة مثله وسيدة من أهالي السليمانية. أما الأريكة الثانية فهي بالطبع حزب البعث وما يغدق من نعم على ((الأخوة العرب)). لحل هذه الإشكالية جمعت كلا الطبيبين في مكتبي في إدارة المعهد وإقترحت عليهما حلاً وسطاً يقضي بأن يتفقا معاً على أن يقوم أحدهما بمهمات التدريس في الفصل الدراسي الأول ويترك التدريس في الفصل الثاني للآخر. قبِل الدكتور العراقي (عدنان...) هذا العرض بينما تحفظ الأخ المصري عليه. كان يصر بإلحاح مزعج إنه مارس الجراحة طويلاً فإكتسب خبرة لا تتوفر لدى الدكتور عدنان. كان المسكين عدنان يناقش ويرد بأدب جم ولكن بتصميم الواثق من حقه وأفضليته على منافسه فيؤكد إنه يحمل شهادات عليا في الجراحة لا يحملها عبد الرحمن الريس. كان الدكتور عدنان تركماني من كركوك، أما الآخر فإنه مصري... عربي مستبعِث... مستكرِد، فلمن تكون الغَلَبة !!؟؟ قبل الأخ المصري بمقترحي بعد أن طمأنته أنَّ

جامعة السليمانية بصدد الشروع بإفتتاح كليــة للطــب البشــري وســتكون الكلية الجديدة بحاجة ماســة لكليهما. إنفرجت أسارير الطبيب عبد الرحمن الريس فقام يودعني ويصافــح الدكتور عدنان بحرارة وقد اطمأنَّ على مصالحه وأصبحت الأمور في جيبــه. إلى أي حد يحــب بعض الناس المــال ؟ كان هــذا الرجل يعمــل طبيباً في مستشفى السليمانية، ولديه عيادة خاصة يفتحهــا بعد الدوام، وزوجــه هي الأخرى طبيبــة، ومع كل ذلــك ينافس دون حياء طبيبــاً عراقياً أكفأ وأعلــم منه. وجدتُ بعــض النفــوس مصابــةً بــداء السُــعار وسرطان الرغبة الجامحة لجمع المال. جاء العراقَ ضيفاً للعمل بعقد ســنوي ثم قام ينافس دون وجه حق أهل البلد ويزاحمهم في خبزتهم ومصادر رزقهم. هل تســمح [أرضُ الكنانة] مصر بذلك ؟؟ بلغ الســيلُ الزُبى فقررت إنهاء تنســيبي والرجوع إلى مكاني الســابق مدرســاً في كليــة العلوم في جامعــة بغداد. جاءت الموافقــة على إنهاء تنســيبي في الأول من شــهر تشرين الثاني بسرعة قياسية ولكن ظلَّ أمر نقل زوجتي معلّقــاً. في فــترة إنتظارنا لهــذا الأمر كان عميــد كلية العلــوم هــادي كاظم عوض يضغط بشدة ويســأل بإلحاح متى أُسجّل إنفكاكــي مــن كليــة العلــوم وجامعــة الســليمانية. قال إنه نفســه تحت ضغط كبير. ســألته مــن يضغط عليــك ؟ جاء جوابه واضحاً وصريحــاً : رئيس الجامعة والمكتب. ســألته ماذا يقصد بالمكتب ؟ قال المكتب المهني لحزب البعث !!؟؟ سجلّت بعد أسبوع إنفكاكي وغادرت إلى بغداد فسجّلت مباشرتي في قسم الكيمياء / كلية العلوم / جامعة بغداد. تم تنسيبي خلافاً لرغبتي للتدريــس في كليــة التربية فصــدر الأمر الجامعــي المرقم ((٤٩٣٨٢ بتأريخ التاســع من شهر تشرين الثاني ١٩٧٤)). وماذا عن مصــير زوجتــي وأطفالي الذيــن تركتهم خلفي في فندق السلام في مدينة السليمانية ؟ عرقــل بعثيو بغداد أمــر نقل زوجتي ولــم يشــأ بعثيــو الســليمانية التدخل. راجعت مدير عام التعليم الثانوي (سلمان داوود العــزاوي) وهــو زميل لــي في دار المعلمين العاليــة، فإعتذر بإنَّ أمامه قائمة طويلة بأسماء معلمات ومدرسات ينتظرن دورهن في الإنتقال إلى بغداد حسب القاعدة الزوجيــة. قلــت له إني نســّـبت نفســي لجامعــة الســليمانية وصاحبتني زوجي حســب القاعدة الزوجية إياها، فالمفروض أن تصحبني في أوبتي ثانيةً إلى مكان عملها الســابق في بغداد.لم يقبل حجّتي. ذهبت صبــاح اليوم التالــي لأقابل وكيــل وزارة التربيــة الدكتور عصام عبــد علي، وكان زميــلاً هو الآخــر في دار المعلمــين العالية يســبقني بثلاث ســنوات، ثم جــاء الحلةَ مدرســاً في الثانويــة حيث عقــد صداقة متينــة مع أخــي جليل الــذي كان يومها

يشغل وظيفة ملاحظ في نفس المدرسة الثانوية. تهرّب من مواجهتي ثم تقابلنا مقابلة صدفة ففاتحته بأمر نقل زوجتي إلى بغداد فإعتذر بإنه لا يتدخل في مثل هذه الأمور لإنها خارج نطاق مسؤولياته. حاولت صباح اليوم التالي مقابلة رئيس جامعة بغداد الدكتور سلطان الشاوي في رئاسة جامعة بغداد في الجادرية فأخبرني سكرتيره إنه مشغول جداً ولا وقت لديه لمقابلة زائرين أو مراجعين. مرَّ شهر تشرين الثاني ثقيلاً مريراً وكنت فيه مشغولاً بمصير عائلتي وغدا فكري مشتتاً ففقدت القدرة على التركيز والنوم الطبيعي. وكان مطلوباً مني أن أقوم بالتدريس في كلية التربية خمساً وعشرين ساعةً في الأسبوع بين محاضرات ومختبرات. كنتُ وقتها مقيماً في بيت أخي جليل في حي السلام في الكرخ من بغداد.كان ولدي أمثل (أربع سنوات) وأُخته قرطبة (أقل من ثلاث سنوات) يطلبان أباهم ويسألان أمهما لماذا هم وحدهم في السليمانية وأبوهم في بغداد ؟؟ كانت تقول لهما إنه ذهب قبلنا إلى بغداد ليستأجر لنا بيتاً ويشتري لكما سيارة. يرفضان هذا الجواب ويصرّان على زيارة بغداد لرؤية أبيهم. لذا كانوا يأتون بغداد في نهاية كل أسبوع ليقضوا معي ليلة واحدة فقط هي ليلة الخميس / الجمعة. ويكون فراقهم غاية في الصعوبة ساعة توديعهم في كراج سيارات بغداد ـ السليمانية. يسألني ولدي أمثل بثقة ممزوجة بعتاب الناضجين الكبار ((بابا... لماذا لا تأتي معنا إلى السليمانية ؟ بابا... أين سيارتك ؟)).كيف أترك أطفالي وأمهم غرباء في مدينة بعيدة وفي ظروف غير طبيعية وليست مستقرة، مأواهم في فندق يتعرض للقصف أحياناً ؟ كان الفندق لحسن الحظ محجوزاً للأساتذة العرب وغير العرب الأجانب القائمين على التدريس في الجامعة. بيت كبير لعائلة كبيرة واحدة.كان دوام أطفالنا في مدرسة الراهبات وإختلاطهم ولعبهم مع بقية الأطفال يشغلهم نهاراً وينسيهم المحنة التي هم فيها وينأى بهم عن التفكير بأبيهم. ولكن ما أن ينتهي دوامهم في المدرسة عصراً حتى يبدأ ضغطهم على أمهم فتتضاعف همومها المتشعبة. ماذا يمكن أن يحل بأطفالي وهم وحدهم دون رفقة أبيهم ؟؟!! وضعتُ تصاويرهم أمامي على طاولة عملي اليومي في بيت أخي فزادتني الصور هموماً. صرت أرفعها يوماً لأضعها في مكانها في اليوم التالي. حالة غير طبيعية ولا يمكن قبولها. كتبت في اليوم الأول من شهر كانون الأول ١٩٧٤ وأنا في حالة نفسية سيئة ومتأزمة ـ وقد سُدّتْ السبل الأصولية جميعاً في وجهي ـ رسالةً مسجلة لصدام حسين أعرض فيها مأساة أطفالي ووالدتهم في السليمانية. شرحت

له وضع مــن قابلتُ من المسـؤولين دون جدوى. قلـت له أطفالي وأمهم يعيشـون وحدهـم في فنـدق السـلام في مدينـة السـليمانية، بينما أقيم أنـا في بغداد مع أخي في حي السلام. طلبتُ منه أن يتدخل فيأمر أو يسـعى لنقل زوجتـي إلى بغداد لكي تلتحـق والأطفال بربِ الأسـرة. مرَّ أسـبوعان ولم ألمح بارقة أمل في الأفق ولم نحصل علـى جواب فيئسـتُ من تدخل صدام حسين الذي كان يومذاك نائب أمين سـر قيادة حزب البعـث القطرية ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة.

بـدل الأمـر بنقـل أم أولادي إلى بغـداد تعـرض فنـدق السـلام في قلـب مدينة السـليمانية إلى حادث إطلاق نار مصدرها السـطوح العالية لمعمل التبغ والسـجاير المقابـل للفندق. إخترقت رصاصتان زجاج نافـذة غرفـة عائلتـي التي كانـت تطلّ على الشـارع العام وتواجه المعمل ومصدر إطلاق النار. مرّت واحدة فوق رأس طفلنا أمثـل لتسـتقر عميقاً في الجـدار المقابل. طرحت الأم الطفلين وهـي تصرخ بأعلى صوتها على أرض الغرفة ثم ألقت نفسـها فوق جسـديهما. إخترقـت رصاصة ثانية زجاج النافذة لتسـتقر هي الأخرى عميقاً في الجدار المقابل. وسـط صـراخ الأطفال وهلع الأم سـارع بالمجـيء إلى غرفة العائلة كل من كان سـاعتها في الفندق لإسـتجلاء الموقـف والإطمئنان على سـلامة سـكنة الغرفـة. لم يصب أحد مـن أفراد عائلتي بـأذى. تركت من فـرط الصدمة عائلتي صباح اليوم التالي السـليمانية عائدة على عجل إلى بغداد لتقـصَّ عليَّ تفاصيل ما جرى لها وللأطفال. دبّرت لها بمسـاعدة طبيـب صديق إجازة مرضية طويلة كيما تنسى الحادث وتبتعد عن أجواء الحرب في السليمانية. ثم جاءت المفاجأة الكبرى التي تحمل فضلاً عن البشرى السارّة الكثير من الشـكوك في نوايا وطبيعة صدام المجبولة على الشـر والغـدر والضِعة والوحشـية. فلقد صدر الأمـر بنقلها إلى بغداد بتدخل صدام نفسه. حين لم تنجح المؤامرة ونجت زوجتي وأطفالي من مخطط القتل الشرير، تحـرك صدام في اليوم التاسـع عشـر من شـهر كانون الأول فأحال رسالتي إلى وزير التربية المرحوم (محمد محجوب). سأنقل محتوى الأمر الوزاري لطرافته ولأنه يؤرخ لفترة من فترات العـراق الحرجة والبالغة الخطورة والغموض.

وزارة التربية العدد/ ذ/ث/ ٢٠٠
المديرية العامة للتعليم الثانوي التأريخ /١٩٧٥/١/٢
- الثانوي -

- أمر وزاري -

م/ نقل مدرِّسة

بناءً على طلب السيدة إقبال جواد جابر جوير مدرسة الفن في مدرسة الفنون البيتية في مديرية تربية محافظة السليمانية تقرر ما يلي :

١- نقلها لأمر مديرية تربية محافظة بغداد - الكرخ
٢- تنسيبها للعمل في معهد إعداد المعلمات ببغداد لتقوم بتدريس إختصاصها فيه وذلك سدّاً للشاغر دون أن تُمنح أية مخصصات أو أجور إضافية من جرّاء هذا التنسيب
٣- يُعتبر الأمرُ نافذاً من بعد الإنتهاء من إمتحانات نصف السنة للعام الدراسي ٧٤/ ٧٥ وعلى نفقتها الخاصة.

(توقيع)
محمد محجوب
وزير التربية

صورة إلى /
مجلس قيادة الثورة/ مكتب نائب الرئيس/ ليتفضل السيد نائب الرئيس بالإطلاّع وحسب هامشه المؤرَّخ في ١٩٧٤/١٢/١٩ .
المديرية العامة للتعليم المهني/ النسوي/ هامشكم المؤرخ في ١٩٧٤/١٢/١٩
المديرية العامة للإشراف التربوي/ مديرية إعداد وتدريب المعلمين
مديرية تربية محافظة السليمانية / لمتابعة الإنفكاك
مديرية تربية محافظة بغداد/ الكرخ / لمتابعة المباشرة
مديرية التعليم الثانوي/ ٢
مديرية الحسابات
مديرية خزينة محافظة / -----

السجّل الشخصي
إدارة معهد إعداد المعلمات / لمتابعة إلتحاقها بمعهدكم وإعلامنا
إدارة المدرسة
السيدة / -----

في نفس أمسـية الحادث، جاء الفندقَ ضابط أمن ليعتذر ويؤاسـي زوجتي ثم قدم لها تفسيراً ملفّقاً لظروف الحادث : قال إنَّ الأكراد البيشمركة هم من كان قد فتح النار على الفنـدق من فوق قمـم الجبال العالية. لعمري... الذي يطلق النـار من قمة جبلٍ عالٍ لا يصيـب إلاّ غـرف الطوابق العليا للفندق (الخامس والسـادس). كانت غرفة عائلتي علـى الطابق الأول. وهـو موضع واطيء تعلوه كثيراً بنايات متعـددة تابعة لمعمل التبغ والسـجاير. ثم، كيـف تخترق رصاصة قادمة من بعيد زجـاج النوافذ وتحفر عميقاً في جُدُر سميكة من الحجر المغطّى بالإسمنت ؟؟!! عاد ضابط الأمن وأضاف إن المقصود هو رجل كردي متعاون مع سلطة البعث يسكن الغرفة المجاورة... وهو موظف بدرجة قائم مقام أحدى أقضية السليمانية ؟؟!!

ثقافة حقوق الإنسان في ظل التطور الدولي (مسرد)

إعداد: جلال زنكَابادي

{ مايلي مسرد مختزل لمقتطفات مولّفة بصيغة مقالة ؛ لترويج ما هو جوهري في مقدمتي ّ وتصدير كتاب (ثقافة حقوق الإنسان/ مجموعة مثقفين/ إعداد: د.عبدالحسين شعبان/ ط١ في٢٠٠١/ رابطة كاوا للثقافة الكردية/ ٢٣٠ صفحة من القطع الكبير/ والكتاب يتضم ّن ماطرحه العشرات من خيرة المثقفين والباحثين والحقوقيين من آراء بخصوص(ثقافة حقوق الإنسان) بأبحاثهم أو مداخلاتهم أو تعليقاتهم، في حوارات جادة، جرت في خمسة ملتقيات فكرية نظمتها(المنظمة العربية لحقوق الإنسان في بريطانيا) برئاسة د.شعبان الشخصية البارزة في هذا الميدان، فضلاً عن كونه أديباً وباحثاً} (ج.ز)

***

يقيناً سيظل موضوع (ثقافة حقوق الإنسان) أحد أهم المواضيع الأساسية،التي تستوجب إعمال الجهد والفكر وإبتداع أساليب جديدة لنشرها وترويجها وتعزيزها، ليس على صعيد النخب السياسية والثقافية والفكرية فحسب،بل على صعيد المواطن الإعتيادي، في المدرسة، الجامعة، الحقل، المصنع، والوظيفة الأهلية والحكومية؛ بحيث تغدو في متناول الجميع،وبذلك يمكن حماية حقوق الإنسان وتعزيز حرياته الأساسية، والدفاع عنها ضد أي ّ إنتهاك أو تجاوز.

لم ينقطع الجدل والنقاش حول فكرة ومفاهيم حقوق الإنسان، منذ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في(١٩٤٨/١١/١٠) خصوصاً في فترة الصراع الآيديولوجي المحتدم والحرب الباردة، ومازال الحوار يرتفع ويثور حول الكثير من المفردات،التي تدخل ضمن نطاق حقوق الإنسان؛ فحرية الفكر والعقيدة وحق التنظيم والإعدام خارج القضاء وحالات الإختفاء والعزل السياسي، والحق في

محاكمة عادلة والإمتناع عن التعذيب، كلّها مصطلحات لها دلالات مختلفة لدى شتى الحكومات والإيديولوجيات والسياسات، كما أن مشكلات مثل المجاعة والبطالة وتلوث البيئة ونتائج الحروب والوجود العسكري الأجنبي ؛ فد شغل حيّزاً غيرضئيل من فكرة حقوق الإنسان، مثلما الحال في قضايا حق تقرير المصير والسيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، إضافةً إلى قضايا حقوق المرأة والعنصرية والتطرف وحقوق الأقليات، تقابلها المشاركة والإنتخابات، دون إهمال لحرمة المنازل وسرّية المراسلة والهاتف والإتصالات، والحقوق الفردية الأخرى...

وإذا كانت تلك المفردات قد وجدت طريقها إلى التقنين الدولي في إطار حقوق الإنسان؛ فإن العالم العربي مازال يعاني الكثير من النقص والقصور في تناول هذه المشكلات، بما يتناغم مع التطور الدولي،الذي حصل في هذا الميدان؛ بسبب مفاهيم مختلفة وأطروحات عتيقة منعته من السير في طريق تعزيز إحترام حقوق الإنسان والإلتحام والتفاعل مع الحركة العالمية في هذا الميدان.وإذا كان هذا النقص فادحاً وكبيراً من الناحية النظرية والتشريعية والدستورية؛ فإننا نستطيع تلمس مدى الضرر الكبير في هذا المضمار على الصعيد العملي والممارسة الفعلية.وإذا كانت حركة حقوق الإنسان قد تقدمت كثيراً على المستوى الدولي؛ فإن هذه الحركة ماتزال بعيدة عن معيار الحد الأدنى النظري على أقل تقدير، ناهيكم عن الطموح المنشود في البلدان العربية،فرغم مضيّ مايزيد عن ثلاثة عقود ونيف على صدور العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية؛ فإن ثلاث عشرة دولة عربية فقط إنضمت إليه،وإثنتي عشرة دولة عربية فقط إنضمت إلى العهد الدولي الخاص بالحقوق الإقتصادية والإجتماعية والثقافية، وكذا الحال مع المواثيق والمعاهدات الدولية الأخرى؛ فإن إتفاقية منع التعذيب،مثلاً،لم تنضم إليها سوى سبع دول عربية، بل لم تصادق إثنتان منهما عليها! أمّا إتفاقية منع التمييز ضد المرأة فلم تنضم إليها سوى خمس دول عربية، ولم تصادق إحداها عليها لحد الآن! هذا في الوقت الذي يعد إقرار مبدأ حقوق الإنسان كمبدأ أمراً ملزماً من مبادىء القانون الدولي، الذي سلّط الأضواء على إنتهاكات حقوق الإنسان المدنية والسياسية،لاسيما الحقوق الفردية؛ فالإتحاد السوفياتي كان يتشبّث بالحقوق الجماعية، وخاصة الحقوق الإقتصادية والإجتماعية، وعقب إنهيار المعسكر الإشتراكي وتكريس النظام العالمي الجديد ضمن ترتيباته الراهنة للولايات المتحدة زعيمة بلامنازع؛ فقد أخذ موضوع حقوق الإنسان يُطرَح من زاوية جديدة وضمن أطر جديدة مختلفة، خصوصاً بإنتهاء عهد الحرب الباردة، ومعها نظام القطبية الثنائية؛ ففي (مؤتمر باريس) المنعقد في تشرين الثاني

١٩٩٠ وضعت آليات جديدة لمراقبة إنتهاكات حقوق الإنسان منها: إيجاد مكتب أوربي خاص للإشراف على شرعية الإنتخابات وتحديد معالم النظام الديمقراطي التعددي لإحترام حقوق الإنسان.وفي (إتفاقية برلين) الموقعة في حزيران١٩٩١ جرى إقرار المباديء الجديدة، في إطار ميزان جديد للقوى الدولية، حيث تم هدم مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية،الذي سبق وأن أقرّه ميثاق الأمم المتحدة في مادته الثانية، حين أكد المؤتمر على " أحقية الدول الأعضاء في التدخل لوضع حد لإنتهاكات حقوق الإنسان والقوانين الدولية" بل وذهبت الإتفاقية إلى أبعد من ذلك؛ حيث أكدت على أهمية وضرورة وضع خطة طوارئ لمنع حدوث الصدام المسلح، متجاوزة على مبدأ السيادة التقليدي،الذي نظمته المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة.

ثمة اليوم قاسم مشترك أصبح أكثر وثوقاً وأشد صرامة، رغم تناقض المفاهيم وإختلال موازين القوى ،ألا وهو إزدياد الحاجة والشعور؛ لتأكيد إحترام حقوق الإنسان وإتساع نطاق العاملين في هذا الميدان والمهتمين به. ورغم المرارات والإحباطات وإستمرار المعايير المزدوجة، وخاصة بحق الشعوب والبلدان النامية؛ فإن حركة حقوق الإنسان قد أخذت في التطور، وإنعكس ذلك في إهتمام الحكومات بتشريعات حقوق الإنسان والسعي لإمتصاص النقمة وتخفيف بعض الإجراءات التعسفية، والإعلان عن إصلاحات دستورية. ولقد تجسّد ذلك في أربعة مؤتمرات دولية تمهيدية للمؤتمر العالمي،الذي إنعقد في(فيينا)هادفاً إلى الحوار بخصوص حقوق الإنسان، فإبتداءً: تحديد المفاهيم وتعميق التوجهات،ثم إنه ليس بنزوة عابرة، وإنما هو حاجة وضرورة ماسة، وتزداد هذه الحاجة في البلدان العربية؛ حيث مازال البعض حتى الآن يعتقد أن حركة حقوق الإنسان هي بدعة غربية وإختراع مشبوه؛ لتحقيق مآرب سياسية.وللأسف الشديد يتناسى هؤلاء أن مفاهيم حقوق الإنسان،التي تعمقت على مر العصور، هي نتاج تطور الفكر البشري، الذي لايقتصر على قارة أو أمة أو شعب أو جماعة محدودة، بل هي مزيج من التفاعل الحضاري، ثم إن الإسلام كان قد بشّر ببعض المفاهيم الخاصة بحقوق الإنسان، وقد كانت مفاهيم متقدمة، في حين كانت أوربا يسودها عصر الإقطاع والظلام.

وفي مقابل مفهوم العالمية، هنالك من يحاول التعكّز على الخصوصية القومية والثقافية كذريعة للتحفظ على بعض الإلتزامات الدولية بخصوص حقوق الإنسان. وإذا كانت الخصوصية مسألة ينبغي مراعاتها، لكنها لاينبغي أن تسير بإتجاه تقويض المبادئ العامة لحقوق الإنسان بدعوى الخصوصية، وإنما بالعكس من ذلك؛ ينبغي أن تدعم الخصوصية المعايير العالمية،لا أن تنتقص

منها، خصوصاً في القضايا الأكثر إلحاحاً وراهنية ؛ لأن الخصوصية تؤكد التنوع الإجتماعي والثقافي والديني والمذهبي والسياسي، في العقلية والتقاليد بين شعوب بلدان العالم وثقافاتها المختلفة، لكنها لاينبغي أن تكون عقبة في طريق المعايير العالمية، أو أن تستخدم حجة للتملص من الإلتزامات الدولية،التي يفرضها ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان والقواعد الآمرة/ الملزمة في القانون الدولي المعاصر، وبالقدر الذي تجد فيه الخصوصية قابليتها على التناغم والتوافق والتكيّف مع العالمية والشمولية والكونية لحركة ومعايير ومبادىء حقوق الإنسان، تستطيع أيضاً التعبير عن خصائص أيّ شعب أو أي أمة وتفاعلها مع ركب التطور العالمي.

جليّ أن بعض الحكومات تتظاهر على النطاق الدولي بالإلتزام بالمعايير الدولية لحقوق الإنسان ؛ فهي توقع وتصادق على الإتفاقيات والمعاهدات الدولية لحقوق الإنسان ؛ بغية صرف الأنظار فعلياً عن حقوق الإنسان على المستوى الداخلي،بل لغرض الإستهلاك المحلي وتجميل صورته وذر الرماد في العيون؛ مادام التوقيع على الإتفاقيات الدولية لايلزمها بمواءمة تشريعاتها الوطنية مع العهود والمواثيق الدولية، أو أنها تمهل نفسها أطول فترة لتسويف هذه القضية والإلتفاف عليها!

هنالك من يدعو إلى تسييس حركة حقوق الإنسان، ويرى أن مهمتها إذاما إقتصرت على الرصد وتقديم الشكاوى وملاحقة بعض القضايا المتعلقة بالإنتهاكات والتجاوزات؛ فلا جدوى ترجى منها، بصفتها حركة إصلاحية، أمّا المطلوب فهو تغيير المجتمع (ثورياً) في حين تقف الحركة على مبعدة من الإنخراط في العمل السياسي الروتيني خلال أسلوب عملها، كحركة توفيقية غيرمجدية في منظور أصحاب هذا الإتجاه، ممن يدعون إلى إقحامها وإنخراطها في مواقف سياسية ليست من إختصاصها ؛ بما يعد خروجاً على طابعها وطبيعتها، بينما لاتتخذ الحركة ضمن أسلوب عملها وتوجهاتها مواقف مسبقة إزاء هذه الحكومة أو تلك ، بل تقف مع حقوق الإنسان أينما وحيثما وكيفما خرقت أو أنتهكت أو مسّت؛ فتلك هي مهمتها، ومااينبغي تحقيقه في إطار متوازن ودون تردد أو مجاملة.

ومقابل ذلك، هنالك من يدعو لإبعاد حركة حقوق الإنسان عن السياسة؛ تحاشياً لرد فعل هذه الحكومة أو تلك أو العاملين على أرضها وعلاقاتهم، إنما الإقتصار على لغة ناعمة في النقد مشفوعة بالبروتوكولية والدبلوماسية، دون تسمية الأشياء بمسمّياتها، وعدم التوسع في عملها والإبقاء على عمل(النخبة) بما يبعدها عن الوقوع في المشكلات، وخاصة ذات الطابع السياسي ، ويساعد في الرقابة على العاملين في إطارها.

وبين هذا وذاك ،إن كان لابد للحركة أن تتقدم ؛ فيجب أن توازن وتتوازن، فلا تتحول إلى حزب سياسي أو منظمة معارضة ؛ بل عليها أن تصوغ خطابها على نحو صريح وواضح ومبدئي؛ لكي تؤثر في جمهور واسع، ومن ثم يمكن أن تتحول إلى حركة جماهيرية، يلتف حولها أنصار ومؤيدون واعوان يستطيعون بثقلهم وبما تعتمده الحركة من أساليب عمل ومرونة وحصانة؛ وفرض الإعتراف بوجودها، ومن ثم الإضطرار إلى التعامل معها.

هنالك أيضاً إختلاف بين النظرة الشمولية والنظرة الجزئية لحركة حقوق الإنسان، بينما ينبغي معاينة حقوق الإنسان على أساس شمولي ، ومن زاوية نظر شمولية ، وقد أثبتت التجربة أن التخلي عن الحقوق الفردية والمدنية والسياسية، أو إهمالها قد أفضى إلى أنظمة شمولية إستبدادية (توتاليتارية وديكتاتورية) ولم يساعد في خلق التوازن المطلوب والتنمية المنشودة، وإن إنهيار الإتحاد السوفياتي أقرب مثال على ذلك ؛ حيث ركزت الثورة الإشتراكية طوال عقود سبعة على حقوق الإنسان الجماعية ، وخاصة حق الشعوب والأمم في تقرير مصيرها ، فضلاً عن الحقوق الإقتصادية والإجتماعية والثقافية، كحق العمل والتعليم والضمان الإجتماعي وتوفير الفرص الثقافية للمواطنين...إلاّ أن تلك المفاهيم إصطدمت بالتجاوزات على حقوق الإنسان الفردية وحرياته الأساسية، ومن ثم لم تخلق التوازن المطلوب. وذلك ماحدث أيضاً في العديد من أنظمة التحرر الوطني، وهكذا فإن أي إهمال لأي جزء من حقوق الإنسان؛ يؤدي إلى عواقب وخيمة، وتظل العبرة بالتنفيذ طبعاً.

وتندرج فكرة الإزدواجية والإنتقائية في المعايير،ضمن مفاهيم حقوق الإنسان وتطبيقاتها على الساحة الدولية؛ ففي الوقت الذي تطبّق المعايير الدولية بصدد إنتهاكات حقوق الإنسان والتجاوز على قواعد القانون الدولي المعاصر وميثاق الأمم المتحدة، يتم فيه غض النظر عن تجاوزات وإنتهاكات أخرى، بينما يستخدم السلاح نفسه في بلدان أخرى؛مما يعزز الإعتقاد بأن التدخل (للدفاع عن حقوق الإنسان) قد إستهدف الدفاع عن المصالح الخاصة بالدرجة الأولى، أي (الكيل بمكيالين) وبمعايير مزدوجة ؛ وإلاّ لماذا لم تطبق الموازين نفسها على حالات مماثلة؟!

وعليه فإن الدعوة إلى إعتماد معايير دولية موحدة ،لاتلغي ولاتنتقص من الإجراءات الهادفة إلى فرض إحترام قواعد القانون الدولي وحقوق الإنسان، في حين ان عدم تعميم تلك المعايير؛ هو ما يلقى الإنتقاد ، ويثير التساؤل حول مصداقية النظام الدولي الجديد، حيث أن ممارسة (الكيل بمكيالين) و(الإزدواجية) في المعايير،هي إحدى أبرز

الإشكاليات،التي برزت على نحو صارخ، في ظل النظام الدولي الجديد.

إن ممارسة (الكيل بمكيالين) و(الإزدواجية) في التعامل تنسحب على قوى وجهات ودول شتّى؛ إذْ لايمكن رفض الدكتاتورية في بلد وإستهجان هدرها لحقوق الإنسان، بينما تُقبَل ويُسكَت عليها في بلد آخر، ولايمكن رفض الدعوة الرامية إلى إحترام حقوق الإنسان في بلد؛ بحجة (رفض التدخل) ومحاولات(الهيمنة) والتذرع بفكرة(السيادة) خصوصاً وأن حقوق الإنسان لم تعد قضية داخلية صرفة. ولكي يُستَبعَد التدخل الخارجي وتُصان السيادة؛ لابد من إعتماد المعايير الدولية المعترف بها لحقوق الإنسان، ومن ثم عدم إعطاء ذريعة للتدخل وتحقيق المآرب السياسية والمصالح الخاصة.

يرى البعض أن مبدأ (السيادة) يمثل حق الدولة المطلق في التصرف في شؤونها الداخلية، وقد أخذ مفهوم السيادة،الذي سادَ في مرحلة القانون الدولي التقليدي ، ينحسر وخاصة في السنوات الأخيرة مع صعود مبدأ (ضرورة التدخل) لفرض إحترام حقوق الإنسان وحماية أرواح البشر، وهو المبدأ،الذي إعتمد كجزء من مسؤولية المجتمع الدولي، ولفرض رقابته بشأن الإنتهاكات والتجاوزات. ولقد بدأت إشكالية التوازن بين مبدأ (سيادة الدولة) ومبدأ (إحترام حقوق الإنسان) تصطدم بالواقع القائم في ظل (النظام الدولي الجديد) الذي طرح على بساط البحث النظري والعملي كيفية المواءمة بين مفهوم السيادة الوطنية والمصلحة القومية من جهة، وبين الإلتزام بمباديء حقوق الإنسان بصفتها معايير دولية آمرة وملزمة، ثم إن نقطة التوازن بين(حقوق الإنسان) و(السيادة الوطنية) تنطلق من التطور،الذي حصل في ميدان القانون الدولي ، خصوصاً المدى الذي يستطيع به فرض التدخل على الدول الأعضاء في الأمم المتحدة وفقاً للميثاق وفي إطار القواعد الآمرة. ولكي يتم تطبيق مبدأ (التوازن) ضمن الترتيبات الدولية ؛ تزداد الحاجة إلى إيجاد آلية معيّنة وميزان عملي موحد لقياس نوعية وحجم إنتهاكات حقوق الإنسان،التي يجوز أو لايجوز التذرع بها باعتبارات السيادة ؛ للحيلولة دون إستخدام قضية حقوق الإنسان بطريقة إنتقائية، ولاتسمح للتدخل الأجنبي باستغلالها لإعتبارات سياسية، كفرض الهيمنة وإملاء الإرادة؛ ولذا تتطلّب الضوابط والمعايير والآليات لإنتهاكات حقوق الإنسان صياغةً دقيقة من قبل الأمم المتحدة، ولقد دعت منظمة العفو الدولية إلى ذلك. وإذا كانت هنالك حساسية في التدخل؛ فإن إحترام حقوق الإنسان والمعايير الدولية يبعد شبح التدخل، ويحقق مفهوم السيادة الوطنية إلى حد كبير،ثم إن رفض التدخل والإحتجاج على خرق السيادة لن يبررا الزوغان عن الرقابة الدولية المعنية بهدر حقوق الإنسان.

لم تعد قضية حقوق الإنسان إختياراً داخلياً فحسب، وإنما إلتزاماً دولياً وضرورة لاغنى عنها، في سبيل التكيّف مع متطلبات المتغيّرات الدولية، وإذا كانت بلدان العالم الثالث تواجه تحديات من قبيل إستمرار الإعدام خارج القضاء والتعذيب والإعتقال التعسفي والإختفاء وعدم الإقرار بحرية الفكر والعقيدة والتنظيم وممارسة العزل السياسي والتمييز ضد المرأة وهدر حقوق الأقليات والتدخل في الحياة الشخصية، وهي سمة عامة تكاد أن تكون مشتركة لأنظمة العالم الثالث؛ فإن غالبيتها مازالت تعاني من العوز والحاجة،التي تبلغ حد المجاعة أحياناً، وكذلك تعاني من الإستعمال غيرالرشيد للموارد، ومن التصحر،إضافة إلى نمو بعض مظاهر التطرف وإنفلات العنف والإنتقام وغيرها..كما وأنها تعاني من محاولات الهيمنة والتبعية الإقتصادية، ومن بعض المظاهر الجديدة مثل إستخدام بعض الدول النامية كسلّة للمهملات والنفايات النووية، كما هي الصومال وغيرها! وكذلك إستخدام بعض أفراد العالم الثالث كفئران في تجارب البلدان المتقدمة صناعياً، بالضد من ضمان حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، بل ويجري تسويق العديد من السلع الضارة بالصحة إلى بلدان العالم الثالث، بتواطؤ بعض المتنفذين ؛ من أجل مصالحهم الأنانية، دون أي إعتبار للإنسان وحقوقه وصحته ومستقبله!

إن إستخدام العالم الثالث كسلّة للنفايات النووية، وإقامة بعض المنشآت الخطيرة على أراضيه بدون مراعاة قواعد السلامة والصحة، ومن ثم هدر موارده وتدمير وتلويث بيئته؛ يعد جريمة ضد الإنسان من صنف الجرائم الدولية،التي تستوجب إلزام الدول والشركات والأفراد بالكف عنها، ودفع التعويضات المترتبة عليها، ثم التعهد بالإمتناع عن تصدير المواد التي تهددها، ناهيكم عن حماية المواد المشتركة، وحسبان أيّ هدر لها تفريطاً بالثروة،على نحو يقتضي المساءلة والمقاضاة.

وهكذا نرى التحدي الذي يواجه العالم الثالث يتعلق بقدرته على التكيف مع المستجدات والمتغيرات الدولية، بالقدر الذي يحرص على حقه في التنمية، ورفض الإمتثال لسياسات إملاء الإرادة. ثم إن تحقيق المشاركة السياسية في إدارة شؤون الدولة ونبذ إحتكار العمل السياسي والمهني، وتأكيد حق الأقلية في المعارضة هو حق أصيل، مثلما هو حق الأغلبية في الحكم، والذي يتأتى عبر صندوق الإقتراع والإنتخابات الحرة الدستورية ، والإستجابة لمتطلبات العصر، باحترام حقوق الإنسان وإشاعة الحريات الديمقراطية وتأمين مستلزمات نمو المجتمع المدني.

لكي تتقدم حركة حقوق الإنسان، وتنتقل من النخبة إلى الجماهير؛ ينبغي ان تتوسّل الإنفتاح والإبتعاد عن العصبوية الضيقة

والإنحياز المسبق، والموازنة بين الدفاع عن حقوق الإنسان المدنية والسياسية والدفاع عن حقوقه الإقتصادية والإجتماعية والثقافية، وبين الحقوق الفردية والجماعية،على نحو صريح وواضح دون الوقوع في شراك الإيديولوجيات وفخاخ التجريد والمجاملات والبروتوكولية، ثم إن الدفاع عن الضحايا لايعني تبني أفكارهم أو إتجاهاتهم السياسية. وإن جهداً حقيقياً ينتظر صياغة دور جديد حضاري لحقوق الإنسان، وهو المعيار لتقدم أي أمة،أو أيّ شعب أو أي جماعة متمدنة، فالتقدم الحقيقي والرقي والإزدهار لن يتأتى بمعزل عن إحترام وحماية وتعزيز حقوق الإنسان وحرياته الأساسية.

وبناءً على كل ماأسلفناه؛ لابدّ من تأكيد أهمية رفع الوعي الحقوقي بقضايا حقوق الإنسان بتدريس مادة حقوق الإنسان والمعاهدات والإتفاقيات الدولية، في الجامعات والمعاهد، ومن خلال النشر والإعلام، وتأكيد مسألة مشاركة المرأة ومساواتها مع الرجل.

كركوك
بين حقائق الوثائق
وزيف الادعاءات

كاروان أنور*



كركوك (آرابخا) مدينة النار الأزلية بشعلتها الوهاجة التي وصفها زينفون وهيرودوتس والاسكندر المكدوني في رحلاتهم بالنار المقدسة، ونار بابا كركر التي زارتها وتزورها النساء الى يومنا هذا ظنا منهن بأنها نار إلهية مقدسة وظنا منهن بأن النار تجعلهن يلدن ذكوراً.. (نارها مقدسة وهواؤها عذب وطينها صلصال مبارك) هذه النار وهذه الرائحة التي لاتتمتع بها الا كركوك وهذه السماء الداكنة التي تتقطر منها نفطا ودماً وثورة، هي مدينة كركوك ولا كركوك غير كركوك.

(كركوك- آرابخا –التأميم) كلٌ يسميها

بلغته وكلٌ يدعيها لنفسه والمدينة هي تلك المدينة التي إبتلت باكتشاف النفط فيها، فلو لم تُعثَر فيها على النفط لما كانت حالتها الآن سيئة كما هي وما كان الجميع يطالبون بملكيتها، بل لكانت على أفضل حال للأسف الشديد. فكركوك قبل عام ١٩٢٧ كانت مدينة تقليدية كسائر مدن

فرنسيسكو الأمريكية التي توافدت اليها الآلاف من العوائل الامريكية من البيض للبحث عن الذهب، فأصبحوا فيما بعد هم أهل الدار وبدأوا بقتل وتشريد وتعذيب الهنود الحمر أصحاب الأراضي والسكان الأصليين للمدينة.. فكركوك حالها حال هذه المدينة الامريكية..



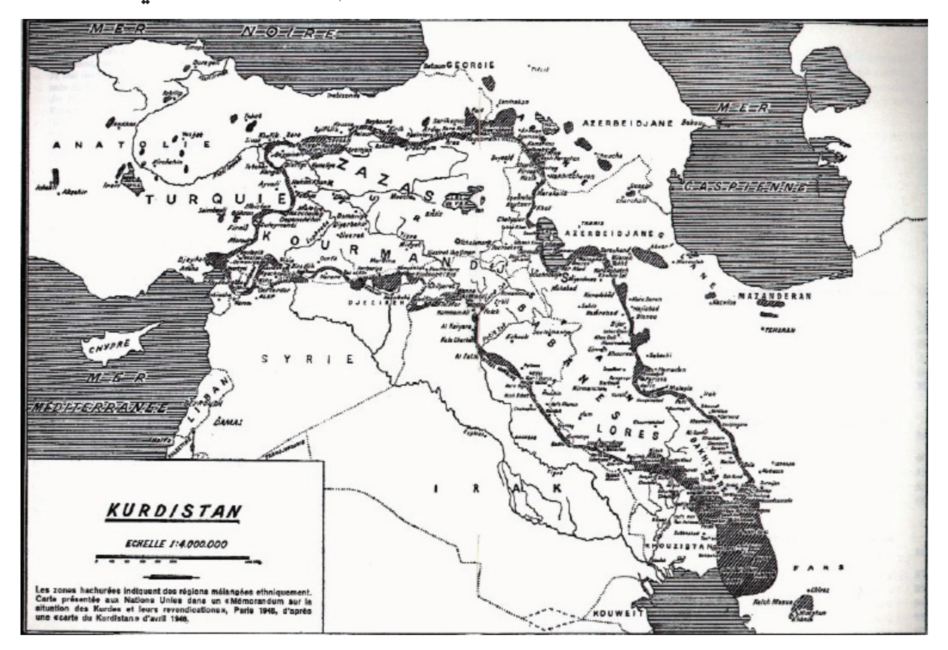
هذه المعمورة، وككل مدينة تسكنها غالبية ما من قومية ما، ولكن بعد اكتشاف النفط في باطن أرضها، بدأ الأغراب يتوافدون عليها لتغيير كفة الميزان السكاني وديموغرافيتها حيث كانت عمليات التوافد في البداية للبحث عن العمل، حالها حال مدينة سان

ففئة تأتي المدينة بحثاً عن العمل في مشاريع النفط وآبارها و مستودعاتها وأنابيبها، هذه كانت ضمن ألوف العوائل التي كانت هدفها البحث عن العمل وشاءت الأقدار ان تحصل على العمل في نفط كركوك وتسكن اطراف المدينة آنذاك، وأنشأوا أحياء وأزقة فقيرة لهم وبدأوا بتربية المواشي

والجواميس، بدليل ان المحلات القديمة في المدينة وكركوك القديمة لم تكن تسكنها العوائل العربية، بل كانت خليطاً من الأغلبية الكوردية والأقلية التركمانية والمسيحيين وعوائل عربية قليلة جدا، فالصورة التي التقطت في نهاية ثلاثينيات

طابع كوردي بأغلبية كوردية تسكنها أناس من العشائر التي لها امتدادات تاريخية في المناطق الكوردية الجبلية..

ودليل آخر على القومية الغالبة وسكانها الاصليين هو ماكتبه البريطانيون في موسوعاتهم، وما دونوها في المراسلات



القرن الماضي وفي احدى مدارس المدينة دليل على التكوين السكاني لهذه المدينة، حيث لم يكن في الصورة سوى نفر قليل من القومية العربية والأغلبية كانوا من الكورد، فالمدينة وطابعها السكاني كما زارها الرحالة كلاوديس جيمس ريج منتصف القرن التاسع العشر، يقول عنها: انها مدينة ذات

الرسمية، حيث لم يذكروا اسم المدينة الا كمدينة كوردية حالها حال السليمانية وأربيل ومهاباد ودياربكر وعامودا، والاحصاءات الرسمية التي اجريت في المدينة واطرافها ودونت على شكل وثائق لاتثبت الا حقائق واضحة وهي ان هذه المدينة كوردية بطبعها وسكانها وعاداتها وتقاليدها وتفكيرها، والكثير من الرسائل

للدولة العثمانية والخرائط التي نشرت قبل اكتشاف النفط لم يتوان عن ذكر المدينة كمدينة كوردية، والدليل القاطع هو الخارطة العثمانية الرسمية التي رسمت فيها المدينة ضمن حدود ولاية شهرزور العراق، وخاصة بعد اكتشاف النفط؟؟

والجواب هو أن التفاوت العددي لكل قومية في كركوك بازدياد واحدة وتقليل البقية وكأنهم توقفوا عن النسل والتزاوج. كان ذلك بأمر من مركز السلطة في بغداد



ودونتها كمدينة كوردية، وختمت الخارطة بختم السلطان العثماني.

هذه كنبذة مختصرة عن الحقيقة الديموغرافية لكركوك، ولكن رب سائل يسأل لماذا تفاوت وتغير عدد القوميات الساكنة في المدينة في كل احصاء اجريت في وبامر جميع السلطات والحكومات المتعاقبة التي حكمت العراق لعقود طويلة مضت، فالسلطة البعثية مثلا منذ شباط ١٩٦٣ تلاعبت بالمدينة وسكانها بلعبة دنيئة، وما مسألة الحرس القومي وقتل الكثيرين من المواطنين الكورد بعد انقلابهم الأسود سوى دليل على ان أهل كركوك أدرى بشعابها،

طبعا لا أحد بمقدوره أن يستنكر وجود آلاف العوائل الوافدة الى كركوك، فهل هناك مواطن عراقي نجيب لم يسمع من قبل بـ (أبو العشرة آلاف) و (أبو ١٧ ألف) وهؤلاء هم عشرات الألوف من العوائل المستقدمة من مشكلة او اعاقة في عملية إسكانهم وحتى بدون سبب في بعض الأحيان، وقُدمت لهم التسهيلات الكافية لذلك.. لماذا؟

اقول لتغيير الطابع الديموغرافي لمدينة

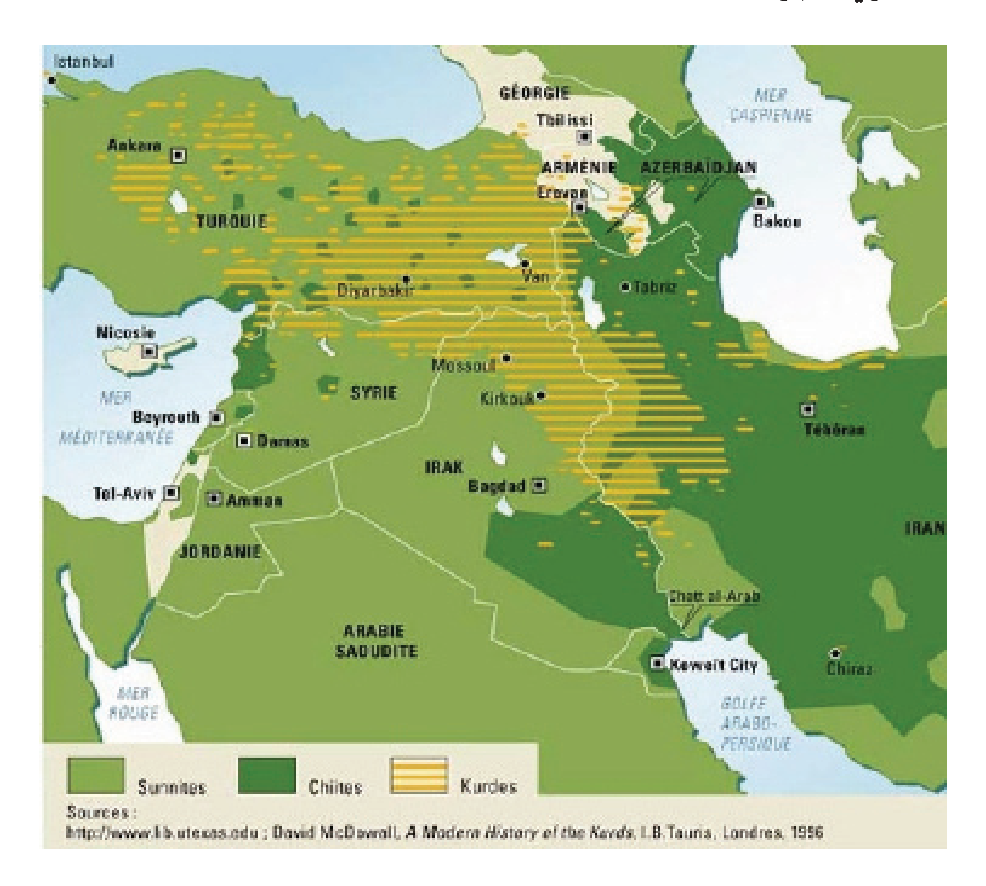


وسط وجنوب العراق التي اسكنتهم السلطة العفلقية في كركوك وأعطتهم المبالغ الآنفة الذكر من الدنانير العراقية لكي يسكنوا في بيوت الكرد ويستخدموا ملابسهم وأوانيهم وأفرشتهم، وخولوا بقتل أي كردي يسبب كركوك، وهذه العمليات استمرت منذ العام ١٩٦٨ بشكل مكثف ومبرمج وخصصت لها ميزانية كبيرة الى العام ٢٠٠٣ أي حتى قبل زوال البعثية بأيام.. وفي الوقت الذي تستقدم عائلة عربية الى كركوك وتسكن في بيت كردي، تطرد في الوقت نفسه

عائلتين كرديتين إما الى جنوب العراق أو الى كوردستان العراق، وهذا ما كانت تسمى بعمليات (التعريب) ويدوّن في التاريخ تحت اسم التطهير العرقي أو التمييز العنصري (الآبارتايد).

عدد من التركمان والمسيحيين.

ودليل آخر على كوردية مدينة كركوك هو الاصرار الكوردي على إجراء عملية الاحصاء في المدينة والاستفتاء الذي يقرر



اذا أردنا ذكر الوثائق والحقائق، فهناك الآلاف منها تثبت ان المدينة حتى منتصف الثلاثينيات من القرن المنصرم كانت تذكر كأية مدينة كوردية تسكنها مع الكورد

فيه مصير كركوك اذ تبقى تابعة للمركز او تصبح ضمن مدن اقليم كوردستان، فليس من المستغرب أن يقوم العرب والتركمان بعرقلة الاحصاء والاستفتاء بحجج ومشاكل

واهية، وهذا ما جعل العالم يفهم حقيقة ديموغرافية كركوك وزيف الادعاءات التي كان يدعيها البعض، فرغم عمليات التعريب التي استمرت لعقود من الزمن الا ان الكورد مازالوا الأكثرية والأغلبية في المدينة، حتى وإن لم تطبق المادة ١٤٠ من الدستور كي تعود المدينة الى الحدود الادارية لها في العام ١٩٦٨.. حيث استقطعت منها عدد من الاقضية والنواحي الكوردية والحقت بمحافظات اربيل والسليمانية وصلاح الدين ونينوى.

فكركوك مدينة كوردية باعتراف الأتراك العثمانيين، حيث ورد في انسكلوبيديا الدولة العثمانية أي ما يعرف بـ(قاموس الاعلام) للامبراطورية العثمانية بأن كركوك مدينة كوردية وعلى هذا الاساس ينظر العالم الى كركوك وليس بالمنظور البعثي الذي طالما عمل من أجل طرد الكورد وجلب العرب الى مدينتهم وبيوتهم وأزقتهم، ونحن إن لم نقل كركوك كوردية فالانسكلوبيديا البريطانية أيضا تؤكد كورديتها، والمؤرخون والمستشرقون والرحالة جميعهم متفقون بأن تلك المدينة كوردية، ومن لا يصدق كلامي هذا عليه أن يعود الى ما دونه كلاوديس جيمس ريج ومينورسكي وباستيل نكتين والعثمانيون قبلهم بآلاف السنين عليه ان يقرأ رحلة هيرودوتس (أبو التاريخ) عندما مرّ بمنطقة النار المقدسة أو النار الأزلية، وكان ذلك قبل ميلاد سيدنا المسيح، فاقرءوا ما يقوله عن المنطقة وسكانها!!

زيف الادعاءات

اذا سنبحث عن كوردية مدينة كركوك في كتابات حزب البعث وتأريخه الطلفاحي، فلاريب ولا جدال أن ما قاله ويقوله الكثيرون من أقطاب الشوفينية العربية وتحت تأثير الموروث البعثي وان كانوا لا يشعرون بذلك .. فكركوك مدينة عراقية وثرواتها للعراق ككل وليس لأهل المدينة، حيث اشترى البعث بأموال نفط كركوك أسلحة ومعدات ودمر بها دول الجوار ومدن العراق.. فلا تستغرب إن سمعت أناس يعيدون هذه الاسطوانة المشروخة تحت تأثير الفكر البعثي، فلا أقولها لكم اعتباطا، سأوضح لكم أكثر، فهؤلاء ذوو ثقافة تاريخية جد محدودة ومخجلة فما يقولونه لا يستندون فيه الى دلائل تاريخية وحقائق الوثائق، بل أقوال والكلام فقط للكلام فلتمت سكان المدينة جوعا وعطشا وفقرا ولتعش العروبة ولتستخدم نفط كركوك لعمران العوجة وتكريت وليمت الكوردي في بيته في كركوك، هذه كانت نظرية البعث حول كركوك حيث لم يخجلوا في ذكرها علنية، فقال طارق عزيز انها مدينة كوردية ولكن عليكم فقط أن تمروا فوقها بالطيارة.... لأن التوافد المنتظم والمستمر الى المدينة

والاغراءات المادية والمعنوية الكثيرة بهدف التغيير الديموغرافي والتلاعب بعدد سكان المدينة وإغراق المدينة بقومية معينة دون غيرها والبدء باخلاء السكان الأصليين كي يحل محلهم أناس وافدون ومستفيدون من القوميات الأخرى، كانت ضمن خطط مبرمجة وسياسة ثابتة وضمن ستراتيجية البعث للمدى البعيد، فالسلطة المركزية والحكومات المتعاقبة التي استلمت دفة الحكم في بغداد وضعت نصب أعينها على ما تخفيه المدينة من كنوز، ظنا منها انها تحمي العروش في بغداد، وهذا ما قاله طارق عزيز لجلال طالباني حيث قال: عليكم أن تذرفوا الدموع على كركوك كما على العرب أن تذرف الدموع على الأندلس.

فكم أتمنى ان يكون للأرض والسماء لسان لينطقا بحقيقة كركوك، وكم أتمنى أن تكون للنار الأزلية في بابا كركر لغة تنطق بها، وتدون سجلا للتاريخ ، لكن أي سجل؟ طبعا ليس ذلك الذي يدونه البعثيون، وأصحاب الأقلام المأجورة، والخبراء المزورون أمثال خيرالله طلفاح الذي زور التاريخ الاسلامي بحاله، ثم نال جزاءه الدنيوي العادل، ومن حذا حذوه لتدوين تاريخ العراق والمنطقة مقابل حفنة من الدنانير..

إن حاملي القلم ومن لم يفكر بعقله وانما بقلبه وجيبه، ودولارات براميل النفط الصدامي المهرب والمهداة الى شلة غير قليلة من الشوفينين والقومجيين، صدقوا ورددوا ما كتبه أقلام البعث المأجورة، فوقع نفر غير قليل منهم في حفرة ثقافة البعث، وباتوا يدافعون عن جميع حروبه وجرائمه المرتكبة ضد شعب العراق ودول الجوار من ايران والكويت.. فأصبحوا ببغاء البعث وتحدثوا عن كركوك من مصر وفلسطين والسودان والاردن دون أن يعرفوا ماذا تعني كلمة كركوك، ودون أن يعرفوا أين تقع المدينة وأدنى معلومات عنها..

لماذا؟ لا شك لتدني مستوى وعيهم وإدراكهم ولخفة حمولتهم الثقافية وعدم ايمانهم بايدولوجية ثابتة في الحياة، لا أتجرأ أن اقول الحياة السياسية، لأنهم إن كانوا ممارسين السياسة في يوم ما من أيام حياتهم فلا شك بأنهم كانوا من بين صفوف الحزب القائد أقصد حزب البعث العربي الاشتراكي المنهار والمنحل .. هؤلاء لم يفكروا بالمنطق السديد؟ بل ضحكوا على ذلك التاريخ الذي يكتب بدماء المؤرخين بعيدا عن ألاعيب الفتنة والشوفينية والعنتريات التي قامت بتدوينه بحد السيف وليس بالقلم، كما رأيناه في عراق البعث. فلا نرى الأصل والجذور والحقيقة في صفحات التاريخ التي دونت في زمن العراق المظلم أو الفترة المظلمة في تاريخ العراق، فجعل هذا التاريخ من حزب البعث العربي الاشتراكي حزبا مثاليا وقوميا

يسعى لخير العراقيين وجعل من بلادهم جنة الله على الأرض، وجعل من شخص صدام حسين قائدا للعروبة والاسلام ومجاهدا حقيقيا يقاتل من أجل الاسلام والمسلمين.. وامتلأت أذان ما سماه البعث بجيله بهذه الخزعبلات التي من المستحيل أن تخرج من أدمغتهم الا ببرنامج تربوي وتوعوي طويل الأمد، وهذا ما نراه في عدة شخصيات اليوم، فهم امتداد لذاك التاريخ الأسود وتحت تأثيرات اللغة والعبارات ذاتها ومتأثرين بالأمثلة القومية والشوفينية عينها، فظهروا اليوم للعيان بحلة جديدة ولكن بفكر بعثي بحت.. فكيف نفهمهم ونوصل الحقيقة الى أدمغتهم بأن كركوك مدينة لها أصحابها الشرعيون، وتوافد اليها آلاف العوائل بهدف تدمير طبيعتها السكانية.. ماذا نقول لأجيال من أصحاب الافكار البعثية، حتى في الدول العربية ودول الجوار بأن صدام وحزبه وسلطته اغتصبوا كركوك عنوة، كما أرادو اغتصاب ايران والكويت!!..

ما فعله البعث بالكورد وكركوكه كثير ومؤلم ولا تُنسى، مع هذا وذاك فالكورد مسالمون بطبعهم حيث قال رئيس برلمان كوردستان العراق، كمال كركوكي حول مدينته "توجد وثائق تاريخية تثبت كوردستانية كركوك، إلا إننا نحترم خيار السكان بانضمامهم إلى إقليم كوردستان أو البقاء مع بغداد، في الاستفتاء الخاص بتحديد مصير المحافظة الغنية بالبترول والمتنازع عليها بين الأكراد والعرب والتركمان".

أنظر الى التسامح الكوردي رغم أن الوافدين طردونا شر طريدة وسلبونا من مدينتنا وأملاكنا وحتى من مقابر أجدادنا، فما زال للوقت متسع لتنفيذ المادة ١٤٠ الخاصة بالتطبيع وإن الأعذار بتاجيلها غير مقبولة، فهناك خطوات جيدة قد تحققت ومن الممكن إستثمار ما تبقى من الوقت للمضي في عملية التطبيع بما فيها إجراء الاستفتاء على مصير المدينة..

فالمناطق الواقعة ضمن إطار المادة ١٤٠ التي تقع كركوك ضمنها لم تقم الحكومة الإتحادية بواجباتها تجاهها، ولا نحن في حكومة الإقليم قادرون على تقديم الخدمات لها، مع ذلك هناك تقدم ملحوظ في عملية التطبيع في تلك المناطق، ونعتقد أنه في حال وجود نوايا حسنة فمن الممكن تطبيق المادة في مواعيدها المحددة، فالاستفتاء المزمع إجراؤه في المهلة الدستورية، الرأي الكوردي يقوله كركوكي "لقد أكدنا موقفنا من هذه المسألة وقلنا إن من يحمل هو أو أحد والديه وثيقة تثبت سكنه في المدينة أثناء الإحصاء السكاني لعام ١٩٥٧ يحق له التصويت في الإستفتاء من دون استثناء بسبب انتماءاته القومية لأن كركوك مدينة متعددة القوميات،

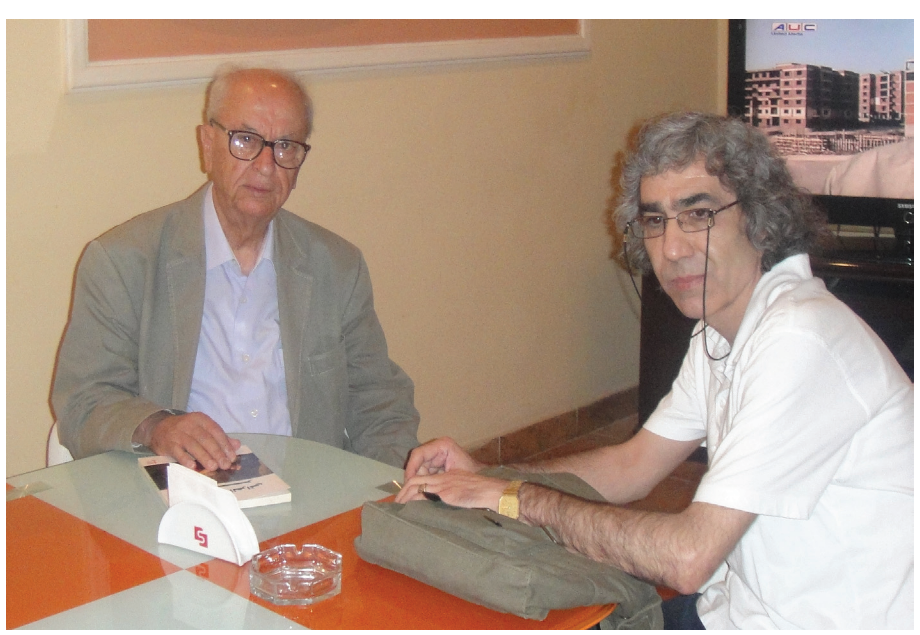
كما أن قرار إعادة الموظفين المفصولين لأسباب سياسية قد صدر، بالإضافة الى صدور قرارات إعادة ربط المناطق الإدارية المنزوعة عن حدود محافظة كركوك.. وقال "نحن نعتقد أن إجراء الأحصاء السكاني في مناطق كركوك ليس مستعصيا، كما أن إجراء الإستفتاء لا يتطلب كل هذا الوقت. واعتبر أن الاستفتاء عملية إدارية من أجل معرفة خيارات السكان في اللحاق بالإقليم أو البقاء مع الحكومة الإتحادية، ونحن سنحترم أي خيار يختاره السكان..

فهذا هو الحال في كركوك.. فالحقائق والوثائق موجودة في المتاحف والمكتبات وأدراج الأرشيف حيث يسرد تاريخ المدينة بكل صدق وامانة، وهناك من يزور الحقائق ويزيف التاريخ ولكنه يخاف من إجراء الاحصاء السكاني أو استفتاءً شعبيا بين سكان المدينة، لأن الحقائق ستظهر للعالم تلك الادعاءات الباطلة التي تمسكوا بها وخدعوا الكثيرين بها طيلة اربعين عاما. سوف ينكشف ذلك عاجلا ام اجلا..

*رئيس تحرير PUKmedia

الكاتب والمفكر اللبناني كريم مروة: جميع الشعوب والأمم ستحقق تقرير مصائرها

حاوره: لقمان محمود



يعتبر المفكر اللبناني كريم مروة من أبرز وجوه الفكر في لبنان، وفي العالم العربي. ساهم منذ أواسط الستينيات من القرن الماضي في الكتابة حول القضايا الفكرية ذات العلاقة بالإشتراكية، وأصبح معروفاً في أوساط اليسار العربي كواحد من أكثر الذين

عالجوا الأزمة في حركة التحرر الوطني العربية، والأزمة الماركسية، التي شيّدت – وبدون شك – قاعدة فكرية متماسكة في عام ١٩٦٤، عضواً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني.

لقد شارك هذا المفكر، منذ شبابه مع



مرحلة متوسطة من عمرها.

توزّعت إهتمامات كريم مروة وانشغالاته، منذ أكثر من أربعين عاماً بمجموعة من القضايا والمحاور والنشاطات والأسئلة الفكرية الكبرى. ففي مطلع عام ١٩٦٢، أختير لكي يمثل حركات السلم العربية في القيادة اليومية لمجلس السلم العالمي، الذي كان مقره في فيينا. كما أنتخب في أواخر عدد من رفاقه من الشباب في قيادة الحزب، في حركة تجديد الحزب (١٩٦٦ – ١٩٦٨) انتهت بتكريس استقلالية نسبية الحزب عن المركز السوفياتي، وبالتأكيد على تلازم الديمقراطية مع الإشتراكية، خلافاً لما كان سائداً – آنذاك – في الحركة الشيوعية.

هذا التجديد في المسار وفي الأفكار يتضحان بشكل جلي في كتابه "نحو نهضة جديدة

لليسار في العالم العربي" الصادر عن دار الساقي ٢٠١٠، والذي أثار زوبعة جديدة، تضاف إلى ما أثاره سابقاً في كتبه ومقالاته. حيث اجتهد في هذا الكتاب اجتهاداً كبيراً في تطوير تعريف "اليسار"، لإخراجه من أزمته العميقة في جوانبها الفكرية والسياسية، التي يعيش فيها اليسار العربي منذ ثلاثة عقود على أقل تقدير.

إلى جانب ذلك كلّه، يعتبر مفكرنا "كريم مروة" من أبرز الفاعلين والمساهمين بقوة في تحريك المشهد الفكري وإثرائه في لبنان والعالم العربي، بحضوره الكثيف، وبآرائه وأفكاره المخلخلة للخطابات المقننة والمكرورة.

في قاعة "بالاس" إلتقينا المفكر الكبير كريم مروة الذي جاء إلى إقليم كردستان العراق، بمبادرة من إتحاد الأدباء الكرد في السليمانية، لتقديم رؤيته الفكرية حول الثورات والانتفاضات العربية وآفاقها، و أزمة اليسار في المنطقة.

في هذا الحوار يقدّم الكاتب والمفكر كريم مروة مجموعة من الأفكار والآراء التي يؤمن بها، ويناضل من أجلها، بغية تقريب القارئ الكردي والعربي من بعض القضايا والموضوعات والآراء القديمة والراهنة.

إلتقيناه في فندق "بالاس" بالسليمانية وسألناه:

*القارئ لأعمالك الفكرية، يدرك أن ثمة وعياً خاصاً لديك بأحوال وظروف الأقليات في الوطن العربي. انطلاقاً من ذلك، كيف ترون القوميات الكبيرة في البلدان العربية، والتي لم تستطع في كل عهود ما بعد الاستقلال، أن تتعامل بشكل صحيح مع الأقليات القومية في بلدانها وخصوصاً في العراق وسوريا، فبعد وصول أحزابها إلى السلطة استمرت حكومتا العراق وسوريا، طيلة العهود المختلفة وعلى امتداد نصف قرن ونيّف في ممارسة أنواع شتى من القمع والقهر والتعريب والاذلال للقومية الكردية، حتى وصل الأمر بالنظام البعثي البائد (صدام حسين) اللجوء إلى الابادة الجماعية، كما حصل في مدينة حلبجه الشهيدة عام ١٩٨٨. والسؤال الذي نريد أن نفتتح به هذا الحوار، ضمن هذا السياق.. أليس للشعوب والقوميات الحق في تقرير مصيرها؟ ألا يحق لهذا الشعب أن يشكل له كياناً مستقلاً في دولة كردية مستقلة؟

- إنّ القوميات الكبرى التي لا تستطيع أن تتعامل مع القوميات الأخرى المتعددة في بلداننا ستسقط هي بالتأكيد، وذلك انطلاقاً من موقفي أنا بأنّ جميع الشعوب والأمم ستحقق مصائرها، بما في ذلك حق الانفصال. وهذا الأمر تحدث عنه ماركس، كما تحدث عنه لينين. وهو في جوهره حق غير قابل للنقاش، لكن ليس الانفصال الحتمي. الانفصال له شروط، وفي

اعتقادي أن مثال العراق، ومثال سوريا مهم جداً.

إن على القومية الكردية أن تأخذ بعين الاعتبار وهي تطالب بحقها – وهو حق شرعي – أنها جزء من العراق. فوجودها في العراق – وجود القومية الكردية – بالغ الاهمية بالنسبة للقومية الكردية بذاتها، وبالنسبة لبقية القوميات، بما في ذلك، وبشكل خاص بالنسبة للقومية العربية الأكبر.

المشكلة أنه حصل خلل أساسي – خطأ اساسي استبدادي من القومية الأكبر، وليس القومية بذاتها. فالناس الذين ينتمون للقومية ليس هم اصحاب الخطأ. الخطأ ارتكب بإسمهم من قبل أجهزة النظام. فالمسؤول عن هذا الموقف هو صدام حسين، وليس الشعب – عرب العراق .

طبعاً هناك بعض الحركات القومية، وبعض الاحزاب القومية، كانت متطرفة في موقفها من الاحزاب الكردية، وأنا كنت منذ البداية ضد هذا الموقف المتطرف المعادي لحق القوميات في أن تكون لها شخصيتها من ضمن الدولة الواحدة.

وفي اعتقادي أنّ ما يجري الآن في العراق - هو نموذج - مهم جداً لبقية البلدان، ليس العربية وحسب بل للبلدان غير العربية أيضاً. ولكن هذا النموذج الذي في العراق بحاجة إلى الرعاية من قبل الجميع. بمعنى آخر، أن على القومية الكردية – على إقليم كردستان، أن يتعامل مع بقية العراق كونه جزء مكوّن وأساسي. لذلك ينبغي أن يكون في إقليم كردستان لغة عربية، وثقافة عربية، إلى جانب الثقافة الكردية، والعكس أيضاً في بقية المناطق.

هكذا تكون القوميات منصهرة فيما بينها. هكذا تشكل وحدة حقيقية تحقق التقدم للعراق، بكل مكوناته القومية، وبكل مكوناته الاجتماعية والثقافية.

*للمرة الخامسة يزور كريم مروة إقليم كردستان العراق. ما الدافع الذي يحركك في هذا الاتجاه – الاتجاه الكردي؟

- يحركني جذوره التاريخية، بإعتباره من أقدم الشعوب في تاريخ المنطقة، وأكثرهم عراقة. ولأنني أعرف الكثير عن ثقافته وتقاليده وطبيعته الخلابة. كما أعرف الكثير عن تاريخه القديم والحديث كشعب مظلوم، أراد عبر تاريخه الطويل أن يعبّر عن شخصيته وعن ثقافته وعن عراقته.

بهذا المعنى لستُ مع الشعب الكردي فقط، بل أنا مع الشعب الأمازيغي، ومع الشعب في جنوب السودان أيضاً. وسأبقى مع كل الشعوب والقوميات المضطهدة في البلدان العربية.

هذا ما دفعني إلى هذا الاتجاه – الاتجاه الكردي، لأن الشعب الكردي شعب مظلوم، حرّم من حقه في أن يكون له دولة.

وهنا أتذكر وبألم شديد آخر دولة

وآخر محاولة لإقامة دولة، كانت جمهورية "مهاباد"، التي دمرت وقمعت وألغيت من الوجود.

لكل ذلك وجدت نفسي مدفوعاً إلى هذا الشعب المظلوم والطيب والعريق معاً.

*وماذا عن الكرد في الأجزاء المتبقية من كردستان؟

- من حق كل الاكراد في أي مكان كانوا من أن يعبروا عن شخصيتهم بكل معنى الكلمة، ولا يحق لأيّ أحد من البلدان الموجودة فيها الاكراد ان يمنعهم من هذا الحق.

لكن كيف يتحقق هذا الحق، وكيف يتجسد.. أقول يتجسد في اللقاء معهم، وتحقيق حقهم المطلق في ثقافتهم، وفي لغتهم، وفي شخصيتهم. أن يكون لهم مكان في المجتمع، أن يكون لهم مكان في الدولة، أسوة بسائر أفراد المجتمع، سواء كان ذلك في تركيا، أو في أيران، أو في سوريا. تماماً مثلما هو في العراق.

*يعاد اليوم طرح ظاهرة هامة في الوطن العربي، وهي ظاهرة الثورات العربية على النظم الاستبدادية.

نود منكم، في هذا الاطار، أن تقدموا لقارئ مجلة "سردم العربي" صورة مختزلة عن اليسار الذي تدعون إليه ودوره؟

- أنا أدعو إلى يسار معاصر، يستفيد من تجربته التاريخية الكبيرة. ومشروعنا – المشروع الاشتراكي – المشروع الماركسي، مشروع عظيم في تغيير العالم. هذا المشروع الذي ارتبط بالاحزاب في الدول الاشتراكية وبالاحزاب الشيوعية وحتى بالاحزاب الاشتراكية الديمقراطية، فشل هذا المشروع فشل بالتجربة، بدليل الاتحاد السوفييتي.. وفشل أيضاً من حيث كون الأهداف الشيوعية على الصعيد العالمي وعلى صعيد بلداننا أيضا فشل في متابعة هذا المشروع العظيم.

لماذا فشلت هذه التجربة.. فشلت لأنها بقيت متمسكة بالمقولات وبالمفاهيم وبالأفكار القديمة، علماً بأن ماركس ذاته يقول بأن الفكر تاريخي. فلكي يستطيع اليسار أن يكمل دوره، ينبغي عليه أن يأخذ بعين الاعتبار أنه في عصر جديد مختلف. وهذا العصر الجديد المختلف له شروط لكي يكون لهذا اليسار دور فيه.

ومع ذلك أطالب اليسار لكي يستعيد دوره، أن يقوم بمراجعة نقدية، يجدد فيها ذاته، أفكاره، وسائط عمله، ويأخذ في الحسبان ما هي المهمات المطلوبة الآن، لكي يكون هو بطل المرحلة، أو أحد أبطال النضال لتحقيقه.

بعد ذلك أطالب بيسار معاصر، مختلف عن اليسار القديم. لذلك أرى أن اليسار المعاصر، ليس الاحزاب السياسية، وليس الاحزاب القومية التي تأثرت بالاشتراكية، وليس كذلك الاحزاب الاشتراكية المرتبطة بالاشتراكية الديمقراطية، وإنما يسار يضم

فئات عديدة موجودة في المجتمع.

علينا أن نكف عن تكرار ما قاله ماركس ولينين عن أن الطبقة العاملة هي حاملة مشروع التغيير. الطبقة العاملة تغيرت طبيعتها، تغير دورها، تغير موقعها في المجتمع بشكل عام. ودخلت إلى عملية التغيير قوى جديدة لم تكن في السابق موجودة في اطار هذا التغيير. وسبب ذلك هو أن انساننا عاش فترة طويلة تحت ظل الاستبداد والقهر.

وهذا القهر والاستبداد و الظلم والاستغلال هو الذي ولّد هذه الأوساط الواسعة جداً، والتي أدعوها الى أن تشكل حركة يسار جديدة تكون للأحزاب القديمة دور فيها، بشرط أن تراجع تجربتها، وأن تنتقل بأفكارها وبرامج عملها إلى العصر الجديد.

★في الوضعية العربية الراهنة، نلاحظ خفوت الرنين القومي في غالبية الخطابات السائدة. برأيك، هل انتهى زمن القوميات؟

- لا.. لم ينته زمن القوميات، بل انتهى الزمن السابق الذي عاشت فيه القوميات، بمعنى الزمن الذي كانت فيه القوميات متناقضة فيما بينها، وجاء الزمن الجديد، الذي ينبغي أن تنصهر فيه هذه القوميات. بمعنى أن تكون هذه القوميات متآلفة ومتحدة في دولة تعترف كلها ببعضها البعض، وأن تساهم كلها مع بعضها البعض في بناء دولهم الجديدة.

القاص والروائي الأردني محمود الريماوي:

عقودا من الزمن تم هدرها من دون التعرف على أقرب الثقافات إلينا

حاوره: لقمان محمود

مما لا شك فيه، أنّ التواصل والتفاعل بين الثقافات، أصبح ضرورة انسانية، تتطلبها طبيعة العصر، والعلاقات الثقافية القائمة بين الشعوب والأمم. من هذا المنطلق جاء حوارنا مع الكاتب الأردني المعروف محمود الريماوي أحد أهم الكتّاب المخلصين لفن القصة القصيرة.

أمضى هذا القاص ردحاً طويلاً من حياته الأدبية وفياً لهذا الفن، غير أنه في السنوات الأخيرة إتجه إلى الرواية، فأصدر رواية "من يؤنس السيدة " ورواية "حلم حقيقي" التي ستصدر قريباً ضمن إصدارات مجلة دبي الثقافية.

عمل الريماوي في الصحافة لأكثر من أربعة عقود، حيث عمل صحفياً في بيروت خلال الفترة ١٩٦٨- ١٩٦٩، كما عمل في الصحافة الكويتية محرراً وكاتباً وسكرتير تحرير



منذ مطلع العام ١٩٧٧، حتى أواخر العام ١٩٨٦.

الى أن انتهى به المطاف في عام ١٩٨٧ للعمل في الصحافة الاردنية، متراوحا عمله بين كاتب

ومحرر، ومسؤول عن التحرير الصحفي. حيث كتب آلاف المقالات في صحيفة "الرأي" طيلة عشرين عاما وبشكل يومي.
هذه المسيرة الصحفية ما زالت مستمرة حتى الآن، فالريماي يكتب منذ عام ١٩٩٨، وحتى الآن مقالات اسبوعية في صحيفة "الخليج" الاماراتية، كما يكتب في صحيفة "الحياة " اللندنية منذ عشرة أعوام بمعدل مادة في الاسبوع. حيث تمّ تتويج هذه المسيرة – الخبرة في صحيفة "قاب قوسين" الالكترونية التي بدأت في الصدور يوم ١٠ تشرين الأول/أوكتوبر ٢٠١٠.
صدرت للمبدع محمود الريماوي عشر مجموعات قصصية منذ العام ١٩٧٢، حيث نال جائزة فلسطين للقصة القصيرة التي ترأس لجنة تحكيمها الشاعر محمود درويش في عام ١٩٩٧ ، كما صدرت هذه الاعمال ضمن الاعمال الكاملة في وزارة الثقافة – عمان ٢٠٠٢.
يقول الناقد ابراهيم خليل عن هذه الاعمال القصصية: إن السر الذي عرف الريماوي كيف يستخدمه بحنكة هو التقاط النموذج الانساني الذي يلتصق بذاكرة القارئ، واللحظة الزمنية المناسبة التي تصلح لأن تكون محورا للقصة.
في هذا الحوار سوف نتعرف على كاتب مبدع وجريء وانساني، يريد أن يهدم الجدار الوهمي بين الثقافتين العربية والكردية، باعتباره جدار مفتعل، يتعلق بتركة سياسية ثقيلة. لذلك – والكلام لريماوي- لا بد من الاستجابة الايجابية لهذا التحدي، لهدم هذا الجدار المفتعل – الوهمي، من أجل السعي للتقريب الثقافي، حيث لا يُعقل أن يكون هناك سعي للتعرف على ثقافات الامم في اقاصي الارض، ولا يتم مثل هذا السعي للتعرف على أقرب الجيران، اللذين هم الكرد.
حول القصة القصيرة، والرواية والصحافة، والادب الكردي وكردستان، كان لنا هذا الحوار مع المبدع الأردني محمود الريماوي.

★ لنبدأ من صحيفة (قاب قوسين) بإعتبارها أول صحيفة ثقافية إلكترونية في الأردن، ماذا عنها؟ ولماذا ؟.:
- لقد استشعرت حاجة موضوعية لإصدار صحيفة ثقافية الكترونية هي الأولى والوحيدة في الأردن، يمكن تلخيص هذه الحاجة بالتالي: أولاً لقد بات النشر الكتروني هو الأكثر حضوراً وتأثيراً، وكان الواجب يملي مواكبة ذلك بإصدار صحيفة تُعنى بالنشر الثقافي الالكتروني.
ثانياً: إن المجلات الثقافية العربية الورقية، يتقلص عددها وتواجه صعوبات في توزيعها وفي الإقبال عليها، مما يطرح النشر الثقافي الالكتروني ليس كبديل وإنما كموازٍ لتلك المطبوعات، وقد كتب الناقد فخريٍ صالح مقالاً في "الدستور" الأردنية حول هذه

الفكرة بالذات، وأورد اسم صحيفتنا "قاب قوسين" كمثال على النشر الثقافي الجديد.
ثالثا: لا يعني ما تقدم ان النشر الثقافي الالكتروني بجملته، يحقق الغاية المرجوة منه . فالصحيح أن العديد من المنابر الثقافية تشكو من غياب سياسة ثقافية واضحة لها، وكثير منها ينشر ما هب ودب، ويختلط القديم بالجديد المنشور.والأسوأ من ذلك أن المواد تنشر فيها في الغالب، بلا أي تحرير أو تدقيق لغوي.. وتحت ذريعة ديمقراطية النشر !.

نحاول في "قاب قوسين" إعادة الاعتبار للنشر الثقافي الالكتروني، باعتمادنا معايير مهنية رفيعة في العمل.وإذ تصدر صحيفتنا في الأردن ، فإن اهتماماتها وكتّابها وقراءها يتجاوزون نطاق الأردن الى العالم العربي، وبالذات الى المغرب العربي. وهي ليست بمشروع تجاري، فصاحبها ينفق عليها عن طيب خاطر من راتبه التقاعدي، من دون مرود مالي.ذلك ان المنابر الثقافية الجادة والرصينة، لا تجتذب إعلانات للنشر فيها خلافاً لمنابر التسلية والمنوعات!.

* هل جاءت كردّة فعل على العقود الأربعة من العمل المتواصل في الصحافة الورقية في لبنان والكويت والأردن؟.

- جاءت الفكرة كمحاولة لاستثمار الخبرة التي تحصل عليها صاحبها من العمل المديد لأربعة عقود في الصحافة الورقية. أحاول استثمار هذه الخبرة الطويلة والمتنوعة وتطبيقها في "قاب قوسين".
كما أني افدت من علاقات الصداقة التي تربطني بمئات المثقفين والمبدعين العرب في مشارق العالم العربي ومغاربه، وكثير منهم يكتبون في" قاب قوسين"، رغم عدم وجود مكافآت مالية للكُتاب.. ففاقد الشيء لا يعطيه. انهم يتعاونون معنا وفاء للصداقة الثقافية، ولثقتهم بالمستوى الذي تتمتع به صحيفتنا.

* بعد كل هذه الأعوام من التجربة في الكتابة، ماذا قدّمت لك الكتابة بشكل عام؟

- لم تقدم لي الكتابة شيئا على المستوى الملموس الحياتي والاجتماعي، بل أخذت الكثير من وقتي وجهدي وأعصابي، ولو وظفت ذلك كله في مجال آخر، لربما كنت "مرتاحاً" آكثر.. لكن الكتابة ساعدتني على اكتشاف نفسي واكتشاف العالم من حولي، والتعرف على بواطن النفس البشرية. وقادتني الى القراءة فلا كتابة بلا قراءة.أنا شخص متأمل بطبعي، كثير التأمل بمظاهر الحياة والوجود وأقلبها على وجوهها الكثيرة، وقد ساعتدتني الكتابة في ترجمة هذه التأملات والسوانح والتدبر العقلي والوجداني الى أعمال سردية. أي أنها حررتني من البقاء سجين الذات.

* المتابع لتجربتك الإبداعية، يلاحظ أنك ما زلت من المخلصين لفن القصة القصيرة، والسؤال: هل أبقت الرواية مكاناً للقصة؟.

- نعم لقد أمضيت ردحاً طويلاً من حياتي الأدبية وفياً للقصة القصيرة التي كتبتها وأنا على مقاعد المدرسة.. غير أني وجدتني في السنوات الأخيرة اتجه الى الرواية على صعيد القراءات أولاً، ثم الشروع في الكتابة الروائية. لقد صدرت لي رواية "من يؤنس السيدة" قبل عامين ، وتصدر لي مطلع يوليو تموز المقبل، رواية ثانية ومن منشورات مجلة "دبي الثقافية" وتوزع الرواية مع عدد المجلة.

لم تحدث هذه الانعطافة نحو الرواية ، تحت ضغط الضجيج حول زمن الرواية وتراجع فن القصة، بل لأسباب لها علاقتي بتجربتي السردية ، وأسباب أخرى ذات علاقة بتجربتي الحياتية. بما يتعلق بالشق الاول فإن الانتقال من عالم القصة الى عالم الرواية هو انتقال يتم في الحقل ذاته، أعني الحقل السردي.من المفهوم والمعلوم أن نطاق الرواية مرن ويتسع لفنون الكتابة الأخرى، خلافا للقصة القصيرة ذات النطاق الضيق، والتي عدّها مع ذلك غارثيا ماركيز بأنها اشرف الفنون وأصعبها.

بما يتصل بالشق الثاني أي الأسباب الحياتية، فإن تقدم المرء في العمر، واختزانه لتجارب إنسانية وفيرة، يجعله يلتمس إطاراً مرناً وواسعاً للكتابة توفره الرواية بطبيعة الحال، أكثر من القصة التي تعتمد التكثيف لا التأليف (التوليف بين أمور عديدة قد تكون متباعدة) والتلميح لا التصريح.

لا يعني ما تقدم أنني نظرياً أسعى الى تفضيل الرواية على القصة، ووضعها في مكانة متقدمة عليها. فلكل كاتب تجربته الخاصة وخياراته الذاتية، التي لا يملك التدخل فيها او توجيهها. ولو كنت اعتمر قبعة لرفعتها احتراما لمن يواصلون كتابة القصة وعلى الأخص زكريا تامر ومحمد خضير.

* مرّت القصة القصيرة العراقية بأربع مراحل، هي البدايات، وكانت في مطلع القرن العشرين. ثم مرحلة النضج الفني والتي بدأت في الخمسينيات من القرن الماضي. أما المرحلة الثالثة، فجاءت في العقد السادس. ثم مرحلة القصة ذات النزوع الإنساني، والتي بدأت في العقد السابع من القرن الماضي. كيف تقيّم أنت مراحل القصة القصيرة في الأردن؟.

- نعم مررنا في الأردن بمراحل مشابهة، بصرف النظر عن تقييم المردود النهائي . فقد بدأت القصة لدينا في مطالع القرن الماضي أشبه بخواطر ولوحات قصصية على يد صبحي ابوغنيمة، الذي كان مقيما في عشرينات القرن الماضي، في دمشق، قبل أن تنتقل الى ما يمكن تسميته بالقصة الفنية عل أيدي محمود سيف الدين الايراني وعيسى الناعوري وغالب هلسا ومحمد سعيد الجنيدي وذلك منذ منتصف القرن

الماضي.
ابتداء من مطلع الستينيات صدرت في القدس مجلة "الأفق الجديد" التي احتضنت موجة الأدب الجديد إبداعاً ونقداً، فظهرت اسماء فخري قعوار ومحمود شقير ويحيى يخلف وغيرهم إضافة الى جمال ابو حمدان وهو من خارج تيار "الأفق الجديد".. كانت القدس آنذاك جزء من المملكة الاردنية الهاشمية، وكانت الصحف الأردنية الأساسية تصدر في القدس مثل "الجهاد" و"الدفاع" و"فلسطين" و"المنار". وبعدئذ ومنذ منتصف السبعينات ظهرت موجة التجديد الثانية ومن رموزها عدي مدانات وكاتب هذه السطور والياس فركوح ويوسف ضمرة وهند أبو الشعر وجمال ناجي وسميحة خريس وسواهم.
ثم تتالت الموجات فمع عقد التسعينات ظهرت موجة جديدة من رموزها بسمة النسور وسعود قبيلات وأحمد النعيمي وجميلة عمايرة وأميمة الناصر وجواهر الرفايعة وسواهم. ومع ثورة او فورة الانترنت، فإن جيلاً قصصياً بدأ يظهر وينشر نتاجه على الشبكة العنكبوتية، ويصعب حصر الأسماء في هذا المجال.
* للرواية جماليات مكانية وزمانية، على صعيد السرد والحوار واللغة، ماذا عن رواية محمود الريماوي "من يؤنس السيدة"، والتي كانت مرشحة – وبقوة – لجائزة "بوكر" العربية في دورتها الثالثة؟.
- أجد بعض الحرج في الحديث عن منجزي. "من يونس السيدة" هي عملي الروائي الأول،وقد تخيّرت فيه بناء فنياً بسيطا ولغة مباشرة، بنوع من الاستجابة للتحدي الذي يفيد أن البساطة التعبيرية والفنية قد تكون أصعب من غيرها من الأساليب التعبيرية. لم يكن الأمر محض قرار، بل نجم عن قناعة وحاجة بالتماس طرائق تعبير مختلفة، صحيح ان الكاتب لا يملك أن يغير جلده ، وأن الكاتب كما الانسان هو الأسلوب حسب المثل الفرنسي، غير انه داخل الاسلوب الواحد يمكن ان تكون هناك طرائق شتى. فضلا عن ان موضوع الرواية ومضمونها فرضا هذا الاسلوب.
ربما تمتاز الرواية ببعض الطرافة فهناك ثلاث بطلات احداهن: سلحفاة. وهي حيوان غريب عن البيئة المكانية (الأردن). يتم الحوار بمزيج من العامية والفصحى، وقد لجأت الى طريقة شرح كل كلمة عامية بصورة مباشرة ما أن ترد.وهي طريقة غير معهودة لاقت رضا البعض، واستغراب البعض الآخر.
* وماذا عن (إخوة وحيدون) و (كل ما في الأمر) بإعتبارهما نصوص خارجة عن التجنيس القصصي والروائي؟
- نعم دعني اقول إني كطائفة كبيرة من المبدعين، اتجهت في بادىء الأمر لكتابة النثر الوجداني ثم الشعر المنثور وقصيدة النثر، ولم يطل بي العهد حتى اكتشفت

نفسي في القصة القصيرة. لكن خيطاً ما رفيعاً ومتيناً ظل يشدني الى الشعر الطلق،"اخوة وحيدون" يضم نصوصاً من هذا النوع، أما الكتاب الثاني "كل ما في الأمر"،فيضم مقالات ونصوصاً إبداعية. دعني اقول إني كتبت آلاف المقالات فقد أمضيت اكثر من عشرين عاماً في كتابة تعليق يومي في "الرأي" الأردنية. وأكتب حالياً ومنذ العام ١٩٩٨ مقالاً أسبوعيا في صحيفة "الخليج" الإماراتية.وكتبت لأكثر من عشر سنوات بمعدل مرة في الأسبوع في "الحياة" اللندنية.اضافة الى مطبوعات ومنابر أخرى. وحين تداهمني حالة اقرب الى الشعر فإني لا أتوانى عن الكتابة، لكن ذلك يحدث بصورة متباعدة ، فالسرد هو خياري وحقلي وملعبي.

* في عالمنا هذا تضاءلت إمكانيات الإحتكار الثقافي والمعرفي، وأصبح لكل مجتمع أو شعب أو أمة خطاباً خاصاً، يعبّر عن شروط الحداثة فيها. والسؤال: كيف ينظر الكاتب محمود الريماوي إلى خصوصية الأدب الكردي الحديث؟.

- هذا سؤال صعب، يمتحن إطلالتي على الأدب الكردي الحديث. ماذا بوسعي القول في هذا المجال؟ من الأدباء الأكراد قرأت بلند الحيدري وسليم بركات وياشار كمال بالعربية بالطبع. قرأت عدداً كبيرا من النصوص الشعرية والقصصية المتفرقة، في صحف ومجلات عربية على امتداد أربعين عاماً. يندر أن تجد مبدعاً عربياً وأقصد خارج العراق، مُلماً بالابداع الكردي وذلك لأسباب موضوعية وهي قلة الترجمات الى العربية. نعم هناك ربما كتب غير قليلة العدد تضم مختارات من الإبداع الكردي، لكن قلما يقع القارئ على رواية كردية او مجموعة قصصية أو شعرية لأديب كردي. نقرأ مختارات لشيركو بيكه س ويستوقفنا جمالها وشفافيتها، ونسمع بمحمد اوزون وعبدالله كوران وجكر خوين وعثمان صبري ودلشا يوسف ولطيف هلمت وقباد جلي زادة ومحمد موكري وعبدالله بشيو وجمال نبز وسواهم، لكن كتبهم غير متوفرة بالعربية. ولعلها متوفرة في لغات أخرى اكثر من العربية.

لنعترف الآن بأن هناك جداراً بين الثقافتين العربية والكردية، جدار مفتعل.. أجل، لكنه قائم للأسف الشديد، ويتعلق بتركة سياسية ثقيلة تقوم على المرارات وسوء الفهم والأفكار المسبقة، وهذا تحدٍ ينتصب أمام اهل الثقافة والإبداع. لا بد من الاستجابة الايجابية لهذا التحدي بهدم هذا الجدار، والسعي الدؤوب للتقريب الثقافي بأفق انساني منفتح وديمقراطي، فلا يُعقل ان يكون هناك سعي للتعرف على ثقافات الأمم في أقاصي الأرض، ولا يتم مثل هذا السعي للتعرف على أقرب الجيران بل الشركاء في المنطقة ، وفي وشائج التاريخ والجغرافيا والحضارة.

★ ثمة ثقافة أقليات بين الثقافة العربية (ومنها ثقافة الكرد)، كيف ترى المشهد الثقافي الكردي ، في إطار الثقافة العربية؟.

- أراه بصورة إجمالية كعنصر تنويع وإغناء لثقافات المنطقة وشعوبها، ومن المؤسف ان لا تنشط دراسات في الحقل الثقافي العربي، وخاصة في ميدان النقد الأدبي لهذا الإبداع ومواكبته. من الواضح الآن أن عقودا من الزمن تم هدرها من دون التعرف على أقرب الثقافات الينا، وذلك بسبب كوارث سياسية نجم عنها تباعد في الاهتمامات، ورؤى مسبقة ، والخلط بين الاعتبارات السياسية والثقافية مع تغليب الأولى، مع القناعة بأن الثقافة الكردية ذات صلة وثيقة بالثقافة العربية وبالفضاء الآسيوي والإسلامي. الآن في عصر الثورات العربية ، فإن هناك حاجة ماسة لإعادة النظر في أوجه القصور الثقافي بغية استدراكها، ومنها على الخصوص هذا التباعد المؤسف بل المخجل بين الثقافتين ، هذا مع القناعة بأن الإبداع العربي يصل الى المجال الثقافي الكردي ومنذ أمد غير قصير.

★ منذ آلاف السنين وكردستان العراق متميزة بجبالها الشاهقة، ووديانها العميقة، وصخورها العملاقة، وطبيعتها الأسطورية، ما الذي يشدّك إلى كردستان في الوقت الراهن؟.

- سؤال جيد وكنت أرغب أن يتم طرحه عليَ فشكراً لك أخي لقمان.

ابتداء أقول يشدني الفضول الإنساني لقومية عريقة تشاركنا المكان وتشاطرنا التاريخ.عرفت أكرادا ً أفراداً هنا وهناك، لكني لم أعرف المجتمع الكردي والحياة الكردية.حواجز وهمية وسميكة حالت دون هذا التعرف حتى الآن على أقرب الشركاء. وهو ما يجعلني أشعر بتقصير فادح لا بد من تداركه، خاصة أن العمر يتقدم بالمرء دون أن يشعر.

الأمر الثاني: هو الحاجة للتعرف على الثقافة الكردية عن قرب وبالاحتكاك المباشر، بروح منفتحة ورغبة عميقة. نعرف شيئا عن الفولكلور والرقص الشعبي الكردي، دون أن نعرف عن المسرح والفن التشكيلي والسينما إلا القليل، فضلاً عن الإبداع الادبي. من ملاحظاتي عبر العمل الصحفي أن هناك نشاطاً ثقافياً كردياً واسعاً في المهاجر الأوروبية، ولا أعرف مدى الافادة من هذا النشاط في الداخل، في تطوير الثقافة الكردية في موطنها.

الأمر الثالث تشدني الطبيعة الخاصة لكردستان: الجبال والوديان والشلالات والتي اطلعت عليها في صور وأفلام تلفزيونية. لكن على عظمة الطبيعة، هناك الإنسان أولا ألذي يستحق ويتعين التعرف عليه عن قرب وعن كثب، كأخ في الانسانية وفي المصير البشري، وكشريك في المنطقة وفي المستقبل، وكطرف تحمل عذابات تاريخية وبرهن بجدارة على حقه في الوجود.

★ ماهي قنوات الحوار التي من شأنها تجسير التواصل بين الثقافة العربية والكردية

- هذا ايضاً سؤال على جانب من الأهمية. هناك قنوات كثيرة في مقدمتها وسائل الاتصال المرئية والمسموعة،مع ملاحظات أن وسائل الاعلام الالكترونية باتت هي الأكثر حضوراً وتأثيراً. هناك الجامعات والمؤسسات العلمية وأهيمتها ليس بمجرد عقد ندوات دون التقليل من أهمية ذلك، بل في انفتاح مناهج التدريس على الثقافة الكردية. وهناك بعدئذ الاتحادات والمؤسسات الثقافية ابتداء من وزارات الثقافة الى المؤسسات والاتحادات الأهلية ، وفي قناعتي ان المبادرات الاهلية وحتى الفردية ذات أهمية كبيرة في هذا المجال، بدلاً من انتظار التقارب على المستويات الرسمية، التي تشكو دائماً من البطء والبيروقراطية.

★ أخيراً، ما الذي لم يتحقق بعد من أحلام محمود الريماوي؟.

- الذي لم يتحقق بعد هو تفرغي التام للكتابة الابداعية. المشكلة هي في تعلقي بالصحافة الذي لم أجد "علاجاً" له! ، فما أن تخليت عن آخر عمل صحفي لي كرئيس تحرير لصحيفة "السجل" الأردنية، حتى فكرت بإصدار "قاب قوسين" وقد أصدرتها بالفعل بجهد فردي.

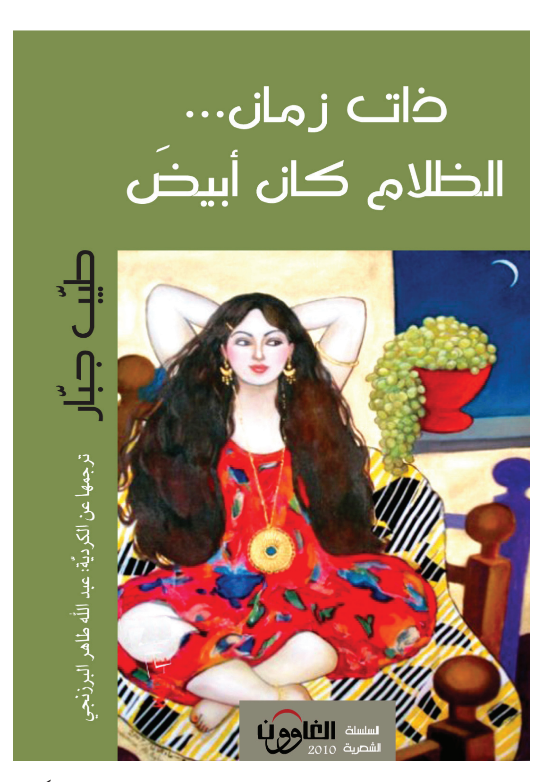
لكنني مهجوس بهواجس انسانية أخرى.. يفتنني السفر، ثمة بلدان عديدة لم أزرها وأشعر أنها تناديني وتدعوني. ومن أحلامي التي لم تتحقق أنني لم أحظَ أبداً بتجربة الإقامة في الغرب ولو لسنة واحدة، وهذه خسارة كبرى.

الشاعر طيب جبار: لم أكن معروفا كشاعر إلا بعد صدور مجموعتي الشعرية الأولى



حاوره: لقمان محمود

إنّ تجربة الشاعر طيب جبار تنطوي على معالم خاصة، ووعي مختلف ، اشتغل عليهما بهدوء شديد، كي تقول خصوصيتها المرتبطة أساسا بفهم الشاعر و أفكاره العميقة تجاه كل شيء. فقد استطاع هذا الشاعر أن يسجل في مجموعتيه الأخيرتين (يوم أموت) و (ذات زمان الظلام كان أبيض) إضافة حقيقية وهامة للحركة



الشعرية الراهنة في كردستان العراق.

فالشاعر كتب و يكتب وفقاً لايقاع أحاسيسه، وما تقدمه هذه الاحاسيس من رؤى وطروحات مما تحمله الحياة الجديدة ، بمنطق يتسلل من خبرة شعورية مبدعة ، ضمن سياق تجربة حقيقية للشعر، تجسد صوت الشاعر، وتثبت ملامح خصوصيته. عن الشعر، وعن أعماله الأخيرة، وعن إشكالية الأجيال الشعرية..كان لنا هذا

الحوار:

★ صدرت لك مؤخراً ، مجموعة شعرية بعنوان (يوم أموت) ، حدثنا عن هذه المجموعة ، وعن موقعها في الشعرية الكردية ؟.

- جاءت قصائد هذه المجموعة بعد فترة سبات دامت أكثر من عقدين من الزمن، توقفت خلالها عن كتابة الشعر لأسباب ذاتية و موضوعية قاهرة. ورغم ذلك لم انقطع عن متابعة الشعر و قراءته. قرأت دراسات كثيرة عن فن الشعر و أصوله، و تعمقت كثيراً في مفهوم الشعر و المدارس الشعرية منذ أفلاطون و أرسطو و الى اليوم.

عدت إلى كتابة الشعر مرة أخرى منذ أواسط سنة ٢٠٠٨، و بدأت بالكتابة بأسلوب آخر و برؤية أخرى تختلف عما كتبته في السبعينيات و الثمانينات من القرن الماضي، و بخلاف ما هو سائد في المشهد الشعري الكردي الحالي.

مجموعتي الشعرية (يوم أموت)، تتضمن مجموعة قصائد طويلة و قصيرة، كتبت بوعي شعري خاص بين عامي (٢٠٠٨- ٢٠١٠). أما عن موقع هذه المجموعة في الشعرية الكردية ، فأحب أن يوجّه هذا السؤال الى النقاد و القراء الجادين.

⋆ و ماذا عن (ذات زمان .. الظلام كان أبيض)، الصادرة عن منشورات الغاوون بلبنان ؟وماذا عن ترجمتها وطباعتها خارج كردستان؟

- المجموعة المترجمة الى اللغة العربية (ذات زمان .. الظلام كان أبيض) و الصادرة ضمن منشورات الغاوون في بيروت، تتضمن سبع قصائد و كلمة للمترجم، أربعة منها من القصائد الجديدة المكتوبة في السنوات الأخيرة و الثلاثة الأخرى من القصائد تعود لمرحلة الثمانينيات من القرن الماضي.

أما عن كيفية ترجمة هذه المجموعة و طبعها فالحديث يطول، سأحاول إيجازه كما يلي: أرسلت قصيدة الى جريدة الغاوون الشهرية و لاقت القصيدة إعجاب هيئة التحرير، حيث طلبوا مني بعد ذلك إرسال مجموعة من قصائدي مترجمة الى العربية. وهكذا كلفت صديقي المترجم البارع الاستاذ (عبدالله طاهر البرزنجي)، حيث قام بترجمة القصائد السبع، و من ثم تم طبع القصائد من قبل دار الغاوون كمجموعة شعرية، علماً بأني لم أكن على معرفة مسبقة مع أصحاب الدار ، و لم يكن لي أية أتصال معهم قبل ذلك، و حتى هذا اليوم لم ألتق بهم و كل أتصالاتي معهم تتم عن طريق البريد الالكتروني.

⋆ لهذه التجربة الشعرية حظ كبير من الحضور النقدي و القرائي، ترى ماهو السبب برأيك ؟

- أنا لم ألمس حضورا نقديا و قرائيا لتجربتي الشعرية لدى الادباء و القراء الكرد، حيث لم يكتب عن تجربتي سوى دراسة واحدة جادة ، و الكاتب ليس بأديب أو ناقد، بل هو يعمل في مجال الفكر و الفكر السياسي. أما الحضور النقدي و القرائي لدى الأدباء و القراء العرب فهي جيدة، حيث كتبت عشرات من المقالات و الدراسات النقدية من قبل نقاد معروفين حول مجموعتي الشعرية، كما و عقد الاستاذ (د.فائق مصطفى) أستاذ النقد الادبي في جامعة السليمانية ندوة حول هذه المجموعة، و عقدت ندوة نقدية أخرى من قبل الناقد العراقي الاستاذ (بشير حاجم) في الشأن نفسه. و من خلال مشاركة دار الغاوون في معرض بيروت الدولي للكتاب في أواخر العام الماضي و من خلال متابعتي

للموقع الإلكتروني للدار أيام المعرض، ظهر أن مجموعتي كانت من بين الكتب العشر الأوائل الاكثر مبيعاً بين إصدارات الدار.

* الطفولة كنز لا ينضب ، و شجرة لا تشيخ فينا .. ماذا عن عالم الطفولة، وعن المكان الأول في (ذات زمان .. الظلام كان أبيض)؟.

- نعم، الطفولة كنز لا ينضب، و ذاكرة فترة الطفولة ذاكرة قوية، وحياة فترة الطفولة حياة بريئة منطلقة. نعيش الحياة بكل ما فيها من المرح و الفرح و التمتع بالجمال المدهش لأي شيء نراه أو عمل نمارسه لأول مرة. قصيدة « ذات زمان ..الظلام كان أبيض « ، قصيدة تربط مرحلة الطفولة بالحاضر، الطفولة البريئة التي نفطر فيها صباحاً على إناءٍ من السقسقة مع الشاي، و و ظهراً نتغذى مرقة الفرح، ومساءً نتعشّى البيض المقلي بوميض القمر. أما الآن فنحن كالدود نأكل ثلاث وجبات من الطين، نتناوله و لانعرف طعمه أو لونه أو رائحته. هي قصيدة تقارن بين فترة الطفولة التي ضاعت من دون رجعة و الحاضر التعيس. قضيت فترة طفولتي في القرية و أنتقلت الى المدينة عندما كنت في السادس الابتدائي و كنت أتردد الى القرية و لا أزال أتردد إليها بحثاً عن معالم طفولتي بين خرائبها و جداولها و سهولها و هضباتها.

لكن هيهات!! فالقرية قد دمرت على يد النظام البعثي في عام ١٩٨٥، وما زالت كما هي بعيدة عن يد العمران.

* مجموعة (يوم أموت) تنطلق من الداخل – من الذات ، لتشتبك مع عناصر الوجود و العالم .. والسؤال : كيف يفرق الشاعر (طيب جبار) بين الذاتي و الموضوعي ؟.

- كل فنٍ أصيل هو ذاتي، و التعبير عن الذات فنياً يتضمن الصدق و الدهشة، نعم مجموعة (يوم أموت) تنطلق من الداخل، ففي البدايات كانت تشغلني هموم الوطن و القومية و اللتين شكّلتا أساس هميّ الابداعي . و كما باقي الكتاب من جيل السبعينيات و الثمانينيات من القرن الماضي، كنا نعمل من أجل التفريق بين الذاتية والموضوعية، فالذاتية تعني التعبير عن الهموم الذاتية بالإستناد على المواد الحسية في الكون و الذات الانسانية، أما الموضوعية، فتعني أن تشتغل على هموم الجماعة و تجعلها موضوعاً لعملك الفني بالإستناد على المواد و الظواهر الحسية في الكون سواء كانت حية أو جامدة. أنا الآن مبتعد نوعاً ما عن هموم الجماعة و أعبّر من خلال ذاتي عن ما يدور في خلدي و عن ما يدور لدى الجماعة.

* تعبيرك السياسي في قصيدة (دعاية إنتخابية) تعبير ساخر، هل هو متأتٍ من رؤية سياسية مختلفة، أم من شعرية

مختلفة ؟.

- التعبير السياسي في قصيدة (دعاية انتخابية) متأت من رؤية سياسية مختلفة و رؤية شعرية مختلفة، أنا لا أهتم بالانتخابات التي تجري عندنا، لأنها لا تفتح الطريق أمام تغيير الوضع في أقليمنا. عندما بدأت الدعاية للإنتخابات النيابية في الإقليم اواسط عام ٢٠٠٩ ، بدأت الدعاية من (١تموز/يوليو ٢٠٠٩) لغاية (٢٣تموز/يوليو ٢٠٠٩)، في بداية العملية لم يكن في ذهني أي شيء حول كتابة القصيدة، و لكن الضجة و الشعارات و اللافتات و الوعود المتكررة لدى كافة الاحزاب المشاركة خلال الأيام العشرين الاولى، ضجرتني و ضاقت بي و كنت اتعجب من سلوك الناس و الأحزاب و أساليبهم الطفولية البعيدة عن كل نشاط انساني مدني لأجراء الدعاية و كانت مدينة السليمانية على شفا الانفجار، ففي الأيام الاخيرة للعملية اللإنتخابية أتتني إشراقات لكتابة قصيدة هجائية، حيث سخرت فيها من الأحزاب والكيانات السياسية و الجماهير المخدوعة أيضاً و أكملت القصيدة بعد عدة أيام من إنتهاء الانتخابات، و القصيدة قصيدة ساخرة لا تتحدث عن الانتخابات عدا السطر الاول منه والمأخوذ من فم السياسيين بالدرجة الاولى. حيث كتبت بعد هذه الاسطر الاولى جملاً و صوراً شعرية بعيدة كل البعد عن وضع الدعاية الانتخابية. هذه الصور الشعرية ليست فيها رؤية سياسية واضحة ومحدودة، بل هي رؤى شعرية جميلة قائمة على جمالية مضادة للذوق العام . تم ذلك بحيلة شعرية استطعت من خلالها جمع كل القوائم الإنتخابية في قائمة واحدة، ساخرا منهم و من العملية الإنتخابية.

⋆ بعيدا عن السياسة وعن العمليات الانتخابية، حدثنا عن المناخ الثقافي الذي كان سائداً عندما بدأت تجربتك الشعرية ؟ و حدثنا عن المصادر التي ألهمتك الشعر ؟.

- عندما بدأت بكتابة الشعر في بداية السبعينيات من القرن الماضي كان الجو الثقافي في بيتنا لا بأس به، حيث كان شقيقي الاكبر يقتني الكتب الكردية، بالاضافة الى الصحف والمجلات (باللغتين الكردية والعربية) . في هذا الوسط بدأت أقرأ أشعار (بيرميرد ، مولوي ، كوران ، ولي ديوانه) .

ايضا كان لصدور مجلة (بيان) و صحيفة (هاوكاري) تأثير كبير عليّ، لما كانت تتضمنه من قصائد وقصص ومقالات أدبية متنوعة.

كما أنني تأثرت في بداياتي بأشعار مجموعة من الشعراء أمثال: بدر شاكرالسياب ، محمود درويش ، بلند الحيدري ، محمد الماغوط و فاضل العزاوي .كما تأثرت بقصائد ناظم حكمت و آراغون و مايكوفسكي و نيرودا

... و غيرهم من شعراء العالم.

* و ماذا عن جيلك الذي تنتمي إليه ؟

- أنا لا أنتمي الى أي جيل، و لا أوافق صديقي الناقد (عبدالله طاهر البرزنجي) بأني من جيل السبعينيات، لأنني لم أواكبهم نشراً.

صحيح انني قد نشرت قصيدتي الاولى في عام ١٩٧٣ ، و شاركت في ندوتين شعريتين سنة ١٩٨٧، لكن رغم كل ذلك لم أكن معروفاً كشاعر إلا في أواسط سنة ٢٠٠٨، وبالتحديد مع صدور مجموعتي الشعرية الاولى (مرثية الرماد).

فأنا يا صديقي، الشاعر الوحيد الذي بدون جيل محدد، لذلك أغرد خارج السرب، بإعتباري من جيل ٢٠٠٨، و هذا الجيل يخصني وحدي فقط و لا يشمل أي شاعر أو كاتب آخر .

* من واقع نظرتك على المشهد الشعري في كردستان العراق، هل استطاع النقد أن يواكب الحراك الشعري؟.

- كلا، لم يستطع النقد مواكبة الحراك الشعري. هناك أناس كثر يكتبون في النقد و لكني أحبذ الكتابات النقدية لبعض النقاد و هم قليلون لايتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، أما البقية الباقية فيكتبون

نقدا انشائيا مكررا ، يدور أغلبه حول حياة الشاعر، بدل التركيز على النص الابداعي وإضاءته.

* بناءً على ذلك، ما الذي تراه لافتاً في المشهد الثقافي الكردي، سلباً كان أم إيجاباً ؟.

- نتيجة للظروف السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية التي مرت و تمر على هذا الشعب ، فأن الثقافة الكردية لم تستطع موازاة و مواكبة المشهد الثقافي لشعوب المنطقة و العالم .

لذلك لم تنجح الثقافة الكردية في ابراز هويتها .

فإذا ما قارنا الثقافة الكردية مع ثقافات الشعوب المتقدمة، سنرى أنها ما زالت في مرحلة «الحبو»، و إذا ما قارنا الثقافة الكردية مع ثقافات شعوب المنطقة فنحن لم نبلغ بعد مرحلة «سن الرشد»، و المشهد الثقافي حالياً في حالة فوضى و حرية غير مشروطة في الطبع و النشر، و هذا غير جيد، حيث يؤدي الى إحداث البلبلة لدى المثقفين و القراء وصعوبة المتابعة و القراءة و صعوبة تفريق الغث عن السمين . هناك لغط و إنشاء كثير و بهلوانيات و نصوص فكرية و نقدية مقتبسة و منفوخة، ونصوص إبداعية قليلة و دراسات بدون منهج فكري أو نقدي. لنأخذ الشعر على سبيل المثال، حيث إن هناك أكثر

من ٥٠٠ شخص في كردستان العراق يكتبون الشعر وينشرون و يطبعون الدواوين الشعرية و لكن الذين يكتبون نصوص شعرية ابداعية لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين.

* لكن ألا ترى معي أننا ما زلنا بحاجة الى الشعر ؟

- مادام الإنسان موجود فالشعر موجود . ستبقى البشرية بحاجة الى الشعر، بإعتباره غذاء روحي يحتاجه الانسان سواء لطرد القلق و الضياع أو لاقامة توازن بين العالم الخارجي و الداخلي . لكن كثرة الشعراء وكثرة الشعر الركيك و الغامض و البعيد عن الإبداع، أدى الى أبتعاد الناس عن قراءة الشعر هنا و في جميع دول العالم، لأن الشعر الحقيقي المبدع قد ضاع بين أكوام مكومة من قاذورات شعرية منتشرة في كل مكان. والمتابع الحقيقي للشعر سيلاحظ ذلك في الصحف و المجلات و المواقع الألكترونية العربية و الكردية بكل وضوح.

نماذج منتخبة من دواوين الشاعر:

١- دعاية انتخابية:

القائمة (..........) :
نحن نظن ، يمكن ..
ان نكحل عيوننا
برغوة الاهتزاز.
نجعل قطعة من الضباب
حجابا.
لزاد السفر،
نملأ جيوبنا
برائحة الالتفات.
نضع الامثال و الحكم
في ماعون،
نأكلها بالسكين و الشوكة
كفاكهة لذيذة.
* * *

القائمة (.........) :
نحن نستحسن، ان امكن ..
زيارة النهر المنسي،
ايقاظ الندى الناعس،
للنبع.
أن نسأل عن صمت
قبيلة (الخرير).
نغسل الحزن النحيف للقوم
بأحلام الشتلات.
عند الرجوع،
ننزع قشرة العفونة
ونشرب حفنتين
من ماء الخلود.
القائمة (.........):
نحن نظن، لايمكن ..
ان تكسب الحصاة
ثقة الزلازل،
ما لم .. تنسق
رقصة النعومة
مع جسد الماء.
لتلافي لعبة الغور،
يجب أن تزدان
مع الاطراف
مائدة الرهان المكتوب.
***
القائمة (.......) :
نحن نستحسن، ان امكن ..
أن نعدل..
الالم المقوس للشجرة

برحيق خيال الغابة.
تتضوء..
بغبار سموم الحنان.
نجعل تويجات الشفقة
ميدالية
لصدر الحبيب.
نداوي الجرح الابيض ..
للاسطورة،
بدقيق فحم الكلمة.
من اجل الحفاظ
على توازن جدران الروح،
تتناول قليلا
من فيتامين الاسس و الجذور.

القائمة (........) :
نحن نظن، ان امكن ..
بدل ان نعلق
لافتة الضوء الاسود،
نضع تحت رؤوسنا
وسادة الضحك.
نطلق ..
قافلة الشمس،
قطار الغيوم،
في ارض البور ..
للظلام الوهاج.
نلف حبل النسيان،
نمزق قربة الخمول،
ننفخ في بالون الحظوظ.
***

القائمة (.......) :
نحن نستحسن، ان امكن ..
حين نذهب في سفرة سياحية
أن ننصب خيمة التسامح.
بناي القصب
نعزف موسيقى العتاب الدافئ.
ولانقرع ..
طبول الاضطراب،
بعظم الجبل.
لا نجعل الارباك
شعارا ..
لحراس السقائف و المزارع.
***
القائمة (.......) :
نحن نظن، يمكن ..
بباقة من البشرى
نكنس السأم.
نزرع ازهار الشهيق،
في سياج
رياض التقهقر.
نطلق فراشات القبل ..
في سماء خد الحبيبة.
بنزهة الايادي و الاصابع
ندع شمامة الصدر،
تنهمك في رقص الاجنحة.
القائمة (......) :
نحن نستحسن، ان امكن ..
دون الالتزام
بالقوانين و التعليمات،

ان نعيد ترتيب بيتنا.
بزفير القفزة،
بعضة الانقضاض،
نهيئ انفسنا.
قبل أن نذهب،
الى العرس المخضب بالدماء.
للمرة الاخيرة،
نطلق نهر الحليب.
ان لم نشم ..
رائحة حرقة الندامة،
ان لم يطلقوا ..
الطائرات الورقية،
ان لم يزهر ..
سهل الجنوب
زهورا بيضاء.
عند ذاك،
و استنادا الى ..
حكاية قراءة الحظ ،
نعد الكورس ..
و فرقة الموسيقا،
ننشد انشودة (كش ملك).
كافة القوائم :
نحن نظن، يمكن ..
نحن نظن، لا يمكن ..
نحن نستحسن، ان امكن ..
نحن نستحسن، ان لم يمكن..
نحن نظن،
نحن نستحسن،
نحن،

نحـن،
نح ...
نح ...
*ملاحظة : القارئ مخول ان يضع رقم و اسم اية قائمة مقابل اي مقطع يشاء.

٢- أحك لي:

أحك لي
أحك لي حكاية.
حكاية كيفية القاء القبض
على عدم القدرة
واختطاف الخسارة.
حكاية خطة اخفاء الخذلان
وتوديع الصخب
ونصب الكمائن للانفلات.
حكاية تشغيل الحيوية
وسلخ الكسل.
حكاية سلب الامان
والاستيلاء على العجز.
حكاية اكتشاف درب
لاطلاق سراح الراحة.
حكاية تقويض طود التجاوز
وانعاش عملية حصار الانقسام.

٣- أنا أعرف:

أنا اعرف
إن الارق أخفى مفتاح باب النوم
ويدفع الاضطجاع

نحو حافلة جدار اللاإمكان.
أنا أعرف
ان النسيان بطالة مريحة
تاتيك عبر دروب ملتوية
يمنع عنك زيارة
مصائف ومشاتي الماضي.
أنا اعرف
الفوضى له رؤؤس خيوط كثيرة
ان لم تنتبه
يسحبك نحو زقاق ملتوي
ويتيهك في شارع مهجور.
أنا أعرف
ان المطاردة والمحاصرة تعلمانك
زرع شتلات الفناء
تقيدانك في أتون اللاثقة
تسدان بوجهك أبواب الصلح والتفاهم.
انا اعرف
ان شجون القلب
تكشط غشاء الشعورو العقل
تجرك نحو صراع غير متكافئ.

مدينة استثنائية

قصة وترجمة: رؤوف بيگەرد

كان الشاب جالسا امام نافذة الغرفة، يتأمل الشوارع والمارة والكتل المكتظة هنا وهناك. يرى الاشياء طبيعية لحد الملل. الى ان رفع رأسة لينظر بعيدا الى الهضاب والجبال في شمال المدينة. رأى بنوع من التوجس والغرابة اشباحا متناثرة وكأنها قطع من غيوم سوداء تحركها الرياح. مال يمينا ويسارا لمتابعة ما يجري هناك. حتى اقترب المشهد رويدا رويدا. فرأى جيشا يخطو بتأن نحو المدينة. ارتاب اولا ليسأل نفسه: هل المدينة في غفوة لتنام او مصابة بالعمى؟ وهل هناك شبه بين جيش غاز والاشباح؟

وصل احد المارة وهو رجل مسن الى مستوى النافذة. يضع نظارة ويغطي دخان سيجارته معالم وجهه. ناداه الشاب: ايها العم، ارجوك ان تنظر الى شمال المدينة لترى هل هناك اشياء غريبة؟ وقف الشيخ وادار وجهه نحو النافذة، حرك نظارته محاولا رؤية الشاب. رفع رأسه الى الشمال صامتا. حرك نظارته مرة اخرى لرؤية ما اخبره به الشاب. وعندما تاكد من اللاشيء، التفت اليه قائلا: بني، انا لا ارى شيئا جديدا او غريبا. وهل هناك اغرب من الصخور والكهوف والحركات الهمجية للناس؟ صمت الشاب وذهب الرجل.

وصل عالم دين الى نفس المكان، ذو لحية كثة سوداء لابسا جبة مائلة للزرقة. ناداه الشاب: استاذي، انظر الى الشمال، لترى هل هناك شيء ما؟ راقب عالم الدين منصتا وبحذر. ثم دار وجهه نحو النافذة، ردد ما لا يسمعه غيره ونظر الى الشمال. قال للشاب: انا لا ارى شيئا غير اعتيادي، وهل شاهدت شيئا ما؟ صمت الشاب وذهب العالم.

وصلت فتاة جميلة مع امها الى المكان. صاح بهما الشاب: انظرا الى شمال المدينة، لتريا هل هناك شيء ما؟

وقفتا لتنظرا الى مصدر الصوت ومن ثم الى جهة الشمال. بعدها التفتت الام قبل ابنتها الى النافذة قائلة:

-ليس هناك شيء غير اعتيادي، فهل ترى شيئا؟

رمقت الفتاة امها حائرة او غاضبة، ومن ثم أدارت بوجهها نحو الشاب. قالت الام:

-هيا لنذهب

-ولكنه صادق فيما يقوله، ارى اشباحا ما تتحرك الينا..

جالت الام ببصرها مرة اخرى نحو الشمال ثم رمقت ابنتها:

-لنذهب، يمكن ان يكون الشاب مجنونا؟

-ولكنني لن ابارح هذا المكان الان، ولا استطيع العودة معك.

اندهشت الام قلقة، وعمقت في نظرتها اليها، شعرت باغتراب عجيب في عينيها وبسحر مفاجئ يغمرها. قالت بسخرية:

-وهل احببت الفتى؟

لم تجاوب امها وبدأت تخطو نحو النافذة، صمتت الام برهة. قررت ان تتركها لحالها وذهبت بوحدها.

غطت المدينة ضباب اعتيادي، نزل الشاب والفتاة الى الشارع، تقدما وسط الضباب نحو الشمال. ومع كل خطوة من خطواتهما الحثيثة يملآن السكون بالصوت والنداء.

-ايها المواطن.. ان جيشا غازيا في طريقه الى مدينتكم، تكتسح كخيول برية الاخضر واليابس. ولكنكم غافلون، او تتغافلون! اننا رأيناهم وعلينا ان نخبركم به.

هناك من وقف صامتا يصغي بانتباه. واخرون يدردشون مع انفسهم بان المدينة مليئة بالمجانين او هي مدينة المجانين اصلا!. جال في خاطر البعض بأنهما عاشقان والحب يؤدي الى الجنون لا محالة. ولكن جموعا غفيرة افرحتها الخبر ورددت مع نفسها بان هذا هو حلمنا، لتأت الغزاة وينقذونا من حكامنا.

لم يتوقف الشاب والفتاة من المشي الى ان وصلا الى مدخل المدينة، اوقفهما الحراس وطلبوا منهما الهوية. لم يكن يحملان معهما شيئا. وفي الحقيقة لم يكن ينتميان الى اي بلد او شعب، والى اين تتجهان في سيرهما؟ ولكنهما لم ينقطعا عن ذكر المحتل والوقوف بوجهه. اقترب رئيس الحراس واتهمهما بجاسوسية وتنفيذ مؤامرة جهنمية خارجية وداخلية للنيل من استقرار البلد وزعامته الرشيدة. ثم امر بعصب اعينهما وابعادهما الفوري الى سجن خاص يقع في منطقة جد بعيدة من الصحراء الغربية لا يوجد فيها غير ابناء آوى والعرب.

احتل الجيش وبسهولة فائقة المدينة، انتشر سريعا في جميع ازقتها وشوارعها ومحلاتها. بدأ اولا بهدم المتاحف، وكسر المجسمات وشواهد قبور الشعراء والعلماء. الى ان جعل من المدينة مستوطنة لعقاب الشباب الذين شعروا بان الاحتلال هو

الاحتلال، سواء كان من قبل اخيك او عدوك.
بعد مدة طويلة اخذ السكان يفكرون ليلا في كيفية طرد الغزاة! كيف يجمدون الدم من شرايينهم لتتحول جثثهم الى هياكل عظمية يصنعون منها دمىً يلهون بها اطفالهم.
وبعد الانتهاء من هذه التخيلات والافكار، يحسون بانهم قد ادوا واجبهم الوطني على احسن وجه. وقد انتقموا فعلا في تلك الليلة من هؤلاء الاعداء واوقعوهم شر هزيمة. وكان انتقام المارد من الحب والتنين من عيش الاخرين. لذا لهم ان يناموا نوم الفارس العائد من ساحة الحرب، او نوم امرأة معذبة في حالة مخاض بعد ان بقيت اياما وليالي قبل ان تنجب مولودها.
وبعد عودتهم في اليوم التالي الى اعمالهم وممارسة حياتهم اليومية، ينسون ما عاهدوا انفسهم ليلا. فتغمرهم نشوة الاستمتاع بوجود الغزاة واطاعتهم العمياء لاوامرهم.
وفي الليل، وعند العودة الى مأواهم، يبدءون مرة اخرى في التفكير بكيفية تجميد الدم في عروق المحتلين ليجعلوا من جثثهم هياكل عظمية يصنعون منها عرايس ليلهو بها اطفالهم.
بعد هذه الحادثة بمئات السنين. قام احد علماء الميثولوجيا بتحقيقات وبحوث على المدينة، واثبت بان هذه المدينة، بتركيبتها السكانية وبسبب وجود دائم لجيش غاز فيها مازال موجودا حتى الان في ركن من اركان هذه البسيطة. ولكنه، وبعد ابحاث عميقة ومتعبة في شتى العلوم، وتحقيقات ميدانية في مجالاتها. وصل الى نتيجة ان ما يفكر به السكان ليلا بالانتقام ونسيانهم نهارا شيء طبيعي. ولكن ما بقي لغزا وغير قابل للتفسير امام العالم الميثولوجي، وحتى لم يسعفه اية استكشافات علمية او سايكولوجية، هو فقدان العوامل التي ادت الى ان يسمو بهم الاحتلال الى فرط النشوة، وكذلك الاستمتاع الهائل بتنفيذ كل ما يؤمرون به من قبل الغزاة لحد السخرة والسخرية!!

٢٠١١/٣/٢٣

الأمكنة المنكوبة بألمها

مرشد اليوسف

بنختي و سرختي , وجهان لوطن يفيض بالذهب الأسود و القطن الأبيض و القمح الأشقر وتجري من تحته الأنهار , وطن يعيش بين الهاجس والحلم ويتصدى للزمن بكبرياء. وشعب صبور يعيش كفاف يومه, نهاره ليل وليله سواد, تطحنه الأسنان لكنه عصي على الابتلاع, له ألف روح وروح, يصبح ويمسي على الانكسارات والقسوة والأمل, ويتلقى الصدمات دون أن ينحني, وبين القسوة والأمل مسافة حبلى بأحلام الحرية.خورشيد شاب في الثلاثين, أسمر اللون , طويل القامة, ترك قريته المتواضعة في ريف عامودا, و انتقل الى مدينة الحسكة التي أصبحت في الستينات و السبعينات والثمانينات مقصد ابناء الريف وطالبي العمل, وأصبحت مدينة ملونة يقطنها السريان والعرب والأكراد والأرمن ,وتناثرت حولها مجموعة من الأحياء القديمة والجديدة, حي غويران ويسكنه الديرية وعرب الجنوب , وحي العزيزية ويسكنه الأكراد والغربتلية من أبناء المحافظات الأخرى, وحي تل حجر والمفتي وخطو ويسكنه الأكراد, وحي الناصرة ويسكنه السريان والأرمن, وحي النشوة ويسكنه عرب الجبل, والحقيقة ان هذا التقسيم لم يكن مقصودا في البداية.خورشيد خريج علم النفس يتنفس الفلسفة ولكنه يحافظ على مسافة بينه وبينها في تجسيده للواقع , و يكشف في تصويره الواقعي للأشياء وفي حسيته ما يمكن أن يسمى بالرومانسية الجديدة, و يمثل زمنه في سلوكه حتى يستطيع تصنيف نفسه, و يبذل جهدا لايجاد شيء من الانسجام بين ايقاعه الداخلي المحافظ وبين مشهد العالم الهائج من حوله, الدرامي أحيانا والبشع أحيانا أخرى, و يشعر في لحظات معينة أن العالم من حوله يتحول الى حجر يتوقف تسارعه على الناس والأمكنة.

في حي تل حجر المحطة الأكثر رتابة في حياته كان يشعر بالغربة أحيانا والملل والضجر أحيانا أخرى, وبين الملل والضجر كان يتشظى بين صقيع الجسد وهذيان الفكر

وتهدجات الروح , بيد أن ذلك كله لم يكن سوى أوجاع السنين, وكثيرا ما كان يهرب الى الأمام , أو يشغل وقته بصيد الأسماك من نهر الخابور والجغجغ, و يأتي في نهاية النهار حاملا صيدا متواضعا من أسماك القشري الفضي وأسماك الحنكليش, ويجلس في المساء الى زميل الدراسة أوصمان يتناولان السمك المشوي ويتحدثان عن الصنارة والشبكة و الصيد, والحظ العاثر, ويتبادلان الحديث حول السياسة والبطالة والاستبداد والتمييز العنصري, و يتابعان بشغف أخبار الأمارجيين وانتصاراتهم من وراء الحدود, ولكن كيف تعرفا؟كان الجو حارا في ذلك الصيف الدمشقي , وكان من عادة أوصمان أن ينام عاريا, دخل خورشيد الى الغرفة وصرخ بأعلى صوته:- اختشي!!استر جسمك, و احترم الغير!!!!!!؟فز أوصمان عاريا مذعورا على صراخ خورشيد!. أنت...أنت أقصدك أنت!!- وأشار خورشيد بيده نحو أوصمان. أدرك أوصمان أن الطالب الأسمر الطويل يقصده!!!!

ما بك يا أخ...ماذا فعلت بك حتى تشتمني وتفسد عليّ نومي؟

- قلة ذوق!!!!.وتناول خورشيد الشرشف ورماه على جسم أوصمان العاري, وجلس وغاب في الصمت!!!!

- أدرك أوصمان القصد وقهقه بصوت مرتفع:

- الزميل قروي, أليس كذلك؟وأضاف: اذا كان الجسم جبارا فالعري أفضل !.

- لا....لا.. العري يرمز الى أشياء أخرى , الى الاثارة و..........!.وصمت خورشيد.

ساد الهدوء والقلق جو الغرفة, وانسل أوصمان من السرير بتردد وارتدى ثيابه على عجل, وتحرك باتجاه خورشيد واعتذر وطلب ابريقا من الشاي.قبل خورشيد الضيافة والاعتذار, واعتذر بدوره لأوصمان , وشربا الشاي , وتعرفا على بعضهما وانتهت المشكلة وأصبحا صديقين.كانت الغرفة رقم واحد من أفضل الغرف في فندق رضوان الكبير وسط حي سنجقدار بالقرب من سوق الحميدية, من حيث الاتساع وحسن التهوية وجودة المفروشات ونظافة الحمام والتواليت, وكانت المفروشات موزعة بتناغم في الغرفة, كنبة مخملية بنية اللون تتسع لجلوس أربعة أشخاص متوضعة على يمين المدخل, وخزانة من الخشب ذات بابين في الجدار المقابل, وسريران متقابلان من خشب الزان الأصفر, وبينهما ممر متسع للمرور, وعلى الحائط بين السريرين وضعت لوحة الجوكندا للفنان ليوناردو دافنشي بابتسامتها الساحرة, والحقيقة أن هذه الغرفة كانت مخصصة لكبار زبائن الفندق, ولكن ديركي صاحب الفندق آثر أن ينام فيها صديق الطفولة أوصمان فكلاهما من الدرباسية.

كان أوصمان وخورشيد على النقيض, كانا يتناقشان ويختلفان باستمرار حول قضايا

اجتماعية وسياسية, كان كل منهما من طينة مختلفة, كان خورشيد ابن أرملة, ,ولد بلاسقف أب , توفى والده وهو في بطن أمه, كان يفلسف الأشياء وفق منطقه وهواه وارهاصاته, وكانت له قناعات واهتمامات تقليدية محافظة , و سجالاته مع أوصمان الطالب في قسم التاريخ كانت تتركز حول قضايا اجتماعية تقليدية على عكس اهتمامات الأخير, وكان يغيظ أوصمان بأفكاره النرجسية تارة والتقليدية تارة أخرى, وكانا يثيران اهتمام الطالبات و الطلاب المقيمين في الفندق, وكان موضوع الأصالة يشغل بال خورشيد كثيرا وله نظريات بشأنها , من قبيل أن الأصالة ضرورة فلسفية وحالة اجتماعية راقية, وأنه لن يتزوج الا فتاة ذات أصل وفصل ونسب, وكان أوصمان يتذمر و يسأله: ماهو تعريف الأصاله لديك يا فيلسوف الزمان؟ وكان يحتدم النقاش بينهما على هذا المنوال واضطر خورشيد مرة أن يعرف الفتاة الأصيلة: أن تكون من عائلة ذات أملاك زراعية !!!

- اذا , الأصالة عندك تتعلق بالملكية والغنى!! أنت تهمل قيم أساسية, لم تذكر الجمال والأخلاق الحميدة ومستوى الثقافة وأشياء أخرى, وتفترض أن الأصالة مرتبطة بالأرض الزراعي!!! مارأيك بفتاة حلوة خلوقة متعلمة ,يعمل والدها بسلك التعليم أو في مجال الصناعة أوبائع خردة أو اية مهنة شريفة أخرى؟وكان يحتدم النقاش بينهما.

تخرجا من الجامعة ولم يتفقا,ولم يغير كل منهما قناعة الآخر.وفي ليلة صافية من ليالي الربيع جلس أوصمان قبالة خورشيد على الكرسي البلاستيكي في حوش دارالأخير تحت عريشة العنب بالقرب من شجرة الياسمين, وأسند رأسه على مسند الكرسي, وبسط ساقيه واسترخى, كان الليل رقيقا محمولا على الندى في اليوم الأول من شهر نيسان وكانت النجوم تتلألئ على صفحة السماء تبعث النشاط في النفس, وتثير الذكريات الجميلة, انفتحت ذاكرة أوصمان على الفضاء الواسع وأراد أن يستعيد ذكريات أيام الدراسة في جامعة دمشق و كيف تعرف على خورشيد في فندق رضوان الكبير وسأل:- هل تتذكر التجاذب الذي حصل بيني وبينك في الغرفة رقم واحد؟. كان السؤال مثيرا , أعاد خورشيد الى زمن كان قد طواه من حياته , وارتبك واضطرب وتلعثم, وتداخلت الاشارات في جملته العصبية , وداهمته لحظة غير متوقعة, , وبدا وكأنه أمام امتحان صعب, وكان لابد من المواجهة التي هرب منها طويلا , واستجمع قواه وأجاب:- فاجأتني بسؤال لم أتحوط له....... أجل ....أجل أتذكر كل لحظة, وكل جملة, كنت أنظر بعينين كسيرتين منخفضتين, وأنزوي الى ذاتي , كان العالم بالنسبة لي بيادر قرية جول

بستان, ونجوم السماء في الليل, و في طيات الظلام التمست طريقي حذرا مخافة أن أعثر بشيئ , عيناي المفتوحتان لم تكونا تريان سوى عالم المرأة الأرملة, عالم أمي المغلق على الحزن بعد وفاة أبي, وحاسة الشم عندي لم تكن تحس بأية رائحة سوى رائحتها , ويداي لم تكونا تقبضان سوى عصى ضعيفة ضامرة, وملاذي الآمن الوحيد كان الحضن الدافئ , كنت وحيدا على دروبي, أتمرغ بدجى الأوحال, انسل من ذاتي وأخطو على الدوام خطو اللصوص, وأحاذر أن تشعر بي أمي التي كنت أرهقها بسيل هائل من الأسئلة التي تحار في الاجابة عليها, وعندما أصبحت يافعا أخذت مخيلتي ترسم تلاوين مختلفة, كنت أريد أن أخط لحياتي منحى مختلفا عن أقراني, منحى يتلاءم مع وحدتي, منحى مقاوما يطرد عني ارهاصاتي وضعفي و عذابات اليتم, فالقدر يرأف بأولئك الذين يقاومون, ويصبح الوجع أقل ايلاما, والمصيبة أقل وطأة, والحياة أقل تعاسة , وربما أكثر اخضرارا, كانت قدماي ترتطمان بالصخور والنتوءات خلال صراعي مع الحياة , فتسيل الدماء من وجهي وترسم علامات فوق أديم الأرض , وأتذكر أنني وقعت ذات يوم على الأرض وأصبت بجرح في ساقي, نهضت بسرعة و لم أبك!! فمن يرثي لحالي؟ مسحت دمي وجففت دموعي وتابعت سيري ولم يكن لدي خيار آخر,, وهكذا وجدت نفسي أواجه الصحارى القاحلة التي لاتعرف غير القسوة ,انها المأساة التي يواجهها المرء حين يحاول اختراقها وحيدا, تؤرقني الذكريات, وهذه الذكريات تؤلمني, لكنني تصالحت معها, ففي تلك الأيام تعلمت الكبرياء والاعتماد على الذات, وسهرت الليالي وشقيت طريقي وحيدا في صحراء الحياة, ودرست في أصعب الظروف , وتخرجت من الجامعة, الا أن كثرة التذكر تصيبني بالكآبة.شعر أوصمان بالحرج وأراد أن يخرج خورشيد من تلك الدوامة:- وماذا عن روان طالبة الفلسفة وبنت البلد؟ ابتسم خورشيد وربت على كتف أوصمان وقال: - جاء دورك ,تحدث لنا عن نذالتك.ارتبك أوصمان وركبه الخجل ,لأنه لايرغب في اثارة االفضائح , يريد أن ينسى الماضي , يريد أن يشطبه من حياته, كان أوصمان شخصا مختلفا, من طرازغير طراز خورشيد, معتدل الطول, ذو قسمات هجينة, ووجها ساكنا متعاليا, ونظرة غامضة, ينحدر من عائلة تملك عدة قرى زراعية في ريف الدرباسية , وحرم والده من حصته في الملكية لأسباب عائلية , وعانى الأمرين جراء ذلك, كان متمردا على ثقافة القرية والعائلة والعشيرة وثقافة التابوات في حياة الانسان, كان يبحث في ممكنات المخيلات الانسانية ومبدأ التعددية الذي يسمح برؤية العالم كشبكة علاقات ,

في هذه العوالم الواسعة كان يتحرك , كان يود بذلك أن يستكشف تحت تعدد الأزمنة والأمكنة سمات التجربة الانسانية الأكثر رقيا كما عبرت عنها أفضل العقول في مختلف الأزمنة , درس علم التاريخ بعمق, والتاريخ لديه لايعني الفنتازيا والتهويل والتنكر للواقع, بقدر ما يعني اعادة تركيب الحياة ليتمكن الانسان من مواجهة الواقع بكل ثقله وبشاعته, كي يتمكن من تجاوزه الى واقع أسمى , واقع جديد يتساوى فيه الرجال والنساء, واقع ينحني فيه الرجال احتراما للنساء , واقع يزدري فيه الانسان كل الفوارق لجهة القومية والعرق والثقافة واللغة والمعتقد , واقع يختفي فيه النظام الشمولي ونظام الاستبداد والاستغلال والفساد, واقع يزخر بالحرية والديمقراطية وحقوق الانسان والطوائف والأقليات والقوميات , وكان يصرح قائلا:- العالم يحتاج الى رجال ونساء كاريزميين من أجل الاصلاح والصحوة وتجديد الروح والمسار ,

تكون أقدامهم في الشرق الأوسط وعقولهم في الغرب على ضفتي الأطلسي, وكانت الحداثة من أكبر اهتماماته. كان يشعر في بعض الأحيان بأنه المخلص والمنقذ الذي ينتظر منه الشعب الكردي والتركي والعربي والفارسي والأرمني والسرياني والأشوري المعجزات لتغيير وجه المنطقة الى السلام, كان يقرأ بعمق تاريخ العظماء والفاتحين والفلاسفة والقادة الثوريين, وكان نضال الزعيم الهندي الكبير غاندي ونور الدين ظاظا من أكبر اهتماماته, هذه المشاعر تخيفه أحيانا , كان يراها ضربا من الخيال المرضي, فينكفئ على نفسه ويلوذ بالصمت الطويل. - لابأس , سأتناول جزءا من فوضى تلك الأيام, أنت تدفعني نحو الماضي, أنا أخجل من نفسي ومن ذكرياتي , ومن لامبالاتي ومن بوهيميتي.!!وغاص أوصمان في النتوءات والوديان والسفالات وقادته ذاكرته الخشنة الى أيام الطفولة والمراهقة, والهوايات وكشف أسرار الحياة , وملاحقة مخلفات النساء و البنات المتداخلة على شكل لوحات سريالية في الخلوات وخلف جدران البيوت وأكوام القش.- كنت أختبأ كالجردون في أكوام القش أراقب بشغف حركة النساء أثناء قضاء الحاجة خلف الجدران, كنت أميز براز روشن عن براز شيندا,كنت أتصيد بحرفية لحظات انتشار بول آرين في الأرض ,وألتفت يمينا وشمالا, وأمد يدي خلصة الى فتحة البنطال, وتسري النشوة في جسدي النحيف, كنت أتنقل في عز الحر أراقب نارين وشيرين من خلف قن الدجاج كانتا بالنسبة لي من أجمل البنات, كانتا تقضيان وقتا طويلا خلف الجدران, تطلقان نهديهما النابتين في الهواء الطلق وتداعبان بالتبادل النتوءات والزغب الأشقر ومن ثم تضيعان في ملكوت النشوة, كنت أسمع الآهات ولحظات الانفجارالساكن, وأتفاعل , وأغسل عيني بالتفاح والرمان

الأحمر المشقوق المسربل بشراشيب كوز الذرة الأشقر,وبين التفاح والرمان كنت أستمتع بلحم الصرة, وكنت أتماها في المشهد ويتدفق ماء الحياة وأضيع في الاسترخاء وأنتشي, وبين كل نشوة وأخرى كنت أرمم جسدي بلحم القنفذ والجردي غزال.كنت ألعب مع عبطة بنت الجيران, كنا نصنع خربوشة من بقايا اللبن والقش وعيدان القطن , ونتبادل القبلات والمداعبات ونخطط لبناء أسرة خيالية .وصمت أوصمان لحظة وهز رأسه ندما...هل تريد أكثر..هل تريد أن أعري نفسي ,ودون أن يأخذ اماءة بالموافقة تابع وانتقل الى مرحلة الجامعة:بوزي المحجبة آلا تتذكرها ؟ كانت فتاة جميلة متدينة تحافظ على اقامة الصلوات الخمسة في مواعيدها, عذبة, أنيقة, في السنة الأولى لغة انكليزية, كانت لها نظرية راقية عن استعداد الجسد وشروق الشمس وذروة الحب عند النساء, كانت تقول أن اجمل فترة للحب بالنسبة لها يقع بين الفجر وشروق الشمس, وكان الليل بالنسبة لها حصان أبيض ,وعالم واسع للخيال والأحلام الوردية والاستجمام والصلوات, وكانت ممارسة الحب بالنسبة لها شكل من أشكال العبادة , وأن في الوقاع أجر وثواب, وفي كل وقاع يحصل الانسان على دار في الجنة, و كانت ترغب ببناء دور عديدة لأهلها الأحياء والأموات وللصغار والكبار والجيران, والحقيقة أن هذه الفكرة كانت تتطابق مع نظرة القدماء الأكراد الى الجنس , فقد كان الاتصال الجنسي شكلا من أشكال العبادة والتقرب الى الاله وهذه الفكرة لم تسبب لي صدمة أبدا بل أعجبتني, وهذا الاعتقاد قديم يعود بجذوره الىعهد الالهة الكردية السومرية المقدسة انانا, وكان لها معابد وكاهنات عاهرات يمارسن طقوس الجنس المقدس مع الرجال داخل تلك المعابد, فالجنس حسب عقيدة الالهة الأم اتحاد مقدس بين الرجل والمرأة يؤدي الى خلق حياة جديدة وانجاب بشر جدد . كان عشقي لها بلا حدود, كنا نلتقي خلسة عند الفجر نمارس طقوس الجنس المقدس في غرفة الغسيل على سطح الفندق, كانت تتفوق على نفسها في فنون الهوى الكردي الجارف, كانت قطة برية وغجرية مثقفة تمسك بخيوط الحب الغربي.كانت تموء كالقطة تلعق هيجاني وهدوئي,تعض صدري وأنفي ولاتشبع, تركب موجاتي وتبحر, تقذف بآهاتها في جوفي وتسترخي وتهدأ , ومن ثم تعاود الكرة ,ويضيع الليل في بحر آهاتنا, و اكتشف أمرنا صديقي ديركي صاحب الفندق ذات مرة وأشبعنا توبيخا,وحنت عليه بوزي وقضت معه بقية الليل . استيقظت حواس خورشيد على اتساع المدى وخرج من سلطان الوقار وطلب المزيد: ماذا عن شاهبانو الحلوة؟- - بانو, زنبقة جبال عفرين, كانت تأتيني في حي الأرمن بالقرب من دوار باب شرقي بلا

ميعاد, تطلق ساقيها العاجيين و نهديها البرونزيين الملتهبين بمجرد أن تدخل الغرفة, شاهبانو اسطورة وأميرة وجنية, نهداها صنعا من اجل الحياة و الخلود, كانت توقف الزمن , تفور كالحليب, تطلق موجاتها, تحترق, تعانق موجاتي , و تفلت جسدها وتطلق العنان للرغبة الجامحة المستعرة , وتتكسر فوق السرير, مازالت ذكراها حية مشتعلة تسري في جسدي, كم أتمنى أن أراها لألصق جسدي بجسدها, وأمتص رحيقها ,آه ليتني بقيت رجلا لامنتميا أتنقل بين صدور النساء وعطورهن. وأغمض أوصمان عينيه وغاب في لحظة سديمية واستيقظ : عزيزي خورشيد: - أنا لست راضيا عن نفسي, لقد ترعرعت حرا , ولكن حريتي كانت مزيفة ,لاتوجد في لغتي صرخة, أحس وكأنني مسكون بكائنات صامتة تطاردني , كائنات بشرية تئن من الوجع والآلم تحتشي على انجاز أمر كنت غافلا عن انجازه, , لقد اتخذت قرارا, سأغير مقاربتي للحياة, وأطير في فضاء مختلف, وألج الحياة بأقدام صلبة, وأدور دورة طويلة للبحث عن الأزمان الضائعة, كما بحث كلكامش عن شجرة الخلود , ومن ثم أبدأ رحلة ماراتونية طويلة نحو الحرية , سوف أدافع بقوة عن شعبي. صفق خورشيد بشدة وأراد أن يستفز أوصمان: وماذا بعد يا مولانا؟ - أنا أقول الحقيقة وأنت تستهزئ بي , تريد أن أن تعريني أمام ذاتي, لن أخجل من الحقيقة بعد اليوم, اللوحات السريالية والقنفذ وشيندا وروان وآرين وبانو وبوزي والتفاح والرمان وشراشيب الذرة, مفردات جميلة تركتها خلف ظهري, و قررت أن لا ألتفت الى الماضي, سأفتح كوة في جدارالزمن, وارسم طريقا جديدا للأجيال, لقد تاه أجدادنا طويلا في صحارى الذات, وتعددت بيارقهم وتنازعوا وذهب ريحهم, وأصبحنا هدفا لينا للطامعين وأفل نجمنا , وكما فعل النبي موسى, سأرتقي الجبل وأضع الشمس في يميني والقمر في يساري وأصعد نحو برج الميزان, وأعرج الى السماوات, وأطرق ابواب الآلهة السبعة العظام وأضع قضيتي العادلة في حضرة الاله العظيم آنو سيدي, وأطلب منه العون, وأقطف من تاجه نجمة الصباح وأهبط على الجودي وأشعل من جديد نار نيروز, وأعيد البسمة الىأحفاد سومر ولولو وكوتي وكاشي وهوري وميتان وميد وسيتي, وأرسم من جديد شريعة أور ناموعلى الأرض , ومن ثم أرفع الصلوات الىالاله دوموزي (تيؤسي ملك) وأهورا مازدا الكبير وبعدها أسبح بسم الاله الأكبر خودي, خالق السموات والأرض.

*فصل من رواية بنفس الاسم.

الحافلة تسير

قصة: محمود الريماوي

في المرة الأولى كنت أقود سيارتي .

في المرة الثانية، بعد أسبوعين على الأولى، كنت أقود حافلة فارهة عريضة ، كأطول ما تكون عليه هذه الحافلات الحديثة . أحدهم قال لي وكنت أمر بجوارهم وقد لفتتني جمهرتهم : هل ستقودها .. نريد منك هذه الخدمة ، نحن ضيوف ولا سائق لهذه الحافلة المخصصة لنا. ودون أن أتفحص الأمر قلت دون تردد : لم لا ؟ كنت كعادتي لا أستطيع رد طلب بوسعي تلبيته لأحد . وخمنت ولم أكن مخطئاً أن مبادىء القيادة واحدة سواء لسيارة أو حافلة، وبودي حقاً أن أخوض التجربة لمجرد خوضها . على أني فوجئت منذ البدء وقد صعد الركاب قبلي، أن كرسي القيادة يبتعد بمسافة طويلة وغير عادية عن الزجاج الأمامي، إذ أن هذا الكرسي (ومعه المقود طبعاً) ويا للغرابة ، يقع في منتصف الحافلة تقريباً . ولم يكن هناك سوى مقاعد قليلة متناثرة ومساحات فسيحة خالية، كحال الحافلات التي تستخدمها المطارات لنقل الركاب بين صالة المطار والطائرة . لم يكن عدد الركاب كبيراً لكن الهرج والمرج كان يسودهم ، فيما حقائبهم ملقاة كيفما اتفق هنا وهناك، وقد أثارني وقوفهم وتنقلهم الدائم من مكان لآخر . ومع ذلك فما أن اعتليت كرسي القيادة حتى تمكنت على الفور من تشغيل الموتور، والانطلاق بالحافلة على الطريق المستقيم الذي أعرفه من قبل ، ولقد ساعدت معرفتي باستقامة الطريق على تسهيل مهمتي، إلا أن المفاجأة القاسية تمثلت في احتجاب الرؤية كلياً . فأخذت أقود ببطء آملاً أن تتجنب السيارات حافلتنا التي تقل غرباء كما هو الحال دائماً . أما هؤلاء الركاب، فقد سلموا أمرهم لي كما يبدو وانصرفوا يتبادلون ما بينهم أحاديث صاخبة مفعمة بالرضا والفضول والمرح . ولم يخطر ببال أحد منهم التقدم لمساعدتي . ربما لاعتقادهم أن الحافلات عندنا هي على هذه الشاكلة أو لثقتهم في براعة قيادتي . لكن قلقي سرعان ما أخذ ينمو ويتفاقم ، وخاصة حين بدا لي أن

العجلات الضخمة للحافلة أخذت تطحن أجساماً ما في طريقها .

ولما لم يكن أحد سواي مدركاً لجسامة الخطر، ولما لم أكن قادراً على متابعة أداء هذه المهمة المستحيلة وهي القيادة دون رؤية ، فقد قررت أن أترجل ، إذ لم يكن هناك ما يلزمني بمثل هذه التضحية التي ستودي بي وبالركاب معاً ، وفيما أبقيت على موتور الحافلة دائراً ، فقد قفزت بلمح البصر إلى الخارج ، إلى شارع ترابي ... حيث استقيظتُ لأجدني متيبس الأطراف مخطوف الأنفاس ودقات قلبي تتسارع بصوت مسموع.

في المرة الأولى ، قبل أسبوعين على هذه ، كنت أقود سيارتي وبرفقتي زوجتي وأطفالي . عبرنا نفقاً في وسط المدينة ، كان أطفالي يتهللون عادة عندما نعبره، لأكتشف ان النفق معتم هذه المرة تعتيماً كاملاً ، ولم يخطر ببالي ابداً ولسبب أجهله أن أشعل أضواء السيارة، ربما لأن الدنيا كانت نهاراً، وقلت لنفسي إن مسافة النفق جد قصيرة ولا يستغرق عبورها أكثر من نصف دقيقة، وزدتُ من سرعة السيارة بأمل أن أطوي المسافة بأسرع ما يمكن وأخرج إلى الشارع . لكن النفق ظل يمتد إلى ما لا نهاية ، فيما شرعت زوجتي بتوجيه اللوم المرير لي على ما فعلت .. فاستيقظتُ متيبس الأطراف مخطوف الأنفاس ودقات قلبي تتسارع بصوت مسموع . والتفتُ إلى زوجتي فإذا بها بجواري تغط في سبات عميق، ولما تأكدت أن أطفالي نائمون أيضاً ، فقد حمدت الله أن شيئاً لم يحدث .

في المرة الثانية عندما قدت الحافلة وترجلت منها سريعاً وحال استيقاظي ، فقد استبدت بي ـ وأنا في المنطقة الرهيفة بين اليقظة والنوم ـ فكرة أن الحافلة واصلت سيرها دون سائق، دوني ، وأن غفلة الركاب ولهوهم منعتهم من ملاحظة الأمر . وها قد انقضت أيام على ما رأيت ، لكن أحداً ليس بوسعه إقناعي بأن الحافلة قد توقفت وأن الركاب هبطوا منها بسلام ، فما الذي يمنع حافلة غريبة كهذه ، أن تواصل سيرها الأعمى دون توقف . وإذا كنت في المرة الأولى ، قد اطمأننت على سلامة زوجتي وأطفالي فمن أين لي أن أعرف هذه المرة ما الذي حل بالركاب الغرباء، الذين وثقوا بي وأسلموني قيادهم.

خاطر أسود ملحاح يقول لي إن كارثة ما قد حلت ، وأنه كان يمكن تجنبها أو التخفيف منها لو أني واصلت القيادة، وبالأريحية التي ابتدأت بها معهم. .

حواس الأفكار

بقلم: دلشا يوسف



- ١ -

اميل الى اخذ الحرية بشرع الحرية بلا اغراء من أمل طاهر أو دنس، في تجاوزات الالفاظ في امتحان الكمال بسحره الناقص في مملكة الحبر المعذب بين حطام الجنسين .

أقول، سأبقى كالركوة مستقلة بذاتي. أعيرّ مقاديري و أتحـّكم بدرجة غلياني و زمن فوراني و لا يعجبني أي تقّعر للفنجان إلا الذي يستوعب فوراني.

- ٢ -

لم انظر الى نفسي منذ فتحت بصر حواسي على الجهات. ففي الحقيقة لا يهم هنا البحث في هوية الجهات التي حاولت التضييق على حرية المرأة من جميع النواحي و من بينها النواحي الإعلامية و الصحفية التي تعد بمثابة القلب الدافق الذي يمد كافة شرائح المجتمعات بكل ما هو جديد و يجعله نابضا بالحياة و معتدا بنفسه، لأن جميع الأنظمة التي تدير مجتمعاتنا ذكورية و لا تأبه لوجود المرأة و إرادتها وهويتها الجنسية . لذا ليس بالغريب أن تستقصي هذه الجهات و تستثني دورالمرأة و تشل دورها، و تعادي أي توّجه من طرفها من شأنه أن يرفع من إدراك المرأة بحقوقها و المطالبة بها و الإصرار على إيجاد موطئ قدم، تستطيع من خلاله إعتلاء منابر الحياة. و لكن الأمر المهم هنا هو مدى وعي المرأة الكوردية بأهمية هذا المجال.

رغم إعتقادي بأن المرأة الكردية لم تساهم بالشكل المطلوب في تطوير إعلام نسوي قوي، تستطيع من خلاله توظيف هذه السلطة الهامة و المعروفة بالسلطة الرابعة، في خدمة تفعيل دورها في المجتمع، لا يمكن التغاضي عن ذكر الكثير من الإنجازات التي حققتها المرأة الكوردية في مجال الإعلام و الصحافة في السنوات الأخيرة و بالأخص في ظل النظام الفيدرالي. فقد تقدمت المرأة الكوردية بخطوات هامة في مجال الصحافة و الإعلام. هناك مجلات و جرائد و ملحقات و برامج إذاعية و تلفزيونية حكومية و حزبية و مدنية خاصة بالمرأة و تديرها نساء جديرات. و هناك مشاركة واسعة للإعلاميات الكورديات في جميع مجالات الإعلام الأخرى. و من خلال تجربتي الإعلامية إستنتجت إن نتاجات المرأة الكوردية أكثر قراءة من النتاجات الأخرى، كونها تكتب بحسها العميق و ذكائها العاطفي الذي يهبها جرعة زائدة من الفطنة في تحليل الأحداث و الظواهر الإجتماعية و السياسية.

والنساء الكورديات أصبحن واعيات أكثر أمام حقوقهن وواجباتهن تجاه تنمية قدراتهن و قدرات شرائح واسعة في المجتمع، و هذا الأمر ساهم في إبرازبصمتهن في مجالات واسعة و ساهم بقدر ما في تعزيز ثقتهن بأنفسهن و كسب ثقة المجتمع الكوردي بهن. و بإمكاننا التنبأ إستنادا على دورهن الفعال في ظل الإدارة الذاتية في إقليم كوردستان، أنهن ستلعبن دورا أكبر و بجدارة في المراحل القادمة.

- ٣ -

حصارٌ على المعنى النسوي، من دنس الكلام العارض . كذهنية التحريم التي تدفع المرأة نحو خطيئة الكتابة. حاولت دائما تجاوز هذه الذهنية التحريمية التي اصبحت جزءا

من ثقافة مجتمعاتنا. بالعمل على تنقية الأفكار من الشوائب في فترة مبكرة من حياتي الكتابية والنضالية، وعليها أرّسخ الأفكار كقيمة عصرية لتأويل الحرية وارغامها على ما اريد تقويضه كيقين حاضر في جسارة المراة الكردية.لذلك لا ارتاب في ما اؤمن به من أفكار و رؤى،لأنها منطلقة بالاساس من ذاتي ووعيي و ارادتي الخاصة.

-٤-

هناك تباين و إختلاف في مستوى مشاركة المرأة في مجتمعنا حسب إختلاف المناطق، فقد تنقص و تزيد في منطقة و أخرى، حسب تمدنها و بعدها و قربها عن سيطرة العادات و التقاليد العشائرية.

و مسألة التعبير عن الرأي و المشاركة الفعلية للمرأة في جميع ميادين الحياة مرتبط بمستوى تحرر الوسط التي تعيش فيه و مدى تنمية قدرات المرأة. بالفعل شاركت المرأة الكوردية إلى جانب الرجل في صد الدكتاتورية و المقاومة ضدها، و كانت دائما في مقدمة المتضررين من النظام، و لكنها لم تكن واعية كفاية لتكون وثابة على ظروف القهر التي فرضت عليها و على المجتمع ككل، لذا خرجت من تلك المرحلة منهكة و ضعيفة، غير واثقة بقوتها الكامن كمحرك أساسي لشرائح واسعة في المجتمع. لذلك دخلت المرحلة الجديدة مصدومة، متشظية، متهاونة، لا تملك خطة ولا هدف معين، و تقاذفتها التطورات السريعة بالأخص بعد سقوط النظام الدكتاتوري، دون وعي منها بماهية دورها و اهميته في المشاركة الفعلية في صنع القرارت السياسية و الإرادة الجمعية.

ما تزال المرأة الكوردية و رغم تحسين الظروف الإجتماعية و السياسية و الإقتصادية، في إقليم كوردستان، تعاني من محدودية التعبير عن رأيها و رفع صوتها في المنابر العامة، و الأسباب متعددة و لكن السبب الأساسي يعود للمرأة نفسها، حيث لم تهيأ نفسها بالشكل المطلوب كي تكون خلاقة و مبدعة لتفرض رأيها و إرادتها في جميع المجالات. لذلك نراها تتصرف كمكمل و ليس كمناصف، تنتظر و لا تبادر، تستمع و لا تبدي الرأي، ترضى بالقليل دون الحراك المنظم من أجل المزيد من كسب الحقوق المشروعة، و مثال ذلك تكتمها و رضاها على نظام الكوتا في مشاركتها بالحكومة و البرلمان و المناصب الإدارية و إمتداد هذا النموذج حتى لداخل بنى الأحزاب السياسية و المنظمات و المؤسسات المدنية أيضا.

- ٥ -

فمن المسلّم به، انه بدون وعي حضاري لا يمكننا تكوين الجديد. لديّ اطلاع لا بأس به على التطوّر الحضاري منذ بدايات الإضطهادات البشرية و كيفية تطوّرها حتى

وصولها للمرحلة الحالية. أكتب نصوصي الشعرية بناءاً على معرفتي بالضرورات الحضارية الجديدة . حيث أؤمن بلغة الحوار بين الأفراد و الثقافات و المجتمعات و الجنسيات و أهدف من خلال ذلك لأنشاء حضارة عصرية تخلو من الإضطهاد و الإستغلال و اللاعدالة الإجتماعية. وبالتالي لدي رؤية جديدة للجندر (النوع الإجتماعي) حيث مشاركة الجنسين بالتساوي في كافة جوانب الحياة الإجتماعية للنهوض بالمجتمعات الإنسانية. أتبـّنى و اذود عن هذه القضايا ايمانا مني انها ستشغل حيزا واسعا بين القضايا العصرية الأساسية في الأيام القادمة و بالأخص في كردستان. إن الصراع بين الجنسين سيصبح من الصراعات الأساسية في الوقت الراهن و ربما تدوم لفترة طويلة.

-٦-

على ارض الابداع لا يمكن إنتظار النتاجات الرصينة من نساء عشن سنوات طويلة تحت ظلم الدكتاتوريات و عانين صنوف الإضطهاد و الإبادة العرقية و الأنفال و السجون و التعذيب و التهجير و النفي. و بما أن العراق ككل و الشعب الكوردي ايضا ما يزال يعيش في المرحلة الإنتقالية التي تفصل المراحل القديمة عن الجديدة والتي لم تتوضح معالمها بعد، و ما تزال المظالم تظهر بأشكال مختلفة لتهدد مجتمعاتنا مثل الإرهاب و عدم إستتباب الأمن و الإستقرار و الفقر و تفكك المجتمع و التشرد و الهجرة، كل ذلك له تأثير كبير على تراجع الإبداع الإجتماعي ككل و لدى المرأة على الأخص. كون النساء في مقدمة المتأثرين بالمظالم الإجتماعية و تتعدد أوجه المظالم الممارسة ضدها. فالأنظمة و الرواسب الإجتماعية المتخلفة و الرجعيات الدينية و الطبقية و النظام الذكوري، جميعهم في إتفاق تام ضد إرادة المرأة و تطورها. كل هذه الأسباب و اسباب كثيرة أخرى، وراء الإنقاص من شأن المرأة و الحط من هويتها و كسر إرادتها و طوق حريتها.

الإبداع و الخلق يظهران في أجواء الأمن و الإستقرار و الحريات. فكيف يمكننا تمني الكثير و النوعي و الصقيل من النتاجات من نساء يعشن في هذه الأجواء المحقونة.

إزدهار جميع صنوف الإبداع من أدب و فن وعلم و فكر و فلسفة في أي مجتمع كان، مرهون بمدى إستتباب الأمن و الإستقرار و الحريات.

و نحن كبلد و نظام و شعب و مجتمع نفتقر لكل ذلك.

إذاَ و إنطلاقا مما ذكرته، لا يكمن السبب في جوهر المرأة نفسها، بل في الأسباب الخارجة عن إرادتها.

-٧-

ثمة خطوط عريضة متصلة بالنهوض بالواقع الثقافي كالترجمة مثلا، والتي تشبه إلى حدٍ ما ضربات الالم الصامتة. وهنا، أعتذر لقلة إطلاعي على حركة الترجمة في العراق ككل، و ذلك بسبب الإنقطاع الموجود عمليا بين العراق و إقليم كوردستان و يعود سببه الأساسي لإختلاف اللغة، ولكنني أرى أن هناك حركة ترجمة قوية في إقليم كوردستان و لكن الجهود المنصّبة على هذا الجانب الإبداعي المهم فردية أكثر من أن تكون مؤسساتية. و الجهمود الفردية قائمة على أسس تجارية و قلّما تتخذ النوعية اساسا لها. لذا نجد سوق الكتب في إقليم كوردستان مكتظا بالكتب المترجمة، الهابطة و المجانية، و التي لا تملك أسس الترجمة الصحيحة لغويا و فنيا.

الكتاب أثر يبقى خالدا ما دام يذخر به المكاتب، لذا لا يمكن التعامل معه مثل أي برنامج إذاعي أو تلفزيوني عابر. فالكتاب يؤثر على بناء سلسلة من الأجيال، و عدم التأسيس لمكتبات مدروسة و هادفة، يسيء لمستقبل أجيالنا القادمة.

هناك تشابه كبير بين عملية دخول البضائع الأجنبية السيئة النوعية من البلدان المجاورة دون خضوعها للمراقبة النوعية من قبل مؤسسات خاصة بهذا الشأن، و بين عملية دخول كم هائل من الكتب و ترجمتها من قبل أفراد أو مؤسسات صغيرة دون خضوعها للمراقبة من قبل مؤسسة خاصة.

بالطبع لا يمكن الإستهانة بالجهود الشخصية لبعض المترجمين و المؤسسات الأهلية الذين قاموا بترجمة أعمال و نتاجات هامة من المؤلفات العالمية إلى اللغة الكوردية و ساهموا بالفعل في إغناء المكتبة الكردية، و لكننا نحتاج إلى تأسيس مؤسسة كبيرة خاصة بالترجمة، برعاية حكومة إقليم كوردستان، و تكون متفرغة لمجال الترجمة من و إلى اللغة الكوردية، و يكون بوسع هذه المؤسسة الكبيرة وضع خطط خمسية و عشرية، و مشاريع ترجمة في مجالات متعددة.

و هناك نقطة أخرى هامة يتوجب الوقوف عندها في هذا المجال و هو أنه و حتى الآن لم يكن هناك خطة نوعية من أجل ترجمة الكم الهائل من التاريخ و التراث و الأدب الكوردي المدون إلى اللغات الأخرى، كأهم سبيل لتعريف العالم بالشعب الكوردي و قضيته. و هذا الأمر أيضا يمكن التخطيط له في إطار المؤسسة الخاصة بالترجمة.

-٨-

حين تقذف بنفسك في بحر اللغات ، ستجد كم نحن نفتقر كثيرا للكفاءات الآكاديمية في مجال الترجمة. فالجامعات و المعاهد الكوردية تفتقر لآكاديميات مختلفة اللغات. مثلا هناك إهتمام باللغة الإنكليزية

لكن هناك إهمال للغات عالمية أخرى.
لذا من شأن وزارة التربية و التعليم العالي في إقليم كوردستان، إعادة النظر في المناهج الدراسية و التخطيط لها من جديد و أخذ اللغات العالمية الأخرى بعين الإعتبار. هناك لغات عالمية حية و نتاجات عالمية عظيمة يمكن لمجتمعنا الإستفادة منها، لكننا لا نملك مترجمين متخصصين بهذا اللغات. فعلى سبيل المثال: نحن نملك كم مترجم فرنسي أو ألماني أو تركي أو صيني في إقليم كوردستان، في الوقت الذي يتحول فيه إقليم كوردستان في المرحلة الحالية إلى موقع إقتصادي و سياسي و سياحي هام، يجذب الإستثمارات العالمية من كل صوب.

- ٩ -

كلما تعرفّت على ذاتي و ماهية الوجود أكثر كلما تجلّت لي حقائق جديدة. إنها رؤياي كإمرأة شاعرة. ورغم ذلك لم احاول ان افرض نفسي على الآخر. لكنني ادعوه للنزول من برجه العالي، ليجرّب الولوج من الأبواب الواطئة.لكي أواجه أسلحته الخفيفة و الثقيلة بالحوار المسالم. لا أطلب من الآخر الركوع مستسلما. ادعوه للصداقة بعيدا عن التملك و التبعية.

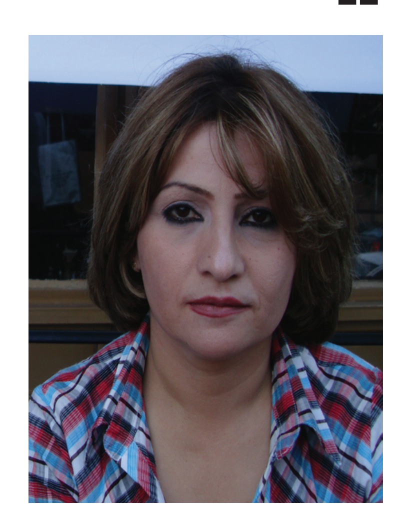
-١٠-

أرى في قصيدة النثر أمرا واقعا ملازما ومتطورا مع الجوانب العصرية الأخرى.رغم تعرّضها للتنميط، حيث تميل هذه القصيدة في بعض الأحيان لتخرج من ماهية الشعر، فتصبح مجرّد كلمات لا تملك القدرة على التكوين. بذلك يفقد الشعر النثري بريقه و تأثيره. وقد يكمن ذلك في النقاشات الدائرة حول افتقاد الشعر لأهميته في العصر الراهن. لكنه سيبقى ضروريا ما دامت المسافة بين الرغبات و الحقيقة العملية قائمة.

- ١١ -

إن الاحساس بجمالية القصيدة شيء اساسي في الشعر. فجميع قصائدي هي خلاصة لعصارة روحي و فكري و تجاربي، بالتالي عن طريق هذه القصائد امتحن قدرتي على تكوين فضاءات جديدة تحلّق و تهيم فيها روحي لكنها غير منقطعة عن الواقع. اعرف جيدا ان القصائد التي تذهلني تذهل القارئ ايضا، لدى قراءتي لبعض قصائدي أشعر برضى حيث التمس فيهم نفسي و افكاري وخاصيّتي بوضوح، بعيدا عن التبعية و التقليد. كتابة القصيدة لدي حالة طارئة تشبه انهمار المطر بعد تكاثف بطيء لغيوم شاردة لا تتقترب من بعضها الا في سديم متصل من البروق والرعود.داخل وخارج الحبر الممتد وكأنه أثر الروح على الورقة.

الجهة العليا لقلبي



شعر: جنار نامق

النجاة:

في صحراء قاحلة
أبحث عن غرفة معتدلة الطقس
فتهب – أنت - كالنسيم
لتغير حياتي.
أدرك
أن يوما ما سيأتي
ليقتلني العشق فيه
حينها فقط
سيطوقني النجاة
من جديد.

صوب قلبي:

إلهي
أوقف هذه العواطف
عندما تتجه صوب قلبي
كي لاتمتلأ رؤياي بالأحلام.
إلهي
أوقف تصوراتي لبرهة
حتى يكف حنيني
عن الجنون.

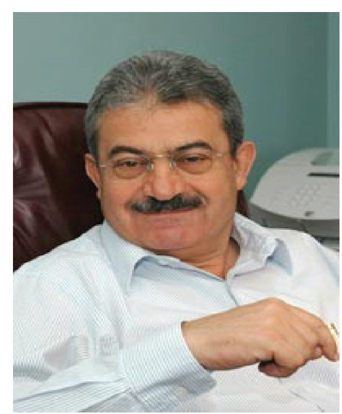
احباط:

أحبطتني
حينما إلتقطت جسدي
بمرآة عيناك
كفاك،
الى متى ستحسسني
بإني جسد بلا روح؟

جميع الجهات:

مغتربة أنا
في موطن ذاتي
تائهة أنا
في جميع جهاتي
ورغم ذلك:
عندما أعشق
يعيدني هذا العشق
إلى عصر الجواري.

تعالي يا عزيزتي

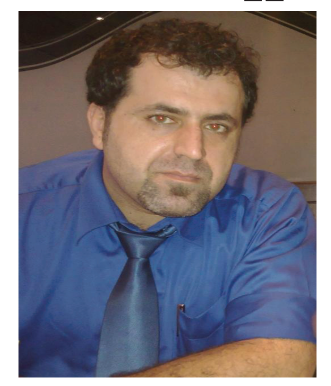


شعر: قيصر عفيف

تعالي، حين تأتين ، فاتحة جسدك
فالرغبات تجمعنا
كوني سماء لأكون لك الغصن
تعالي نغرف من بحر الشهوة
حتى نمتلىء معا بالوهج
ويطفىء الواحد لهيبه في الآخر
تعالي نخرج من عزلتنا
وننزلق الى المخابئ
حيث تزغرد الغريزة
فما زلت اشتاق جسدك،
أشتهيه،
من صفاء الوجه
حتى مغارة اللؤلؤ ووادي الكستناء،

أتلمسه بشغف طفولي
تجوب أصابعي مسالكه وتجاويفه،
أوديته وهضابه،
حتى اكتشف الضوء في النتوءات.
جسدك هدية مقدسة
غزيرة الينابيع
مزنرة بزهر اللوز
مزينة بزهو الشمس والألوان
يهتز ريشة في مهب الحب،
جسدك كنز سحري غريب
أمتلكه كأنه لي
ولا أمتلكه كأنه ليس لي
أي سر فيه؟
تعالي ننزلق معا الى الوليمة
ونذوق معا من طيبات ما رزقنا
فأنا مطر لأنك الأرض
وأنا شجرة لأنك الفضاء
وأنا رجل لأنك انثى
أسيل فيك
تسيلين في
ونسيل معا في رحابة الكون
ما اجمل هذه الكيمياء تجمعنا
ففيها العزاء والرجاء
أكثير أن أزعم أني انت؟

خوف فر
للجهة الثانية



شعر: مصطفى سعيد

ثباتك ضجيج مضطجع في قبره.

***

داخل الوردة كتمان

عتمة

براعم

ثم تفتح ورحيق حرية.

***

نبض الليل حشرجة الأمهات الثكالى..

***

كل شهيد

فجر كان يرتدي وجه بحيرة.

رجفة نشوته ضحكة صاخبة على تاريخ بأكمله.

***

المشهد ينقصه شيء..

"خرج ولم يعد"
خوف فر للجهة الثانية
اندس بين أفئدتهم
***
الأمهات يبحثن في ثقوب السماء عن ضماد للمطر
الآباء يلومون التماثيل التي صعقت أرواحهم
وفي الساحات المتاخمة للعتمة
المأهولة بصغار الآلهة
يعدون الشهداء
برقا برقا
قيامة ..
قيامة.
***
يا أبت
يرضعون جنونهم من مهد أمي..
من ثم يرضعوننا لب الكفاف
يحتسون النشوة بكؤوس
من سيقان المقاعد
ويتشبثون بنحر الأبدية
يعقفون هياكلهم
ناحية الوجوه المنتفخة
الأحادية الوجود بالمطلق
أسماء متجمدة في براويط فاخرة
ألا يعلمون يا أبت
أن الأبدية حكر على أحد
يا أبت
يشعلون مشكاة منازلهم بزيت الكبود
ورذاذ الأفئدة
وجوههم من المطاط

وأجسادهم من التوباز
يسقطون أقنعتهم من العلياء
بدوي في فجوة ضيقة, حفرت لأوطانهم..
يملكون سماء مقيدة في الكون العقاري بأسمائهم
غير السموات السبع..
يا أبت عن أي ثورة يتحدثون..
صدروهم لم تعد تتسع للنياشين
تمثال على رخام مناضدهم
رخام تحت تماثيلهم..
والماكثون عند النواصي..
يتحلون بأصابع من بسكويت الشعارات
وزقوم محلى بنعناع بارد
والثياب من ورق
يا أبت
مازالوا قادرين أن يجعدوا الرجال بالعجاج
ويلونوا الفجيعة كيفما شاؤوا
عند النواصي تشخص بهم الشخوص
ويتقيؤون عصير التوت
يا أبت..
اصطكاك أرواحهم..
بانوراما إلهية..
يصرخون بوجع
أنتم أرذال وسفلة
إرثكم القمع
ومآل أحلامكم الردم..
سنصنع من أجسادكم حطبا للمدفأة
لو تمردتم أو تجاسرتم عن الانحناء
لو كافحتم لردم سد الفقر العالي..

***شاعر وروائي سوري، سجن وعذب أثناء الثورة السورية.**

اليوم الذي اموت فيه، يضرب المطر نافذتي

هيوا قادر
ترجمة: دانا احمد

إليكِ أَرْفَعُها، أنْتِ الّتي تَذْكُريْنَ المَنِيَّةَ دَوْماً وتَذْكُرينَني وَقْتَها، أحِبُّكِ.

سوف ارى ذلك اليوم
انني ارى ذلك اليوم
ذاك الذي أموت فيه وحيدا
أعلم، أنني اموت وحيدا مثل عاشق محتار
يقتفيني زقاقا تلو آخر
ذاك اليوم، سوف ترفع احدى يديها، لتريني ساعتها
التي نظمتها وفق انتهاء عمري.
اعرف، انني سوف أموت ذلك اليوم، وحيدا، أخطو وهي ورائي
كما أعاصير متعبة تمسك بخاصرتها وتنكس
مثل فتاة بياعة للزهور وهي تحمل سفطا من الزهور السود
تمر بي وهي تمشي على طرف قدميها، تقول لي:
ايها الرجل الغريب، اشتر مني زهرة، هذا المساء!
أقول: بعيني الانوار الماثلة على اطراف ازهارك.
***

اعرف انني سأموت وحيدا
اهوي منفردا كما تفاحة تسقط من شجرها
وبهمهمتي سوف يستيقظ دود من نومها.
اقول له: عذرا، ياصديقي، جاء دورك.
أنضج كما التين وتنثر شذاي في الرياح،
تأتي الزنابير وانا اموت منعزلا،
أجف نحو فراشة، وتتركني الالوان،
تنزعني الالوان ملابسها فأموت وحيدا مجردا من الالوان.
انا اموت منفردا،
فالحروف الاخيرة على لساني، تذروها الريح كما حضن من الورود
أطلق انفاسي الاخيرة مثل طائر حزين وأموت
لا أملي مقلتي كما سمك دافئ واموت.
أحمل جثتي وأمضي الى أعلى المراقد
أنحي قلبي الممزق، تحت اقدم شجرة ارجوانية،
واذرف العبرات، لتوحد هؤلاء الذين يحفظون قصائدي عن ظهر قلبهم.
أشجي لهؤلاء الذين لم ألحق بهم لأقول لهم:
سوف تموتون وحيدين مثلي.
أموت منفردا وأسمع صخب درويش عاشق وهو غارق في التهليلة مثلي،
وأصغي نشيج ناي في أواخر عقد أنفاسه
وهو مثلي، يحبذ ان يقول شيئا ولا يلحق.
***
سوف أموت وحيدا وادع حذائي من دون الاقدام،
واترك ملابسي من دون مكواة،
ولا ألحق لأروي سندانة حبق غرفتي
بل اتركها عطشان وأموت،
أدع صوتي في قصائدي وأموت،
أدع نظارتي على منضدتي من دون المقلتين

واترك خامتي من دون حرارة اصابعي والسطور غير المكتملة،
واتدع اشرطة موسيقا، وكتبي، وصورتي التي هي مليئة بالضحك
والبكاء،
رسائلي التي لم ألحق أبعثها،
واترك غرفتي مقفرة ولوحاتي في حال سكونها.
***
انا أموت وحيدا،
اموت منفردا وأتأسف لتلك الايام
التي سأكون فيها ذرات بخسة ومضجرة على واجهة النوافذ،
تلك الايام التي سيغير العشق أسمها لأن لايعرفه احد.
سوف أموت وحيدا
تقتلني تلك اللحظات التي لا يستطيع احد ان يتحدث بلغة المنية
مثلي،
سوف اخمد كما شمع ولا يغيم الظلام على العالم!
سوف اموت وحيدا في وقت يلعب فيه الاطفال.
***
يأتي سبت واموت فيه بأعدادها،
هو سبت لا تعنيه ذكرياتي،
اموت وحيدا وأمضي منكوسا
الى الجزر المغمورة للنسيان.
سوف اموت وحيدا ولا اسمع النبضات الحارة لفؤادي،
سأبتعد كثيرا والتف في حلم يراني فيه مرات،
وارفع يدي الرعشاء كما انفاسي الاخيرة وامضي.
أمكث في قعر حب كما حسوة شراب
واسكر تلك الحشرات التي لا تراها الاعين،
انا اقترض صبيحة، أمسية من يوم لأموت فيه
يخطفني ليل لأموت فيه وحيدا.
ادرك، انني اموت يوما يصطدم المطر نافذتي،
اطير في السماء كما غراب مبلل،

كما فقاعات امواج في الرمال، واضيع
أز مثل شجرة تليدة واسقط.
سوف اموت وحيدا ويقول لي الموت:
ايها الرجل الغريب، اشتر مني زهرة، هذا المساء!
أقول: بعيني قطرات الماء الماثلة على اطراف ورودك، حتى لا اعطش.
وا أسفا لا املك وقتا لشراء الزهور.
ليس لدي وقت لأكون صديقك.
سوف اموت وحيدا ولا ألحق لوداع جسدي،
اخنق وشفتاي جافتان، ولا الحق قبلات الحبيبة،
سوف اموت وحيدا وادع كل شيء بعدي عدا عزلتي،
ايتها العزلة ايا صديقتي العريقة،
لماذا تركني كلهم الا انت؟
***
سوف اموت منفردا واتوق الى شمس تلك الصباحات التي تشرق من دوني،
تنضج الفواكه وتفعمها المياه دون حضوري
يأتي الربيع دون وجودي،
تهطل الامطار ولا تتبلل ملابسي تحتها،
يحمر المساء ويأتي الليل من دوني،
تنظم القصائد الرائعة دون ان أقرأها،
تختمر الشراب وتجنح السكرات وانا لا اطير،
وتكسب الموسيقا كما المياه دون ان اسمعها،
تهب الرياح ولا تتكاتف،
يطير النسيم منخفضا ولا امس اسفل بطنه.
سوف اموت وحيدا
ولا اسمع تفرقع البراعم لضخامة صوت انكسار عظامي كما السرطان.
***

مرة اخرى لا أضع كتكوتا في عشه
ولا امسح برأس ارنب بيضاء،
مرة اخرى لا اقيم طفلا ساقطا على الارض ولا انفض غبار ملابسه،
تحسرا من حرارة الحياة، أدجن رويدا رويدا،
ولا الملم نفسي للتمشي مرة اخرى
ولا يصبح كلب متوحد قريني.

***

ذاك اليوم الذي اموت، يقول الموت لي:
انا لا ابعث رسائلي السريعة بالشيخوخة دوما،
كم من رسالة بعثتها اليك ولم تبلغ بقراءتها
كم برقية ارسلتها اليك ولم تسلمها
كم لقاء نظمته لك دون علم الحياة ولم تأتي،
كم جرس دقته به بابك ولم تفتحيه،
كم هموم بعثتها اليك ولم تسلمي نفسك.

***

يأتي سبت باعدادها واموت فيه،
يأتي زمن ويضعني في اللازمن،
تتركني الحياة في محطة وتمضي،
تدع الحروف لساني وتمنحني الرياح وقت هبوبها صوتها وأمضي،
اتجرد من كل شيء واموت عاريا،
كم هو يوم متذبذب ذاك الذي اموت فيه،
هو يحمل في طياته برد الشتاءات كافة،
تسكن اجنحة اللحظات كلها في جيبه ويفعمه العد دون الخيال،
مليء بوباءات الدنيا ومفعم بالتسليم.

***

اعلم، انني سوف اموت ذات يوم تضرب الامطار نافذتي،
اطير في السماء منعزلا كما غراب مبلل،
اطير والتف مجروحا،
اطير واضيع في بياض الوحشة.

سيرة مبدع عرف مبكرا بأنه سيكون كاتبا



بقلم: محمد صابر عبيد

أعرف طبعاً أن العرب لا يحبذون حديث النفس، لأنه يدخل عندهم أخلاقياً في باب الغرور والنرجسية وحبّ الذات، لكنني حين قرأت ((رولان بارت بقلم رولان بارت)) وهو كتاب إيروسي في المقام الأوّل على أية حال، اكتشفت كم أن بوسع المرء أن يتحدث عن نفسه بأهمية وجدانية وروحية وثقافية وفلسفية لا تضاهى، ربما يتاح للمرء أحياناً أن يلتقي بأناس حميمين ومخلصين وقريبين جداً من النفس والروح والرؤيا والمثال، يتدربّون بحكم زمنِ التعامل والتفاعل والمحبة والثقة والصدق المُناسب على معرفته وفهمه وإدراك قيمه الداخلية العميقة وفضاءاته الواسعة، غير أن ثمة طبقات عصيّة وغائرة وغائبة ومسكوتاً عنها ليس بوسع أحدٍ - مهما كان - اكتناهها وتقصّيها والوقوف عليها وتلمّس محتوياتها بدقة ومعرفة ويقين وحسم .

لذا أنا مسرور وممتنّ لكل الأحبة

الذين قدّموا في هذا الكتاب شهادات رائعة أعتزّ بها وأفخر، وربما من حقّهم عليّ قبل غيرهم أن أقدّم لهم نفسي بقلمي، حيث بوسعي أن أتجوّل حراً في الزوايا المظلمة، والنتوءات الغامضة، والكهوف التي لا يسمح الدخول إليها، والمغاور التي تختزن الأسرار والمسرّات والخطايا الجميلات، كلما كان ذلك ممكناً ومتاحاً وضرورياً وقابلاً للحديث في الوقت الراهن على الأقل .

عرفت مبكراً أنني سأكون كاتباً ورحت أتغذى على هذا الحلم، وأرعاه بما تيسّر لي من الأماني الممكنات، وأرسم ملامحه، وأصوّر شكله، وأستعين بما تطاله يديّ من الأدوات المتاحة كي أسرّع بتحقيقه، فقرأت الكثير من الكتب التي سرعان ما اكتشفت أنها لا تسهم عميقاً في اكتشاف منطقة الحلم كما يجب، وكانت البيئة التي أعيش فيها غير معنية البتة بأحلامي، ولم يكن في محيطي من يعلمني كيف يمكن أن أعيش الحلم وأتوغل فيه وأتمكّن منه، الكلّ معنيون بنشيد العيش المرّ، يتلمّسون شمس الواقع بكلّ ما فيها من حرارة وبلادة وقهر، ولا وقت لديهم للحلم .

ربما كنت غريباً وضعيفاً ومشتتاً وهشّاً وسريع العطب، أنفقت وقتاً كثيراً ألعب بأغلب التوافه التي كانت تتوافر في ما حولي، وربما كانت رغبتي العنيفة بالمقامرة بشتى أنواعها ليست سوى تعبير عن الضيق بمحدودية ما أرى وألمس وأعي وأتخيّل، فانغمست بشتّى أنواع المقامرات من أبسطها حتى أعقدها، فكنت بسبب ذلك من روّاد المقاهي المدمنين، وتعرّضت لمطاردات من والدي الذي كان يرى في ذلك عملاً مشيناً، لكنني لشدّة ولعي فيه ظللت أمارسه بشغف ومتعة، ربما حتى وقت متأخر من حياتي حيث شعرت بنوع من الإشباع فتركته تماماً .

كنت أشعر بقوة أن لديّ ما يحتاج إلى رعاية وسقاية وعناية واهتمام وكشف، لكنّ أحداً لم يساعدني في ذلك في وقت كنت فيه بأمس الحاجة إلى من يدرك معاناتي ويشعر برغبتي الجامحة في معرفة نفسي، كنت ضائعاً لا أعرف ماذا أفعل، ثمة شيء في أعماقي يثور ويتفجر ويبحث عن مفاتيح للانطلاق يكاد يخنقني، حتى كنت لا أهتمّ بدروسي كثيراً بالرغم من أنني أنجح دائماً، أعترف هنا أن طفولتي كانت معذّبة ومرتبكة وقلقة وليست على ما يرام، كنت مهموماً بأشياء لا أعرفها على وجه التحديد، اتسمت طفولتي على العموم بالانغلاق وقلّة الفرح وكبح جماح الرغبات .

وحين عرفتْ قريتي ((زمار)) الكهرباء وصل أول تلفزيون إلى مقهى ((محمد الكامل)) الذي كان يتقاضى ((عشرة فلوس)) ثمن الجلوس وعشرة أخرى ثمناً للشاي، وحيث سحرني هذا التلفزيون

العجيب بدأتْ مشكلة أخرى مع أبي الذي كان يحرص على أن لا أتأخر ليلاً حتى يغلق التلفزيون شاشته والمقهى أبوابها، وأنا آخر من يغادر المقهى لأجد باب بيتنا مقفولاً وأضطر إلى إيقاظ الجيران كي أصعد على سطوح بيوتهم ومنها إلى بيتنا، وعلى الرغم من ذلك لا يعفيني أبي من عقوبات كانت قاسية جداً وقتها، ولم أتعب من الاستجابة لرغباتي بالرغم من قسوة العقوبات وعنفها .

ثمة مرحلة طفولة أجدها نائية جداً تتلبث في أقاصي الذاكرة مشحونة بالكثير من الضباب والظلام والغبار تسبق هذه المرحلة غير قابلة للتمييز والتعيين والاستعادة، كان فيها أبي يتعالج من مرض التدرّن الرئوي في بيروت، مع مجموعة من عمال شركة نفط الشمال في حقول نفط عين زالة، إذ ابتعثتهم الشركة إلى مصحّات هناك للعلاج استغرقت بعثتهم ربما ثلاث سنوات أو أكثر، وكان أخوالي هم من يشرفون على رعايتنا مع اهتمام يبدو لي الآن بسيطاً لا أتذكره ملياً من عمي الذي هو ابن عم والدي، لأن أبي ليس له أخوة ولديه أخت وحيدة من زوجة أبيه الثانية كانت بالنسبة لي أكثر من أمّ، وليس بوسعي الحديث عن هذه المساحة من طفولتي أكثر لأنني حين التفت إليها في الحقيقة لا أجد ما يمكن الحديث عنه على وجه الدقّة والوضوح والضرورة والأهمية .

تفتّح وعيي مبكراُ، نعم، ولكن بلا فائدة كبيرة، إذ كان هذا الوعي المتفتّح مبكراً بحاجة إلى تثقيف وتمرين وتمتين وتخصيب وإثراء، لكن شيئاً من هذا لم يحصل حتى وقت متأخر جداً، فأين هذا الذي يمكنه أن يساعدني في مجتمع لا يهمه سوى التفكير المحدود في لقمة العيش، وكان مضرب شركة حقول نفط عين زالة قبلةً لكل أبناء القرية التي ما أن يحصل أحدهم فيها على أيّ عمل - مهما كان متواضعاً أو وضيعاً -حتى يعتقد بأنه نجا وأن أبواب القدر الغامض انفتحت له، وغير ذلك كان الفلاحون ينتظرون مواسم حصاد الحنطة والشعير ليرتبوا أمورهم المعيشية على أساسها، وكم تعذّب الناس في سنوات القحط التي يقلّ فيها كرم الطبيعة ويكون شتاؤها الغادر بلا أمطار .

وهكذا ظللت ضائعاً أبحث عن شيء مفقود لا أعرف ما هو، حتى بلغت مرحلة الدراسة المتوسطة حيث عاد قبلها أبي بسنوات من رحلته العلاجية، وكنّا في وضع معيشيٍ معقول نسبياً إذ كان أبي لا يألو جهداً في أن يرتّب وضعنا على نحو مقبول، ولم يكن هذا مما يدخل في دائرة اهتماماتي كثيراً حيث كنت مشغولاً بشيء آخر، وكنت في هذه المرحلة مهووساً بالمجلات التي بوسعي الحصول عليها من أيّ مصدر كان، أقرأها بنهم ولذّة من الغلاف إلى الغلاف وكلما التقطت عنواناً لشركة أو مؤسسة أو مجلة أو نادي ثقافي

أدبّج فوراً رسالة وأبعثها بالبريد .

على هذا النحو تشكّلت علاقتي بدائرة البريد وموزّع البريد، إذ كان المكان والإنسان فيهما مصدراً أساساً من مصادر سعادتي المتواضعة حينها، وربما كانت رغبتي في الكتابة هي التي تقودني إلى تمثيلها عن طريق كتابة الرسائل بشكل مستمر، إذ كنت أكتب رسالة في كل يوم على الأقل، وانعكس هذا التدريب الفطري غير الواعي على أسلوبي في الكتابة فكنت من أفضل طلبة المدرسة في كتابة الإنشاء، وهو الدرس الذي يختبر فيه مدرّس اللغة العربية قابلية الطلبة على التعبير، وفعلاً فوجئ الكثير من المدرسين بطريقتي في الكتابة وكانوا يطلبون مني قراءة موضوعي أمام الطلبة كي يكتشفوا إذا ما كنت قد نقلته من مرجع أو كتبه لي أحد ممن يجيد الكتابة .

كتبت أول قصيدة وأنا في الصف الثالث المتوسط، أي بعمر ١٥ سنة تقريباً، ثم بعدها بقليل اكتشفت مع صديقي أحمد جدوع - الذي كان شاعراً أيضاً - نزار قباني والبياتي، ورحنا أنا وهو نكتب قصائد يومية في المدرسة، ونتبادل الأفكار التي كنا نقول عنها فلسفية، إذ هو يكتب فكرة وأنا أعلق عليها، ثم يعود هو ليعلّق على ما أكتب، وهكذا، وكنا نلمس من بعض الأساتذة المختلفين شيئاً من التشجيع، لكننا مع كل المضايقات التي كنا نتعرض لها بسبب نزار قباني أو الشعر الحديث مضينا في مشوارنا، غير أن صديقي أحمد للأسف توقّف بالرغم من أنه كان يتفوّق عليّ في موهبة أخرى يمتلكها وهي الرسم، ولا أدري لماذا كنت أحلم دائماً أن أصبح رساماً غير أن الفرشاة اللئيمة كما يبدو لم تخلق لأصابعي، وهكذا ظلّ هذا الحلم رهين رغبة خامدة لم يكتب لها التفتّح أبداً .

أنهيت دراسة البكالوريا في الفرع الأدبي الأول على دفعتي في ((ثانوية زمار للبنين)) بمعدل قارب الـ ٨٥ ٪ ، وكان هذا المعدّل يؤهلني بطبيعة الحال لدخول أية كلية مخصصة للفرع الأدبي، واخترت كلية التربية في دورتها الأولى حيث كانت كلية الآداب التي عزمت على دخولها أولاً قد توقفت عن قبول الطلبة في ذلك العام، ودخلت قسم اللغة العربية الذي كان يلائم تطلعاتي في الكتابة والقراءة الأدبية، وأقمت مع ثلة من أصدقائي الزماريين في الأقسام الداخلية داخل بناية الجامعة، وكتبت أول مقال عنوانه ((الملامح الصوفية في شعر البياتي)) نشرته لي مجلة الجامعة التي كانت منبراً ثقافياً مهماً في الزاوية الطلابية، وقد تقاضيت عليه مبلغاً قدره خمسة دنانير يمكنه بكل بساطة أن يغطي نفقاتي البسيطة مدة أسبوعين، واستمررت في ذلك، ووجدت فيما بعد مجالاً آخر للنشر مقابل مكافأة جيدة في جريدة ((الحدباء))

الثقافية الموصلية التي نشرت لي عشرات المقالات والقصائد، وهكذا وجدت شيئاً من ضالتي.

كانت ثمة مسابقة ثقافية مهمة لطلبة الجامعة مخصصة لكتابة البحوث الأدبية، اشتركت فيها أول مرة وأنا طالب في السنة الثالثة ببحث عنوانه ((الليل في شعر البياتي))، وفاز بالجائزة الأولى، ونشره بعد ذلك أستاذي الدكتور عمر الطالب- الذي كان يرعاني بقدر علاقة الأستاذ بتلميذ جيد - في متن مجلة الجامعة بوصفه مديراً للتحرير، وتسلّمت عليه شيكاً بمبلغ خمسين ديناراً، وكان هذا المبلغ بالطبع ثروة، ثم في السنة الرابعة اشتركت ببحث عنوانه ((اللون في شعر نزار قباني)) فاز أيضاً بالجائزة الأولى ونشر في مجلة الجامعة على حلقتين، وظلّ هذا الموضوع الخاص بشعرية نزار قباني اللونية يلاحقني، وحين عقدت صداقتي مع نزار قباني وعدته أن أحوّل هذا البحث إلى كتاب لكنني لم أفِ بوعدي، وعوّضت ذلك أن أعطيت الموضوع لأحد طلبتي لينجز فيه رسالة ماجستير بالعنوان نفسه، وقد أكون وفيت بوعدي على نحو ما .

عيّنت مدرساً للغة العربية فور تخرّجي نهاية عام ١٩٧٩ في الثانوية التي تخرجت فيها، فقد كنت الأول على الكلية وكان بوسعي اختيار أفضل مكان للتعيين، وسعيت في الثانوية إلى أن أنجز جزءاً من مشروعي في الكتابة والتفكير والرؤية والحلم، واستجاب الكثير من طلبتي لمشروعي، كنت أدرّس بطريقة مختلفة لم يألفها الواقع التدريسي هناك، حتى أنني في إحدى المحاضرات - وبجرأة غير مسبوقة - جلبت إلى الصف الخامس الأدبي السيمفونية الريفية لبيتهوفن، شرحت لهم حركاتها بالتفصيل ثم أسمعتهم إياها كاملة داخل الدرس، وكنت أجلب لهم الكتب الحديثة وأطالبهم بالقراءة والاستمتاع والتحليل، وحين ألتقي الآن بعض طلبتي في تلك المرحلة ممن كان تأثيري فيهم ظاهراً وجوهرياً أفخر كثيراً بأنني أنجزت شيئاً - ولو بسيطاً -كنت أحلم به وما زلت.

في عام ١٩٨٢ حيث كنت جندياً في مدرسة ضباط صف المشاة في الموصل بعد ثلاث سنوات تأجيل من الخدمة العسكرية لغرض التعيين، أخبرني أحد الأصدقاء أن اسمي ظهر في قائمة المقبولين لدراسة الماجستير في كلية الآداب في جامعة الموصل، وكان فرحي لا يوصف إذ تخلصت من حياة الجندية القاسية جداً، وفي الوقت نفسه حظيت بفرصة التعبير عن ذاتي في فضاء كنت أحلم به، وكانت الفرصة مواتية أيضاً لأكون عنصراً أساسياً من عناصر الحضور الثقافي في المدينة، وتعرّفت على نحو جيد على معظم أدبائها، وأسهمت سنوات عدّة في قيادة فرع اتحاد الأدباء

في المدينة مسؤولاً عن النشاط الثقافي فيه، وبدأت أتمثّل نفسي على نحو أكثر قيمة وحيوية ونشاط ورؤية وحضوراً من ذي قبل، وصار لي اسم أدبي في مجال النقد الأدبي خاصة، ليس في مدينة الموصل فقط بل في بغداد أيضاً، وكنت أحضر برفقة أصدقائي من أدباء الموصل معظم النشاطات الثقافية التي تحصل في العاصمة وعلى رأسها مهرجان المربد .

بدأت النشر في صحف ومجلات بغداد كافة، وبدا اسمي يلفت الانتباه، وقد أغراني هذا بالانغماس في لذّة النشر وعوائده المادية التي كانت حينها جيدة، وكنت من أكثر زملائي حضوراً في المشهد الثقافي على صعيد النشر، وحين عدّت فيما بعد لتفحّص نتاجي المنشور لم أحتفظ منه إلا بالقليل الذي وجدت أنه يمكن أن يمثّل صوتي ويكون جزءاً من تراثي، وأهملت الكثير الآخر الذي وجدته بعد التأمل ليس سوى نتيجة طبيعية لفورة فرح النشر الأولى، لكنني لم أندم عليها إذ هي على أية حال كرّست اسمي على نحو ما وكانت سبباً في تعرّف الكثير من الأوساط الأدبية عليّ .

وبالرغم من حيوية هذا الوسط الذي أخذني إليه بقوّة إلا أن شيئاً ما في أعماق ذاتي كان يناديني باتجاه آخر، لم أكن أعي أو ألتفت كثيراً إلى هذا النداء العميق، ربما لأن وضعي لم يكن آنذاك مؤهلاً للاستجابة المطلوبة، غير أن هذا النداء كان يقلقني ويطرح عليّ أسئلته التي كنت أتهرب من مواجهتها على نحو ما، لذا فقد كنت دائم التأجيل للنظر المعمّق في معنى هذا النداء وقيمته وإيقاعه الهادر، وانشغلت حتى عام ١٩٨٧ - سنة ظهور اسمي في مرحلة الدكتوراه في كلية الآداب أيضاً - بهذا الفضاء الملتبس وغير المجدي لي كثيراً، واستمررت بالأسلوب نفسه حتى حصلت على الدكتوراه صيف عام ١٩٩١، وكنت قبل ذلك بعام قد أوفدتني جامعة الموصل إلى القاهرة لمدة شهر للحصول على المصادر غير المتوافرة لغرض أطروحتي للدكتوراه، وكانت فرصة أخرى مهمة لي ساعدني فيها الصديق الشاعر أمجد محمد سعيد الذي كان مديراً للمركز الثقافي العراقي في القاهرة، ونظّم لي محاضرة عن النقد العراقي الحديث غطتها كل الصحف المصرية وحضرها الكثير من الأدباء المصريين وحفلت بنقاشات طويلة ومعمّقة، ووصفتها القاصة العراقية المقيمة في القاهرة بثينة الناصري في عرض موسّع بأنها أكثر محاضرة حظيت باهتمام جمهور الحضور على نحو مثير فاجأها، كان لهذه الزيارة حقاً أكبر الأثر في تمتين علاقتي بذلك النداء الذي ما ينفك يندلع في مخيلتي ويتردد في أعماقي بلا هوادة لاكتشاف ذاتي .

تمّ تعييني في كلية التربية للبنات

في جامعة تكريت حتى قبل أن أناقش أطروحتي للدكتوراه، وباشرت في الكلية منتصف شهر تشرين الثاني تقريباً من عام ١٩٩١، ودرّست السنة الرابعة مادتي الأدب الحديث والنقد الحديث، وليس بوسعي طبعاً في هذه المناسبة أن أتحدّث عن تجربتي الثرية الخصبة الآسرة والشائكة في هذه الكلية، بكل ما شابها من التباس وتعقيد وتداخل وحسد وغيرة وربح وخسارة وليل ونهار وحلم وواقع وجنون وحيرة وضباب وغبار ونار ونور وحب وكره وصداقة وعداء وصفاء وغيم ومطر وبرق ورعد وتفاهة وحساسية وخبث ونذالة وفقدان وحماقة وكل شيء تقريباً، لأن ذلك بحاجة إلى كتاب كامل قد تتاح لي فرصة وضعه في قابل الأيام، وربما يكون صديقي المبدع فرج ياسين قد أتى على جزء يسير منه في شهادته اللمّاحة عني .

لكنّ تجربة عشرين سنة في جامعة تكريت حصل فيها ما يحكي تجربة حياة كاملة تقريباً ملغومة بالفتوحات والمسرّات والخيبات ليس من السهل احتواؤها في شهادة تتقدّم كتاباً تكريمياً نقدياً عن مسيرة التجربة، إذ من حقّها عليّ أن أقدمها في كتاب كامل أو ربما رواية، عشرون سنة أخذت مني الكثير وأعطتني الكثير، وأحسب بقدرٍ مناسب وضروري ومقصود من الغرور القَول إن غباري الملوّن في أرض الجامعة وسماء المدينة معاً متناثر في كل الأرجاء، وليس من السهل التخلص منه، أو محوه، أو التقليل من خطورته وسطوته، مهما ظنّ وتمنّى ودعا من يقلقه هذا الغبار، ويزكم أنفه، ويحجب عن عينيه المريضتين مسار الرؤية بوضوح وواقعية .

وعلى الرغم من أنني كنت أتمنى أن يأتي تعييني في جامعة الموصل، إلا أنني سرعان ما تقبّلت الأمر وسعيت إلى أن أواصل حلمي في مشروعي الأدبي والثقافي والأكاديمي، ومع ذلك لم تكن الأمور ميسّرة على النحو الذي يسمح لي بالتحرّك الحرّ كيفما أشاء، لذا خفّ حماسي بعد ذلك بقليل وانتبهت إلى نفسي وأصغيت بعمق ومحبة ورحابة وتأمل هذه المرّة للنداء الذي لم تخفّ جذوة حماسه مطلقاً، وكان أن حصلت نهاية عام ١٩٩٤ على لقب أستاذ مساعد، وفتحت كلية التربية للبنات أبواب دراسة الماجستير، وأعترف هنا على وجه الدقّة أن هذا العام بظروفه المثالية هذه أتاح لي لأول مرّة اكتشاف ذاتي لأعرف بالضبط أين أنا، وماذا أريد .

يا إلهي كم تأخر هذا الأمر، لكنني لم التفت إلى الخلف - كعادتي دائماً - ورحت أسابق الزمن لأضع هذا الاكتشاف المدهش موضع التنفيذ والإنجاز، وعملت في هذه الأثناء على أول كتاب لي نشرته على فصول هو ((السيرة الذاتية الشعرية))، واشتركت

فيه عام ١٩٩٨ في مسابقة الشارقة للإبداع العربي في دورتها الثانية، وفاز بالجائزة الأولى، فعرفت حينها أنني أدركت الطريق ورأيت الضوء في نهاية النفق كما يقولون .

أعترف أن عام ١٩٩٩ عام التسعات الثلاث هو عامي، إذ بدأت ألفت الانتباه بقوّة إلى اسمي على صعيد عربي - في الأردن وسوريا خاصة - إذ نُشرت لي عشرات المقالات المهمة في صحف ومجلات البلدين وبكثافة ظنّ الكثير من قرائي فيما بعد أنني أقيم فيهما، بالرغم من أنني كنت أبعث مقالاتي بالبريد العادي حتى وصفني أحد الأصدقاء بأنني كاتب شبه يومي في الصحافة الأدبية الأردنية، وانفتحت بعدها على المجلات الأدبية الأخرى في الوطن العربي، وبدأت أراسل بعض الجامعات العربية للإسهام في مؤتمرات علمية تقيمها، وقد أصبت أكثر من مرّة بالإحباط حين لم أتمكّن من السفر بسبب صعوبة الإجراءات وتعقيد الموافقات الأمنية والرسمية، ولم أفلح في السفر لهذا الغرض حتى عام ٢٠٠٢ حيث أسهمت في مؤتمر ((التجربة الشعرية السورية الحديثة)) في جامعة تشرين في اللاذقية، وكنت بلا أدنى تواضع أحد نجوم المؤتمر على الأصعدة كافة، تعرفت في هذا المؤتمر على البحر وعلى حورية البحر، وكانت فرصة ثمينة وغالية لن أنساها ما حييت .

غادرت بعد نهاية المؤتمر إلى دمشق مع أصدقائي الجزائريين الذين تعرفت عليهم وأحببتهم جداً، إذ قضيت ثلاثة أيام قبل أن أغادر إلى عمّان للإسهام في مؤتمر جامعة جرش، وقد استغرقت سفرتي عشرين يوماً عدت بعدها إلى الموصل من عمان مباشرة، وبعدها توالت السفرات والمؤتمرات بكثرة وكأنني كنت متعطشاً لهذا النشاط الجميل الذي أثراني كثيراً، واتسعت دائرة النشر - كتباً ومقالات - حتى أصبحت من أنشط أصدقائي في هذا المجال، إذ نشرت حتى الآن أكثر من عشرين كتاباً وأسهمت في أكثر من ستين مؤتمراً وندوة وملتقى في الكثير من البلدان العربية والصديقة .

بهذا الانفتاح على الفضاء الثقافي ضاق اهتمامي بالجانب الأكاديمي الصرف في حياتي، فقد وجدت نفسي خارج الجامعة لا داخلها، وذلك لأن الجامعة ظلّت تتعثّر بأفقها الضيّق المدرسي المحدود، ولم تكن تنظر إليّ وأنا أحقق هذه النجاحات بالقدر الكافي من الضوء فأهملتها، وسعيت بأساليب كثيرة إلى أن أحدد عملي الأكاديمي بأقل جهد ممكن، حتى وصل في السنوات الأخيرة إلى أن أدرّس مادة واحدة في مرحلة الدكتوراه وأقدّم محاضراتي مرة كل أسبوعين، وهكذا كانت علاقتي بالجامعة ضعيفة إلى أقصى حدّ، وبالمقابل لم أكن أنا وبكل ما أنجزته أعني شيئاً بالنسبة للجامعة، حتى أنني فزت بالجائزة الأولى في مسابقة الشارقة للإبداع العربي في مجال

النقد الأدبي، ولم يقل لي أيٍ مسؤول في الجامعة كلمة مبارك أو شكراً، وحين قرأت في الصحف الأردنية أن ملك الأردن استقبل الشاعر الأردني الذي فاز معي بجائزة الشعر وكرّمه عرفت كم أنا غريب، وفزت بعدها بجوائز أخرى عن أعمالي النقدية والشعرية وبقيت جامعتي غير مكترثة بذلك مطلقاً .

ومع كل بعدي عن الجامعة وغربتي فيها لم أكن مرغوباً سوى من بعض زملائي القلائل جداً الذين يفهمون نغمتي ويفكرون معي على الموجة نفسها، وثلة من طلبتي الأذكياء الذين كنت أتحمّل قسوة الجامعة وظلمها لأجلهم، ولم أكن أحسب لذلك في جوهري أيّ حساب، فثمة قوانين راسخة في الحياة تؤكد أنني الرابح في النهاية والجامعة هي الخاسرة حتى وإن أدركتْ الجامعة خسارتها بعد حين، وأنا هنا بطبيعة الحال لا ألوم أحداً قطعاً، فالكلّ كان يدافع عن أنموذجه بقوّة وعنف وشراسة وقسوة، لكنني في أعماق هذه العاصفة الصفراء التي ما برح الكثير من الصغار يديمون ما تيسّر لهم من غبارها اللعين كنت الأقوى حضوراً، وظلّت سمائي صافية وقمري مضيئاً ونجومي أكثر بريقاً ولمعاناً وتحدياً، على النحو الذي بقي اسمي الأصيل فيه يستلقي على المتن برحابة وألق وهيمنة وسحر وإثارة، فيما انحشرت أسماؤهم المتآكلة الطارئة في فضلات الهوامش المهملة بلا ملامح .

اليوم بعد أن نَقلتُ بيسرٍ عجيب - بلا وداع ولا ألم ولا دموع ولاً دعوات - كامل أمتعتي وحوائجي وفضائي وقلبي وطموحاتي ومشاريعي إلى جامعة الموصل، وقد تركت ورائي عشرين سنة حافلة بالغيم والغبار في رحاب جامعة تكريت مرّت كطيف غائم دبق جمع الأخضر واليابس، الغثّ والسَّمينً، الصيف والشتاء، العلقم والعسل، الزمن والمكان، الطعنات والقبلات، الهزائم والانتصارات، في قارورة شفافة واحدة، بوسعي أن أدير ظهري قليلاً من أعلى القمّة التي أتربّع عليها فوق هرم كتبي الذي يشقّ بهاؤه عنان السماء يوماً بعد آخر، بوسعي أن أتأمل ما تركته من ظلال دافئة مخضلّة بالحنين مرّت عليها أقدامي الحافية الحانية، وأشجار ذكية وعاشقة حجبت روحي عن عيون المتلصصين، وزوايا خفية مضمّخة بالطراوة والعبث والجنون الجميل ستبقى تنطق باسمي أبد الدهر، وضمائر ميّتة ستندم ذات يوم على أنها قطعت ببربرية وحشية جدائل الشمس، وصغار لن يكبروا يوماً ما لأن الله خلق واحدهم قزماً لن تنفعه أية عملية تجميل يمكن أن ترفع رأسه المتدلّي قليلاً إلى أعلى، وسحليات صغيرة غبية وعمياء لم تُخلق إلا كي يدوس عليها الآخرون، لكنني بالمقابل تركت مروجاً خضراء متموّجة تعبق

بالموسيقى، لا تكفّ عن العزف والغناء والفرح والرقص والجنون، وينابيع أصيلة لا أحسب أن مياهها النقية الزاهية ستجفّ يوماً ما، وحسبي ذلك .

لست نادماً مطلقاً على شيء، فكل نجاحاتي مقيّدة باسمي، وكل إخفاقاتي أيضاً، كل فتوحاتي ممهورة بختمي، وكل حماقاتي مدوّنة بأمانة وثقة في سيرتي، لن أتنازل عن شيء مما عرفت وخضت واخترقت وربحت وخسرت، كلها أسهمت في صنعي على النحو الذي أريد وأتطلّع، وكلها أسست لتاريخ ساطع يحق لي أن أفخر به وأتباهى، فدمي الآن أكثر غزارة وحرارة وجبروتاً وإضاءة، وكذلك عرقي، رغبتي في الحياة أوسع وأعمق وأكثر حضوراً وتألقاً، زرت بلداناً كثيرة وعرفت نساء كثيرات، زرعت أشجاراً لا حصر لها في بطون الوديان وعلى سفوح الجبال، احتسيت الكثير من دموع الملكات المعتّقة وأكلت الكثير من التين البرّي الباذخ المذاق، ولم أكن أبداً يوماً ما من صيادي الحظائر، فالبرية دائماً هي ساحة صيدي وملعبي، وعلى هذا فإن دمي لا يحوي قطرة واحدة فاسدة ولا مزوّرة، وجسدي ينتمي بكليته إلى الطبيعة الحرّة التي لا تتغذى إلا على الطازج البكر .

سيميائية الأصوات في النص الشعري

أ.د.ظاهر لطيف كريم
أ.م.د.نيان نوشيروان فؤاد
جامعة السليمانية / كلية اللغات

لقد ذهب النقاد الى أن الوحدات الصوتية تتعلق بنظام البنية السطحية وليست العميقة ، باعتبار ان للاصوات قوانين ومقاييس محددة لايمكن تجاوزها، في حين ان هدفنا في هذه الدراسة هو تفسيرية او تحليلية الاصوات بحسب مواقعها نفسيا او شعوريا، او بحسب العناصر الايقاعية التي ترافق الكلمة او المفردة وفي بعض الاحيان المقطع.. واكثر من ذلك ان النبر ودرجة تردده والتنغيم قد يؤديان الى تعددية الدلالات والمعاني اعتمادا على ارتفاع وانخفاض درجة التردد، لان الكلام البشري محكوم بصفات مادية وانطباعات نفسية ومدى قدرة الاذن البشرية على ادراكه (٧ أ: ٢٩٧)، لأن النظام الصوتي بالاساس يخضع الى عملية التردد والاتساع والضغط والشكل او يعامل درجة الاحساس السمعي بالتردد او العلو او الاحساس السمعي بالاتساع او الشدة او الاحساس السمعي بالضغط stress (٧-أ: ٥٥). والقصد من هذا النبر هو زيادة الضغط من الصوت او المقطع لتحقيق غرض قصدي معين. بهذا ان النبر بانواعه الثلاثة الاساسية (الرئيسي، والثانوي، والضعيف) هو سمة صوتية وظيفية لها قيمة دلالية في التوجيه اذا استطاع ان يحقق الغرض القصدي (٧-ب: ٣٦٤).

اما التنغيم فهو عملية مستويات الارتفاع والانخفاض في الدرجات النغمية او الصوتية في الكلام بأنه ، كما جاء عند ابراهيم انيس ، هو "موسيقى الكلام" (١: ١٧٦). اضافة الى ذلك

ان التنغيم من الاساليب التي تدخل في مستويات الدلالة في اللغة، فمثلا ان كلمة "الشاعر" تؤدي عن طريق التنغيم معاني عديدة منها "شاعر عظيم" ومنها "شاعر غير عظيم"! شاعر يعلم بمقاييس الشعر والشاعر الذي لا يعلم بمقاييس الشعر.
ان قراءة الشعر من قبل الشاعر يعد امرا غير مقبول في المجتمع الحديث لان سيميائية الكتابة كعلامات الترقيم والاشارات والفضاءات والفراغات وشكل الكتابة الشعرية، تشكل تنغيما دلاليا من قبل المتلقي وبخاصة النموذجي منه. فاذا كان علم الدلالة (السيمانتيك) يهتم بجوهر الكلمات ومضامينها فان اللسانيات تهتم بشكل هذه الكلمات لان هناك علاقة طبيعية بين اللفظ منذ امد بعيد كما عند افلاطون وسقراط وحديثا عند سوسير لأن هناك علاقة اعتباطية بين الفونيمات او هناك رابطة عقلية ومنطقية بين الاصوات التي تسمى بالرمزية الصوتية كما امن بذلك ابن جني في الخصائص. وطالما ان اللغة هي تنظيم وظيفي للتعبير عن حالاتها الادائية فان الالسنية منذ تاسيس البنيوية تهتم بدراسة الاصوات ودلالاتها اللغوية بذاتها لان اللغة في قاعدتها تقوم ببيان الظاهرة الصوتية بوصفها وحدات مميزة تنتج عنها عديد من الكلمات ذات دلالات مختلفة. ولايمكن تحديد ذلك الا عن طريق الفونيوم، والفونيوم كما هو معلوم نوعان الاول segmenal قطعي والذي يشمل الصوامت والصوائت والثاني suprasgmental فهو قطعي ويشمل النبرات والفواصل والنغام، اي ان الفونيوم الذي هو اصغر وحدة صوتية، يستطيع ان يفرق بين المعاني . ان كثيرا من الالفاظ تتحد من حيث مكوناتها وتختلف في وحدة صوتية صغرى فتتغير بموجبها معنى هذه الالفاظ . اكثر من ذلك، ان حاسة السمع هي في قمة الحواس لانها تستطيع ان تؤثر على الحواس الاخرى و ان تحل محلها والعكس هو الصحيح، اذ لابد للاصوات ان توحي بمختلف الاحاسيس الحسية والشعورية لولاها لتحولت الاصوات الى رموز ثابتة ومستقرة دلاليا. فمثلا عنما نسمع صوت الكلب فانه يؤشر الى مجموعة من المؤشرات وان تعددية هذه المؤشرات توسع قدرة الاحاسيس والانفعالات وادراك الحالات الشعورية كما نجد في وفائه وبكائه وحزنه والتزاماته.. فهذا الامر لايحافظ على تصنيف مخارج اصوات الحروف بحسب مخارجها ولا على تصنيف الحروف الحسية والشعورية باعتبار ان الحروف اللمسية تتعلق بـ(ت، ث، ذ، د، ك، م) والبصرية بالالف المهموزة واللينة (ب، ح، س، ش، ط، ظ، غ، ف، و، ي) وهكذا.. وهذا يعني ان هناك اصواتا تؤدي وظائف اخرى او انها غير مناسبة لتحديد معنى معين لانها تتطور بتطور الفكر البشري في استخداماته اللغوية على عكس ما ذكره اصحاب كتاب "أساسيات علم الكلام" عندما قالوا بان: (اول ما يجب فهمه بشأن الصوت هو انه ليس

له مادة تؤلفه، انه لاشيء فليس له كتلة او وزن، انه عبارة عن مجموعة من الحركات او الاضطرابات يمكن ان تحدث موجة صوتية من اضطراب في غاز الهواء مثلا، وفي سائل الماء او حتى في الاشياء القاسية كانبوب او سكة حديدية) (٣: ٤٥) . فهذا الفعل مشابه لما قاله صاحب "دلائل الاعجاز" بان الحروف هي قوالب في النطق في نظمها لمقتضى من معنى (٨ : ٥١)، والتفسير نجده عند سوسير عندما يؤكد بان (الكلمة ليست الا اشارة وان معناها اعتباطي صرف) (١٦٠:٤) . الا ان الحروف سواء اكانت عربية او غير ذلك تعتمد منذ الانطلاقة العفوية على الحاجات والمعاني. فمثلا ان خاصية الشدة في صوت (الدال) وخاصية التحرك والترجيع والتكرار في صوت (الراء).. وخاصية الاهتزاز والاضطراب والتشويه في صوت (الهاء) لايمكن فهمها الا بعد تأمل هادئ عميق (٢٨:٥) . لان للصوت موجات توافقية وغير توافقية (عشوائية) وانه في الوقت نفسه يحظى باكبر قدر من المستوى البعيد والمعنى لان عدد خطواته هو الدال على قوة الاسماع للمتلقي، اذ ان هبوطية او صعودية الاصوات تحدد مفهوم العبارة على الرغم من انها تعطي نتائج تقريبية طالما ان الصوت هو خبرة حسية في الدماغ تنتقل اليه عبر الاعصاب السمعية للاذن (٦: ٤). بمعنى اخر ان الوحدات الصوتية يجري عليها الصعود والهبوط، السكون والحركة بحسب اختلاف موقعها من الحالات النفسية والانفعالية. (١١: ١١٨).

والشيء الذي يهمنا بعد ذلك، ان نذكر باننا عندما نسمع كلمة نجد انها ذات وقع موسيقي نشعر للوهلة الاولى بشيء من معنى. فمثلا ان مفردة (حزين) تساهم في رسم الصورة الكلية للقصيدة وان الاصوات التي تجتمع حول هذه الكلمة تاتي دائما لاسناد هذه المفردة كما ادرك ذلك ابن جني عندما يقول: (ان كثيرا من هذه اللغة وجدته مضاهيا باجراس حروفه اصوات الافعال التي عبر بها عنها، الا تراهم قالوا: "قضم" في اليابس و"خضم" في الرطب وذلك لقوة القاف وضعف الخاء، فجعلوا الصوت الاقوى للفعل الاقوى والصوت الاضعف للفعل الاضعف) (٢: ٦٦).

من هذا المنطلق، ان لكل صوت دلالة كاختلافية الارقام باختلاف مواقعها العددية، الا ان هذا لا يعني ان للاصوات دلالة واحدة بل ان وجوه المعاني تتسع باتساع قراءتها البنائية حتى ان المجتمعات البشرية، قديما، كانت بحاجة الى تفسيرية الحروف واصواتها للدلالة على معنى. هذا النوع من المعنى كان يؤدي صورة واحدة من المعنى وليس اكثر، الا انها في عصر البنيوية، تعددت المعاني... بتعبير ادق، ان الاصوات كالالوان او نغمة موسيقية تعطي كل واحد منها دلالة او عدة دلالات ممكنة. فمثلا ان لصوت (الباء) علاقة بالبندقية والقنبلة لانها من الاصوات الانفجارية. فالتلقي في نظريته هي التي

تحاول كشف اشتغال هذا الصوت وصولا الى تحديد تقريبي للمعنى وتقويض مبدأ الايمان بالملفوظ اللساني في عملية النطق الصوتي.. من خلال هذا الأمر ، فان تصور المتلقي للاصوات هو التصور الاقرب الى مفهوم دلالة الاصوات واعادة انتاجها والألتسام بتنوعها وتحولاتها لان تحديدية الاصوات ودلالاتها قراءة الحدس بل عمدت على القدرة المعرفية الواعية واستثمار مرجعيات متنوعة.. في كل هذا نجد ان علاقة الاصوات والمعنى تتضح من خلال:

أ-الاداء الصوتي والنفسي للكلمة.

ب-اصوات الكلمة ونبرات حروفها.

فمثلا عندما نقول: "انت شاعر عظيم"، فهذا التعبير من خلال نوعية القراءة وكيفية النبرة الصوتية له عدة معان، قد يكون مدحا وقد يكون ذماُ. والمثال للحالة الثانية ان مفردة (الحزن) كما جرت بنا سابقا، من خلال موسيقية الظواهر الصوتية: الحاء والزاي والنون، يدل على جمع متصل او متوقف على الرغم من وجود مسافات صوتية قياسية بين تلك الاصوات..

بمعنى ان هذه المسافات تتقرب باتجاه المعنى ومقاربته بالمعاني الاولى في النص.. اي على الرغم من وجود تقارب صوتي على مستوى المخارج، الا ان هناك علاقات تجاورية بين الاصوات على شكل اتفاق المعنى حتى ولو كانت هناك مسافات صوتية داخل المفردة الواحدة كما في مفردة (الحزن) فاصوات هذه المفردة تجمعها صفة كلامية كاجتماع tom مع jerry بانه يدل على المحبة والصداقة تارة والعداوة والمنافسة تارة اخرى.. هذا يعني بان الحروف تتقارب وتتجاور بعضها ببعض بحيث ان صوت (س) يساوي صوت (ص) في الوظيفة والعمل الدلالي.

التطبيق:

النموذج الأول : قصيدة نازك الملائكة (١٩٢٣ : ٢٠٠٧) بعنوان "أغنية" (١٢ :٢٣٢-٢٣٥) :

اسكني يا أغاني الأمل
فالهوى قد رحل
و انطوى سره في مقل

رصفت بالملل
* * *
أين أين ترى تذهبين
في سكون السنين
و الطريق الذي تسلكين
صامت لا يبين
* * *
و لمن تخلقين العطور
و الليالي تدور ؟
و لمن دفؤك المسحور ؟
للدجى ؟ للقبور ؟
* * *

و لمن أنت و المنشدون
رحلوا في سكون ؟
و الأسى ، يا أغاني ، ديون
دفعتها عيون
* * *
كم ملأنا بك الأقداح
و سقينا الرياح
كم منحناك للأشباح
في رضا و سماح
* *
فابحثي في شعاب الوجود
عن هو انا الشرود
كفنا نديت بالوعود
و هو ليس يعود

من خلال سيميائية اصوات العنوان (اغنية) نجد ان صوت الهمزة هو من اصوات الجهر والشدة والاستفال والانفتاح والاصمات، فالجهر يقع في بداية الكلمة، او في بداية القصيدة، وذلك للاعلان والظهور-اي اعلان شدة الانفعال والحدث- فهذا الصوت وقوة الاعتماد عليه، يؤدي الى انحباس النفس وهذا ربما لجذب المتلقي الى الفحوى الدلالي للقصيدة.
اما الشدة فهي انحباس الصوت ايضا مع قصر زمن نطقه، وهي تدعم الصفة الاولى للصوت (المجهور)، حيث انهما اجتمعا للتاكيد على فعل الاعلان وقوة الانفعال.
اما الاستفال فهو جاء لترقيق الصوت وانخفاض اللسان وهذا يؤكد على عدم قدرة الشاعرة لاستعلاء الصوت لأنها بداخلها تعاني من ازمة. من هنا نجد اضطرابا لدى الشاعرة بين الاعلان في الحنجرة وعدم الاعلان في طرف اللسان كأن الصوت يخرج بصورة تلقائية لا ارادية. اي الصراع بين الحنجرة واللسان او قوة الاعلان وعدم الاعلان. بمعنى ان جهاز النطق عند الانسان بصورة عامة مرتبط بالانفعالات النفسية.. هنا ان اول ما يبدأ عند الشاعرة هو الانفعال النفسي، ثم يؤثر على جهاز النطق، ثم تاتي الاصوات ومحصلتها هي بناء القصيدة..
اما الانفتاح في الصوت وعدم انحباسه هو محاولة الشاعرة ثانية لخروج الصوت من اجل التعبير عن شيء ما! لأنها لاتستطيع كليا اخفاء حقيقتها الانفعالية. ومن جانب اخر، بامكاننا ان نقول بان الشاعرة لم تحسم الموقف، بل هي مترددة في اعلان الموقف او عدم اعلانه. ويؤكد ذلك صفة الاصمات من خلال صعوبة النطق الصوتي.. والدليل على ذلك وجود الهمزة في المفردة التي تعنى صراعا بين (نعم وكلا) او اقول ولا اقول.. اما صوت الغين فهو من اصوات الجهر والتوسط والاستفال والانفتاح والاصمات، حيث ان الجهر هنا يدعم الجهر الموجود في صوت الهمزة لانه يعطي زخما قويا لجذب المتلقي.
والتوسط هو عبارة عن اخراج الصوت بين الشدة والرخاوة، اي هو الصوت الواقع بين الجريان والانحباس كالظل تماما وعدم التاكد من اعلان الموقف. ان صوتي الهمزة والغين متشابهان تماما في معظم الصفات سوى صفة واحدة وهي الشدة في الهمزة والتوسط في الغين وهذا يحقق تدرجا نفسيا باتجاه التحول الى معرفة الموقف وذلك عن طريق انتقالية الصوت من الشدة الى التوسط.

اما صوت النون فهو من اصوات الجهر والتوسط والاستفال والانفتاح والاذلاق والغنة.
ان اصوات الجهر والتوسط والاستفال والانفتاح جاءت مدعمة ومساندة للاصوات الاخرى، اما وجود صفتي الاذلاق مع الانفتاح يعطي اختلافا من خلال تدريجية خروج الصوت ومحاولة الشاعرة للبوح بمشاعرها. فالاذلاق يعني سهولة النطق في اللسان كأن انفكت

عقدة لسانها لفترة وجيزة.
اما الغنة فهي صوت الرنين ويخرج من الخيشوم ولا عمل للسان فيه.. وهذا يعني مشاركة اكثر من عضو وهو الانف في عملية الاستجابة النفسية والانفعالية والصوتية.. والرنين هو التردد الصوتي ويحدث صدى فيه.
اما الياء فهو من اصوات الجهر والرخاوة والاستفال والانفتاح والاصمات والخفاء واللين. والرخاوة تعني جريان الصوت دخول زمن النطق كما جاء ايضا الهاء-الصوت الاخير. وهذا يدل على اندفاع الشاعرة باتجاه الموقف. وان وجود صفة الخفاء في الصوتين الياء والهاء-تاكيد على اخفاق الشاعرة مرة اخرى في الكشف عن مساحة الموقف واسرارها بصورة كاملة.. واللين يعني مرونية الخطاب كما مبين كل ذلك في الجدول ادناه (٩ : الكتاب كله)

أ	الجهر	الشدة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	
غ	الجهر	التوسط	=	=	الاصمات	
ن	الجهر	التوسط	=	=	الاذلاق	الغنة
ي	الجهر	الرخاوة	=	=	الاصمات	الخفاء-اللين
ه	الهمس	الرخاوة	=	=	الاصمات	الخفاء

ان احصائية الاصوات في العنوان والجدول اعلاه كما يأتي:
الجهر : اربع مرات
الهمس: مرة واحدة
والتاكيد على الجهر بهذا العدد الوافر يعطي تجمعا انفعاليا لمشاعر الشاعرة منذ بداية قصيدتها.
الشدة: مرة واحدة
التوسط: مرتان
الرخاوة: مرتان
الشدة في البداية تعني انحباس الصوت وقصر زمن نطقه وذلك من خلال تحقيق التركيز وصعوبة الخطاب ثم نلاحظ تدرجا طبيعيا الى مبدأ التوسط، حيث الصراع الداخلي

بين انحباس الصوت وجريانه او بين اعلان الخطاب وعدم اعلانه وصولا الى الرخاوة ، و التوصل الى الجريان الصوتي وطول زمن النطق (التوصل الى الخطاب تدريجيا). من هذا المنطلق لايمكن تبديل مواقع الصفات كأن نضع الرخاوة موقع الشدة او التوسط والعكس هو الصحيح..

اما الاستفال: فخمس مرات بلا تغيير حيث ان انخفاض اللسان وترقيق الصوت دلالة الحزن وعدم المقدرة النفسية والثبات لاستعلاء اللسان بفعل انكسار الحالة النفسية.

اما الانفتاح: فخمس مرات، حيث ان انحباس الصوت يدل على شدة حاجة الشاعرة للتعبير عن انفعالاتها النفسية وعدم انحباسها في دائرة ضيقة، اذ ان هذا الموقف قد وصل الى حد المرونة للاعلان عن الموقف وانفجاره.

اما الاصمات: فاربع مرات والاذلاق: مرة واحدة

اذ انه على الرغم من اندفاع وانفتاح انفاسها الا انها تلقي حاجزا نفسيا لبيان الموقف وذلك من خلال عائقية اللسان (الاصمات). من هنا، جاء الاذلاق (سهولة النطق) منحبسا في منطقة الوسط، حيث كأنه لا قيمة له، لأنه لا يستطيع ان يتحرك ما بين الاصمات التي وقعت بينها لان الاحمات تمثل مركزا قويا للتعبير بسبب عددها الواقع ما بينها وبين الاذلاق. وهذا يعني ان الشاعرة تعيش في حالة الصراع النفسي المرير.

اما صوت الخفاء: فمرتان، اذ ان الشاعرة مترددة في موضوع الاعلان والأعلان.

اما صوتا الغنة واللين فقد وردا مرة واحدة وهذا قليل جدا مقارنة بالصفات الصوتية الاساسية الاخرى.. وهو تاكيد على صعوبة وتعقيد الحالة النفسية للشاعرة.

اما الخطاطة السيميائية للاصوات في السطر الاول من القصيدة فهي على النحو الاتي والتي تبدأ بلفظة (اسكتي):

أ	الجهر	الشدة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	
س	الهمس	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الصفير
ك	الهمس	الشدة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	
ن	الجهر	التوسط	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق	الغنة
ي	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء-اللين

فصوت الالف يقع ما بين الجهر والشدة والاستفال والانفتاح والاصمات وهذا الصوت تارة يؤكد الصوت نفسه في لفظة (اغنية) وتارة اخرى يعطي قوة الجرأة لكي تحاور الشاعرة نفسها بهذه الطريقة الشفافة. اما صوت السين فهو يقع ما بين الهمس والرخاوة والاستفال والانفتاح والاصمات واخيرا الصفير،حيث ان الهمس يعطي صفة جريان النفس من الحنجرة وهذا ما يؤكد رغبة انطلاقية الانفعال والاحساس باتجاه الاعلان على الرغم من ضعف الاعتماد عليه.

والرخاوة في هذا الصوت هي عبارة عن جريان الصوت ايضا وطول زمن النطق مما يؤكد احتياجية الشاعرة لهذا النفس الطويل من اجل بيان الاعلان. اي انها بحاجة الى مسافة زمنية اخرى للتعبير عن حالتها الشعورية.

والاستفال كما ذكرنا سابقا هو عبارة عن ترقيق الصوت وانخفاض اللسان فهو يؤكد حيرة الشاعرة باتجاه الاعلان وحالتها الشعورية.

والانفتاح هو عبارة عن عدم انحباس الصوت، مما يؤكد ضرورة المحاورة مع الحالة الشعورية واعلانها رسمية.

والاصمات هو عبارة عن صعوبة نطق اللسان للصوت، مما يؤكد ثقل وقع الضغط النفسي على الشاعرة ، بانها في داخلها تعاني من التشتت والتبعثر.

اما الصفير فهو عبارة عن الصوت الزائد المصاحب للحرف عند نطقه مما يؤكد تنبيه المتلقي من اجل التجمع او المشاركة في العملية الشعورية.. وان اصوات الصفير في العربية هي اصوات (ص)و (ز) و(س) لان صوت الصفير في السين اقوى منه في الزاي والصاد. وهذا يعني ان الشاعرة

لا تريد انحباس حالتها النفسية، بل تريد تجمهر الناس حولها او معها.

وان صوت الكاف يقع ما بين الهمس والشدة والاستفال والانفتاح والاصمات من هنا علينا التركيز على الشدة، حيث انها تقوم بانحباس الصوت وقصر زمن نطقه.. وهذا ما يؤكد ضيق المسافة الزمنية للصوت.. و يخلق ، في الوقت نفسه ، ايقاعا داخليا في الكلمة مما يتناسب مع الايقاع النفسي للشاعرة.. اضافة الى ذلك فان وجود الشدة في هذا الصوت تاكيد على قوة التعبير باتجاه الاعلان. وان صوتي النون والياء اللذين يقعان ما بين التوسط والاستفال والانفتاح والاذلاق والغنة، هما مشابهان بحالتها المماثلة في لفظة اغنية كما مر علينا.

ان احصائية الاصوات في هذه المفردة هي على النحو الاتي:

الجهر: ثلاث مرات

الهمس: مرتان

****

الشدة: مرتان

الرخاوة: مرتان

التوسط: مرة واحدة

****

الاستفال: خمس مرات كما جاء هذا العدد في لفظة العنوان

الانفتاح: خمس مرات كما جاء هذا العدد في لفظة العنوان

والاصمات بنفس عدد لفظة العنوان.

والغنة واللين تكررا ايضا بواقع مرة واحدة كما في لفظة العنوان

اما الخفاء فلقد جاء مرة واحدة

والصفير ايضا جاء مرة واحدة وهو غير موجود في لفظة العنوان

وهذا يعني ان المستوى الصوتي والدلالي والنفسي لهذه الكلمة تارة مشابهة جدا للفظة العنوان وهو دليل على صدق الحالة الانفعالية عند الشاعرة وتارة اخرى يؤدي استمرارية الحدث والموقف..

اما خطاطة ياء النداء فهي على النحو الاتي:

ي	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	اللين
ا	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	

فصوت الياء كما مر بنا، يقع ما بين الجهر والرخاوة والاستفال والانفتاح والاصمات والخفاء واللين.. اذ اننا تحدثنا سابقا عن هذا الصوت في مفردتي (اغنية) و(اسكني) الا ان موقعه هنا يختلف عن السابق لارتباطه بصوت الالف، وهذا ما يؤدي الى تغيير الوظيفة الدلالية، اذ انه مع صوت الالف يشكل بعدا ندائيا باتجاه الانا الشعرية، حيث مشاعر الانفعال بصورة شديدة..

اما وجود الالف المدودة فيفيد الجهر والرخاوة والاستفال والانفتاح والاصمات والخفاء مما يؤدي الى ثقل الانفعال وانفتاح الخطاب. ان احصائية صوتية هذه اللفظة هي على النحو الاتي:

الجهر: مرتان

الرخاوة: مرتان
الاستفال: مرتان
الانفتاح: مرتان
الاصمات: مرتان
الخفاء: مرتان
اللين: مرة واحدة

وهذا يعني ان صفاتية صوت الياء تساوي صفاتية صوت الالف المدية، وهي تشكل حلقة الوصل بين اللاعلان والاعلان، او انها تقوم بوظيفة الربط بين المجهول والمعلوم.
اما الخطاطة الصوتية للفظة (اغاني) فهي على النحو الاتي:

ا	الجهر	الشدة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات		
غ	الجهر	الرخاوة	الاستعلاء	الانفتاح	الاصمات		
ا-المدية	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	
ن	الجهر	التوسط	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق	الغنة	
ي	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	اللين

بينا سابقا في لفظة (اغنية) صفات اصوات هذه المفردة الا ان التغيير الحاصل هو في صوت المد وهو الالف بعد صوت الغين، وهذا ما يعطي للفظة مساحة صوتية اوسع من لفظة اغنية مما يؤدي ذلك الى بيان حقيقة المتكلم من الناحية النفسية والانفعالية. فصوت المد يساعد على البوح والتعبير اكثر.. كمشابهة ذلك بالبكاء او الضحك، اللذين لا يحتاجان الى رصد الكلمات بل الاصوات . ان احصائية الاصوات في لفظة (اغاني) هي على النحو الاتي:
الجهر: خمس مرات
الشدة: مرة واحدة
الرخاوة: ثلاث مرات
التوسط: مرة واحدة
الاستفال: اربع مرات

الاستعلاء: مرة واحدة
الانفتاح: خمس مرات
الاصمات: اربع مرات
الاذلاق: مرة واحدة
الخفاء: مرتان
اللين: مرة واحدة
الغنة: مرة واحدة

وهذا يعني ان الشاعرة، تريد من خلال هذه الاصوات والمفردة القاء الضوء على نوعية الاغنية والتي وردت بجمع التكسير. اي على الرغم من وجود مجموعة من الاغاني في الامل، الا ان المحصلة النهائية هي اغنية واحدة ونوعيتها هي اللاامل والتي تساوي من حيث القوة والزخم كل الاغاني وتستطيع في ان واحد ان تحذفها لان اغنيتها المفضلة المثالية قد انتهت بلا امل وهي مشابهة جدا لاغنية الموت التي تستطيع ان تشطب معاني الحياة خلال لحظة واحدة.

اما الخطاطة الصوتية للفظة (الامل) فهي على النحو الاتي:

ء	الجهر	الشدة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	
ل	الجهر	التوسط	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق	الانحراف
ء	الجهر	الشدة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	
م	الجهر	التوسط	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق	الغنة
ل	الجهر	التوسط	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق	الانحراف

فصوت اللام، الذي تكرر مرتين في اللفظة وهو من اصوات الانحراف، والانحراف هو عبارة عن الميل بالحرف عن مخرجه عند النطق به الى مخرج غيره.. وهذا يعني ان هناك تغييرا في سلوك الموقف من الامل الى اللاامل، مما يدل على ان الشاعرة كانت مرتبطة عاطفيا وشعوريا مع الاخر، الا ان الاخر، كما يبدو، لم يلتزم بذلك.. بمعنى ادق ان هذا الانحراف ناشئ عن اعتراض اللسان للصوت فينحرف الى الجانبين للخروج.. من جانب اخر، ان الشاعرة على الرغم من مقاومتها لاخفاء الحقيقة العاطفية والنفسية

الا انها تخرج بصورة تلقائية الى حيز الواقع وهذا ما يشبه بزلة اللسان.
اما صوت الميم فهو موازٍ لصوت النون..
ان احصائية الاصوات في هذه المفردة (الامل) هي على النحو الاتي:
الجهر: خمس مرات
الشدة: مرتان
التوسط: ثلاث مرات
الاستفال: خمس مرات
الانفتاح: خمس مرات
الاصمات: مرتان
الاذلاق: ثلاث مرات
الانحراف: مرتان
الغنة: مرة واحدة
وهذا يعني ان الشاعرة من خلال تكرارية الاذلاق تريد تسهيل عملية التعبير والكشف عن خطابها النفسي وان الانحراف يؤكد مصداقية هذا التسهيل والتغيير من عدم البوح الى البوح او من الامل الى اللاامل.
وفي هذا البيت و من خلال تحليل دلالات الاصوات، يتبين لنا بان اغاني الامل كانت موجودة في الماضي، وان الشاعرة تحاول التشبث بها، لكنها في الوقت نفسه تعترف باللاجدوى من هذا الامل وذلك بفعل عدم التزامية الاخر بها.. لذا اختارت لفظة (اسكني) والسكون هو دليل اللاامل..
اما الخطاطة السيميائية للاصوات في السطر الثاني من القصيدة فهي على النحو الاتي:

ف	الهمس	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق		
ل	الجهر	التوسط	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق	الانحراف	
هـ	الهمس	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	
و	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	اللين
أ	الجهر	ارخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	

فصوت الفاء يقع ما بين الهمس والرخاوة والاستفال والانفتاح والاذلاق، حيث ان الهمس

في هذا الصوت هو عبارة عن اخفاء الحرف وجريان النفس معه عند النطق به لضعفه وضعف الاعتماد عليه في مخرجه مما يؤكد على اخفاء حقيقة معينة عند الشاعرة وعدم اظهارها بصورة واقعية.. وان الرخاوة هي عبارة عن جريان الصوت وطول زمن نطقه مما يؤدي الى اثبات الحقيقة الاولى في الهمس وان الاستفال هو ترقيق الصوت وانخفاض اللسان مما يؤكد عدم تصريح الشاعرة بحقيقتها العاطفية والنفسية والانفتاح ، الذي هو عبارة عن عدم انحباس الصوت، يدل على محاولة الاعلان عن حالتها النفسية كتنفيس عن هذه الحالة.. من هنا، ربما ان هذا الاعلان ياتي بطريقة الحوار الذاتي، والدليل على ذلك هو الاذلاق، الذي يعني سهولة النطق وقربه من طرف اللسان وهذا يؤكد ان الشاعرة تناجي حالتها النفسية.. لان الشاعر الرومانسي عموما يخاطب نفسه قبل الاخرين..

ان صوت الهاء يقع بين الهمس والرخاوة والاستفال والانفتاح والاصمات والخفاء.. فالهمس في هذا الصوت يدعم صوت الهمس في الفاء لانه عبارة عن اخفاء شيء عند النطق وذلك لتلافي عدم انتشار خبر الحقيقة..

وان رخاوة هذا الصوت تتلاءم مع رخاوة صوت الفاء لانها تعني البحث عن حقيقة الخبر بصورة لاواعية، لان الشاعرة كما ذكرنا سابقا، تريد ان تخاطب وتناجي حالتها النفسية دون علم الاخرين.

وان صوتي الاستفال والانفتاح ايضا مشابهان بصوتي الاستفال والانفتاح عند الفاء ويعنيان بصورة عامة التعبير عن الحالة النفسية، وعدم انحباس الموضوع او انغلاقه.. والدليل على ذلك وجود صفتي الاصمات والخفاء اللتين تخفيان حقيقة الموضوع عن الاخر..

اما صوت الواو: فهو مشابه تماما صوت الهاء في المفردة نفسها وربما ان الشاعرة تريد اخفاء حقيقة الامر اكثر وذلك بوساطة وجود صفة اللين في الصوت المذكور، لان هذا الصوت يعني طرح الموضوع بهدوء وسكون دون اثارة الاسئلة من قبل الاخرين.

اما خطاطة لفظة (رحل) فهي على النحو الاتي:

ر	الجهر	التوسط	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق	التكرير	الانحراف
ح	الهمس	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات		
ل	الجهر	التوسط	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق	الانحراف	

فصوت الراء يتميز بالتكرير والتكرير هو اعادة الشيء مرة او اكثر، اما للتنفيس عن الحالة الشعورية والعاطفية او للتاكيد على الحالة النفسية او التاكيد على مصداقية الفعل الخطابي.. ومن جانب اخر ان هذا الصوت هو يتميز بالانحرافية والتي هي تميل الى الخروج بصورة غير كاملة وهذا ما يؤكد على فعل القول بصورة غير مباشرة انزياحية لان الشاعرة منغلقة الى حد كبير مع نفسها.. والدليل على ذلك وجود صوت اللام في اللفظة المذكورة التي تدل على المعنى نفسه..
فان احصائية لفظة «قد» و»رحل» هي على النحو الاتي:

الجهر: اربع مرات

الهمس: مرة واحدة

الشدة: مرتان

التوسط: مرتان

الرخاوة: مرة واحدة

الاستفال: اربع مرات

الاستعلاء: مرة واحدة

الانفتاح: خمس مرات

الاصمات: مرتان

اما خطاطة (قد) فهي على النحو الاتي:

ق	الجهر	الشدة	الاستعلاء	الانفتاح	الاصمات	القلقلة
د	الجهر	الشدة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	القلقلة

فصوتا القاف والدال جاءا بمعنى الاضطراب وهما من الاصوات القلقة.. التي تخرج بالتباعد بين طرفي عضو النطق بدلا من اخراجها بالتصادم بين طرفي عضو النطق دون ان يصاحب ذلك انفتاح للفم او ضم للشفتين او انخفاض للفك الاسفل وتتم هذه العملية بحبس الصوت والنفس في المخرج حتى ينضغط فيه انضغاطا شديدا نفك المخرج فكة سريعة دفعة واحدة فينطلق الصوت بعد انفتاح المخرج محدثا نبرة وهزة قوية في المخرج، وهذا ما يؤكد في القصيدة اضطرابية وانزعاجية الشاعرة تجاه موضوعها، حيث انها بالاساس قلقة وان وزن وحجم قلقها يزداد بعد اخفاء امرها، لانها تعاني توترا اثناء

اللحظة الشعرية، فتارة ترغب الاعلان وتارة في الاخفاء، هذا اضافة الى نسبة هزيمتها النفسية تجاه الاخر.

الاذلاق: مرتان

التكرير: مرة واحدة

الانحراف: مرتان

القلقلة: مرتان

في كل هذا نلاحظ مرة اخرى ان الشاعرة تعيش في حالة من الفوضى النفسية والاغتراب الذاتي، حيث انها تمرّ بفترة عصيبة من التوتر العاطفي وذلك بسبب الانكماش الحاصل بين الذات الشاعرة والاخر.

النموذج الثاني : قصيدة پاييز (١٠ : ١٨٧) للشاعر الكردي گوران (١٩٠٤-١٩٦٢) :

أيها الخريف ، أيها الخريف   پاييز ! پاييز !
أيتها العروسة الشقراء   بووكى پرچ زەرد،
أنا كئيب و أنت منقبضة   من مات، تۆ زيز
كلانا في الهم سواء   هەردوو هاودەرد !
مني الدموع ، و منك أمطارك
مني آهاتي ، و منك رياحك القارصة
مني الهم ، و منك سحائب بكائك
فلن تنتهي : استغاثتي و نداؤك
أبدا ، أبدا
يا خريف ، يا خريف
يا خريف ، يا خريف
يا عارية الجيد و الوجه
أنا كئيب و أنت منقبضة
فكلانا معا
لنبك كلما ذبلت وردة
لنبك كلما طار رف من طيور
لنبك ، لنبك و لا نسمح أعيننا

أبدا ، أبدا

يا خريف ، يا خريف

ففي هذه القصيدة نحاول ان نبين قصدية القصيدة من خلال سيميائية اصواتها. ان عنوان القصيدة (پاييز) يتكون من الحروف الاتية:

پ	الهمس	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات		
ا-المدية	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	
ي	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	اللين
ي	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	اللين
ز	الجهد	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الصفير	

قبل ان نعلن بان العنوان ، الذي يحمل صفاتية الحزن والكآبة ، و هو كتلة من الحالة الانفعالية للشاعر، فان اصوات حروفه لها الدلالة نفسها وذلك بدليل ان:

صوت (پ) من اصوات الهمس والرخاوة والاستفال، والانفتاح والاصمات وهي تؤكد انفتاح الكلام ومن ثم انغلاقه، وهذا يخلق جوا خريفيا حيث وجود الاوراق وسقوطها في ان واحد او سكون الريح ودويه.. اي ان الشاعر في حالة من القلق و ذلك بفعل توتره العاطفي والانفعالي الشديد حيث لا يستقر عند زاوية معينة..

اما صوت الالف-المدية- فهو من اصوات الجهر والرخاوة والاستفال والانفتاح والاصمات والخفاء.. و هذا يعني ان الشاعر يريد ابراز صوته الى المتلقي الا انه بفعل شفافيته الرومانسية يرغب اخفاء هذه الحقيقة وذلك بوجود صوتي الاصمات والخفاء..

وصوت الياء (مرتين) جاء لتاكيد مدى اخفاء الحقيقة وذلك لحساسية الموضوع الذي يدور بطريقة لاعلنية بين الانا والاخر.

اما صوت الزاي فهو من الاصوات الصفيرية التي تتميز بقوة في السمع وان الصوت فيها يجري قويا بذبذبة مما يؤكد عدم تحملية الشاعر للموقف، اذ انه لا يستطيع في هذه اللحظة اخفاء حقيقته الشعورية والعاطفية..

في كل هذا نجد مناخا توتريا وحزينا في هذه اللفظة وهي عبارة عن لوحة داكنة تكشف موضوعية الشاعر العاطفية بانه يمر بلحظة عصيبة من الحالة النفسية نتيجة فقدان الاخر... ومن جانب اخر ان هذه اللفظة بوساطة اصواتها تكشف الابنية الداخلية

للمفردة وكيفية تماسك اصواتها وتجاورها من حيث هي وحدات صوتية تتعلق بالسياق الثقافي والاجتماعي للشاعر والنص. من هنا فان فهم صوتية الكلمة ناتج عن فهم اوجه الترابط المتجاور لاصوات الكلمة وتغيير التركيب في كل مفردة على اساس معطيات دلالية، والملاحظ ان صوتية الكلمة تضم اشكالا مختلفة من الصفات التي تنصب على الكلمة ذاتها غير انها ترتبط ارتباطا شديدا بارتباطات الاتجاهات الصوتية الاخرى للكلمات والدليل على ذلك تكرارية لفظة (پاييز) في السطر الاول من القصيدة بواقع مرتين والتي جاءت لتعميق المستوى الدلالي للعنوان او ربما اشد من ذلك.. لان هذه التكرارية تؤكد حجم ثقل الحالة الشعورية للشاعر تجاه الاخر وان حالة الاخر توازي حالة الشاعر الشعورية والانفعالية كما يؤكد ذلك في السطر الثاني والثالث من القصيدة عندما يقول الشاعر:

بووكى پرچ زەرد
من مات تۆ زيز
هەردوو هاودەرد

فالخطاطة السيميائية للمفردة (بوكى) هي على النحو الاتي:

ب	الجهر	الشدة	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق	القلقة	
و	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	اللين
و	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	اللين
ك	الهمس	الشدة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات		
ي	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	اللين

فصوت الباء هو من الحروف الانفجارية الشديدة والمجهورة الذي ينحبس النفس والصوت في جهاز النطق، مما يؤكد انزعاجية الشاعر في صورته الداخلية بدليل ان هذا الصوت ينتمي الى صفة القلقلة، والقلقلة هي اضطراب المخرج عند النطق بالحرف.. بمعنى ان موقع القصيدة في غاية الاهمية عند الشاعر ، وانه يريد ان يحقق هدفا وهو ابراز

مشاعره تجاه الاخر بانه حزين نتيجة الانفصال العاطفي بينه وبين الحبيبة لاسباب اجتماعية و استنادا الى سياقية صاحب النص، ان لهذه القصيدة علاقة قوية بقصيدة اخرى بعنوان (بوكيكى ناكام) وهي قصيدة حب الشاعر الحقيقية التي تتحدث عن اجبار الحبيبة من قبل الاغا (السلطة) من الزواج بشخص لاتحبه، بل لا تعرفه وان الشاعر هنا لضعف بنيته النفوذية لم يكن بمقدوره تغيير النتيجة، لهذا انه يفرغ معاناته في هذه القصيدة والدليل على ذلك وجود صوت (الواو) في اللفظة نفسها بواقع مرتين مما يعطي الجهر والرخاوة والاصمات والخفاء واللين.. من هنا نجد ان الشاعر يتحسر على نفسه وعليها بطريقة حوار الذات مع الذات.. والدليل على شدة تألمه وجود صوت الكاف مما يعطي الهمس والشدة والاستفال والانفتاح والاصمات ففي كل هذا تجتمع صفات الاعلان واللااعلان على موقفه من القضية، لانه تارة يريد اخفاء الحقيقة بكاملها لكونه شاعرا رومانسيا ذا طابع انعزالي كأي متصوف لا يرغب الاختلاط كثيرا بالاخرين. وتارة اخرى يريد ان يبين للمتلقي ما اصابه من الخيبة والمعاناة واللاامل ومسبباتها الاجتماعية والفكرية.. وان صوت الياء الذي يعطي الجهر والرخاوة والاستفال والانفتاح والاصمات والخفاء واللين يؤكد انكسارية الحالة النفسية للشاعر وعدم استيعاب المتلقي لمعاناته.

اما الخطاطة السيميائية للفظة (پرچ) فهي على النحو الاتي:

پ	الهمس	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات		
ر	الجهر	التوسط	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق	التكرير	الانحراف
چ	الهمس	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات		

على الرغم من ان المفردة لا تتبين معناها بشكلها الموقعي، الا ان اصوات حروفها تنسجم تماما مع واقع القصيدة وهي الحزن. فصوت الثاء الذي يقع ما بين الهمس والرخاوة والاستفال والاصمات، يرتبط بمفردة (پاييز) في صوتها (پ) ثم يعمم الى بقية اصواتها والتي في جميعها تساوي المناخ العام للقصيدة. اي ان الشاعر كان بامكانه ان يقول (قژ) بدلا من (پرچ) الا ان الاخير موسيقيا ودلاليا اقرب الى نقطة الدال. والدليل على ذلك صوت الراء الذي يقع ما بين سبع صفات مختلفة ومن اهمها هنا صفتا التكرار والانحراف. فالتكرير يعني اعادة تكرار الصوت اكثر من مرة ، وهذا ما يدل على التردد النفسي والاجتماعي والانحراف هو اعتراض الذات الفاعلة للموضوع. وصوت (چ) يدل على استقرارية الحالة النفسية من منطلق الانكسار الذاتي تجاه الاخر.

اما الخطاطة السيميائية للفظة (زەرد) فهي على النحو الاتي:

ز	الجهد	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاحمات	الصفير	
ه	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاحمات	الخفاء	
ر	الجهر	التوسط	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق	التكرير	الانحراف
د	الجهر	الشدة	الاستفال	الانفتاح	الاحمات	القلقلة	

ظاهريا، نعلم بان لفظة (زەرد) تحمل معنيين اساسين:
الاول: التفاؤل باتجاه الاحسن، والثاني: اللاتفاؤل..
وهذا يتضح من خلال سياقية الجملة او النص.. فعلى سبيل المثال لو اخذنا عبارة (پرچ زەرد) فهي بدون ادنى شك تحمل صفة جمالية للمرأة بانها تعتز بجمالها وبفعل صفاتية (پرچ زەرد) الا اننا لو اخذناها من خلال سياق النص، نجد ان هناك حزنا يكتنف الموضوع وذلك لتجاورية العلاقة ما بين صفاتية (پاییز) التي تعني تساقط الاوراق مما يؤكد ظاهرة الحزن عند الذات والاخر.. وصفاتية اصفرارية الاوراق في فصل الخريف وهذا يعني ذبول الحقيقة الجمالية حتى ولو لفترة زمنية وجيزة.. اضافة الى ذلك ان الرومانسية تجمع ما بين الجمال والحزن او ما بين التفاؤل والتشاؤم..
فصوت (الزاي) الذي يقع ما بين الجهر والرخاوة والاستفال والانفتاح والاصمات والصفير، يجري قويا فيه ذبذبة لايخرج معه النفس ويحدث قوة في السمع، مما يؤكد مصداقية الانفعال الذاتي تجاه الاخر.. اي ان هذا الصوت بفعل الصفير يشد انتباه المتلقي نحو الموضوع.
وان صفة القلقلة التي نجدها في صوت (الدال) تعني الاضطراب النفسي، وان هذا الاضطراب يؤدي في مكانه الى خروج الموضوع الى المتلقي لان سبب القلقلة هو انزعاج جهاز النطق فيضطرب الصوت ويتحرك.. و من ثم هناك علاقة وشيجة بين الحالة الشعورية للشاعر وجهاز النطق، حينما الشاعر ينفعل فيؤثر هذا في جهاز النطق ويسبب توترا وانكماشا ويحدث قلقا على الشاعر والاخر.. ولشدة حساسية الشخصية الرومانسية، لكون القصيدة هي رومانسية، فيكون التاثير الصوتي اشد وينعكس ذلك

جديا على شخصية القصيدة بكاملها.

اما الخطاطة السيميائية لعبارة (من مات) فهي على النحو الاتي:

م	الجهر	التوسط	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق	الغنة	
ن	الجهر	التوسط	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق	الغنة	
م	الجهر	التوسط	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق	الغنة	
ا	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	
ت	الهمس	الشدة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات		

من خلال احصائية الصفات الصوتية نجد ان الاصوات تختلف باختلاف وقعها وصفاتها. فتارة الجهر الذي هو الاعلان والظهور ، والاستفال الذي هو انخفاض الصوت وترقيقه، وتارة اخرى الاذلاق الذي يعني سهولة النطق والغنة عبارة عن الرقصة الرنينية.. وفي الوقت نفسه، نجد الاصمات والخفاء اللذين يدلان على صعوبة اظهار الحقيقة الموضوعية.. ان كل هذا يعني اضطرابية الحالة النفسية، حيث نتيجة فقدان المؤسسة العاطفية فان الشاعر يفقد اتزانه النفسي ولهذا نجد انه مرتبك في خطابه الانفعالي والاجتماعي.. والسبب في ذلك هو عدم سيطرة صوت على حساب صوت اخر، بل هناك حالة تكافؤية ما بين هذه الاصوات على الرغم من اختلاف صفاتها..

اما الخطاطة السيميائية لعبارة (تۆ زيز) فهي على النحو الاتي:

ت	الجهر	التوسط	الاستفال	الانفتاح	الاذلاق	الغنة	
ۆ	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	اللين
ز	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الصفير	
ي	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الخفاء	اللين
ز	الجهر	الرخاوة	الاستفال	الانفتاح	الاصمات	الصفير	

مرة اخرى، نجد تلاعبا بين الصفات المختلفة وان تكرار صوت (الزاي) بواقع مرتين في لفظة (زيز) يؤكد على احداث قوة في الخطاب للتاثير على المخاطب وجذبه الى النص لان الشاعر نفسيا بحاجة الى تفريغ شحنات حالاته الانفعالية ومشاركة الاخرين له.. وان هذا الصوت لكونه من الاصوات الصفيرية، يرغب الاعلان كليا عن الموضوع. وهو بمثابة التجمع والتمركز في بؤرة اجتماعية ونفسية واحدة.. لان الشاعر يعلم بان هذا الموضوع سيتكرر عند الاخرين وبنفس القياسات والنتائج وذلك بفعل انهيارية القيم الاجتماعية والفكرية داخل المجتمع التي تؤدي الى انشطارية الذات والذوات. من هنا لو نظرنا الى المعادل الموضوعي والدلالي ما بين عبارتي (من مات و تۆ زيز) فنجد انهما متكافئتان او متوازيتان من حيث الاحساس والشعور تجاه الموضوع، اما من حيث المعادل الصوتي بينهما فنجد ان عبارة (تۆ زيز) هي اقوى لوجود صوت الزاي وهذا يعني ان الشاعر يريد تسليط الضوء اكثر على الاخر من (الانا). وهذا يدل على ان العبارة الاولى (من مات) لاتظهر الا من خلال العبارة الثانية (تۆ زيز).

الاستنتاجات

توصلنا في هذه الدراسة الى الاستنتاجات الاتية:

١- ابراز الصدق الشعوري والعاطفي: من خلال التطابق بين انفعالات الشاعر ودلالية اصوات الحروف للقصيدة، يتبين لنا مدى نسبة الصدق الشعوري والعاطفي، لاننا لا نستطيع من خلال الاجواء العامة للقصيدة ان نبين كليا هذه النسبة بصورة متعمقة وديناميكية..

٢- توافقية وسياقية الاصوات: من المعلوم جدا ان الصوت الواحد لا يعطي القدرة الايحائية للفظة دون مشاركة الاصوات الاخرى للفظة نفسها كذلك مع الاصوات المجاورة للالفاظ الاخرى للقصيدة. فعلى سبيل المثال ان لفظة (الربيع) وصفات اصواتها قد تكون عند الشاعر للتشاؤم مرة وللتفاؤل مرة اخرى ، والشيء الذي يميز بين الاثنين هو السياق الصوتي بين اصوات اللفظة الواحدة واصوات الالفاظ الاخرى.

٣- لكون الشاعر اكثر دقة وحساسية، فيتاثر جهازه النطقي بجهازه العصبي الذي يشكل محور التمركز الانفعالي حينئذ يتحول الانفعال العصبي الى الانفعال الصوتي.

فعلى سبيل المثال الشخص الحزين يميل الى اصوات خافتة ويظهر الحزن عليه من خلال نبرات صوته.

٤- على الرغم من اختلافية اللغات فان صفات الاصوات عموما هي ناتجة عن العملية الانفعالية التي تاتي من خلال الجهاز النطقي وعلاقته بالجهاز العصبي.

المصادر و المراجع

١- ابراهيم انيس ، الاصوات اللغوية ، القاهرة ١٩٧١ .

٢- ابن جني ، الخصائص – الجزء الأول – تحقيق محمد علي النجار ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٠ .

٣- جلوريا ج . بوردن و الآخرون ، اساسيات علم الكلام ، ترجمة محيي الدين حميدي ، دار المدى للثقافة و النشر ، الطبعة الاولى ، ١٩٩٨ .

٤- جوناثان كالر : فريديناد دي سوسير ، اصول اللسانيات الحديثة ، ترجمة عزالدين اسماعيل ، المكتبة الاكاديمية ، ٢٠٠٠

٥- حسن عباس ، خصائص الحروف العربية و معانيها ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٩٨ .

٦- خلدون ابو الهيجاء ، فيزياء الصوت اللغوي و وضوحه السمعي ، علم الكتب الحديث للنشر و التوزيع ، عمان ، الاردن ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٦ .

٧- عبدالقادر عبد الجليل

أ- الاصوات اللغوية ، عمان ١٩٩٨

ب- علم اللسانيات الحديثة ، دار صنعاء للنشر و التوزيع – عمان ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ .

٨- عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الاعجاز في علم المعاني ، دار المعرفة ، بيروت – الطبعة الثالثة ، ٢٠٠١ .

٩- غانم قدوري الحمد ، المدخل الى علم الاصوات العربية ، منشورات المجمع العلمي ، ٢٠٠٢

١٠- گوران ، الآثار الشعرية الكاملة ، ترجمة و تقديم الدكتور عزالدين مصطفى رسول ، شركة المعرفة للنشر و التوزيع ، بغداد ، ١٩٩٠ .

١١- محيي الدين رمضان ، في صوتيات العربية ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان .

١٢- نازك الملائكة ، الديوان ، الجزء الثاني ، دار العودة ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٧١ .

فضاء الشعر.. التمثيل من الصامت الى الصائت

قصيدة الشاعر شيركو بيكس نموذجا

جاسم عاصي

في الحراك العام للشعر

في محمل الشعر، تصطف الهنية الشعرية من اجل توفير المناخ الشعري من باب تخليق فضاء جديد يتكئ على مجموعة مستلزمات تنهض بالقاعدة التي يعتمدها الشعر ارضية له. وهذا الاتكاء يتوفر ايضا على ما يسبب الحراك الشعري ويمنحه مستلزما دياليكتيك وحداته من داخله. ولعل من هذه المستلزمات هي وحدة القصائد في خلق عالمها الموحد. وهذا ما يسم الشعر الكردي الذي يقترب في كل حالاته الى الملحمية، كما نراها مثلا في شعر (قوبادي جلي زاده) الذي خلق اجواء بنيوية مرافقة وناهضة بالشعر، نقصد بها السردية التي هي العمود الفقري للقصيدة. فقد استعار هذا المنحى في الكتابة، لا لشيء، بقدر ما اتاح للقصائد ان تنفتح على نسق الموروث في الاسطورة والحكاية.

لذا نرى ان هذا الانفتاح وفر فرصة-الاسطرة-للشخصية التي يبث من خلالها الشعر اولا، ثم خلق مبنى حكائيا يتوفر على اجواء ساحرة وزاخرة بالصور والافكار ثانيا، كذلك التوفر على انساق اسطورية اخرى تفرزها الذاكرة الشعرية على انها مستلزم في هذه الحكاية ثالثا.

العلاقة بين الشعر والموروث قديمة، ولعل نشأة الفنون الانسانية عموما، ما يشير الى ان الشعر هو الحاضنة التي اصطفت داخلها كل الاجناس. ولعل مشتركات عدة ما يؤشر مثل هذه العلاقة. لعل ابرزها اللغة والنشأة. فاللغة القاسم المشترك بين الشعر وجميع الموروثات

فكل منهما ينهل من بئر الاخر، بحيث لا يمكن وجود الشعر دون ان يكون منطلقا من لغة الموروث، ولا ان يكون للموروث وجود دون لغة الشعر. فالحكاية والاسطورة ومكونات الذهن الشعبي تصوغ معمارها السردي والروي عبر لغة الشعر. وبالمقابل يكون الشعر قد صاغ حكايته واساطيره من خلال انساق اللغة الاسطورية والحكائية. هذا من جهة، ومن جهة اخرى تكون النشأة لكليهما هو القاسم المشترك الثاني، فهما معا صيغا من رحم المعتقد والطقس. فقد تبلور الشعر عبر الشعيرات التي كانت تقام كتعبير عن المشاعر وتمثيل المعتقد اداء. مما بلور مناخات شعرية منبثقة من رحم اسطوري وحكائي، لما تنطوي عليه من سحر الانساق. كذلك صاغت الموروثات انساقها بما مكنها من الاقتراب من نسق الشعر. وثالث المشتركات هي المعاني التي استفاد منها الشعر كاستعارة مكنته من خلق انساق لمعانيه، مستفيدا من المعاني الدالة في الاسطورة والحكاية. وبهذا اغتنى الشعر الذي اقترب من الموروث، بما هو معين جدلي تطلبته بلاغة التعبير. فالمعاني الكامنة في نص الموروث تسهم في بلورة اقنعة تعبير عن معان جديدة ذات علاقة بظواهر مستجدة في الحياة.

ومن الامثلة على ذلك وباختلاف الاجيال نرى ان الشاعرة كزال احمد قد استثمرت الموروث الشعبي فضاء ومعنى، ومنحت متنها الشعري بلاغة الموروثات كالاساطير والموروثات الشعبية. وفي هذا حاولت توظيف الموروث بما يمنح القصيدة القدرة على صياغة فضائلها من جهة، واغتناء متنها بالمعاني وبلاغة القول. وفي هذا التوظيف عملت على ان يكون للقصيدة نسقها المتميز، وللموروث تاثيره الواضح. بحيث صيغت القصيدة على وفق مناخ هذا الموروث، وبالتالي عمقت المعنى المراد الاشارة اليه من خلال المعاني الغنية التي تحصلت في ثيمة الموروث وعالجت الشاعرة (شيرين. ك) مثل هذه الثنائية، مستلهمة امكانيات المكان وعلاقته بالزمان لكي تشكل وحدة سببية يقام عليها المعمار الشعري الذي يتوزع على قصائدها كوحدات شعرية، لكنه في نهاية المطاف يجمع هذا التوزيع في وحدة متماسكة. ان مناخ كل قصيدة يبدو مستقلا بذاته من حيث تشكل الزمان والمكان في القصيدة، غير ان هذا الضرب يدعو الى فحص مثل هذا التنوع في هيئة المكان وحيوية الزمان. ولاسيما ان الشاعرة تتخذ من الشعر كذات انسانية من جهة وتعلن من خلاله موقفها من جهة اخرى. خاصة فيما يخص العلاقة بين الرجل والمرأة التي هي في الاساس التي تمثل الاساس التي عليها ثنائية الذكورة والانوثة وعمل الشاعر (اوات حسن امين) على استدراج ما احتواء نص الحكاية، ليس من باب اعادة صياغتها شعريا، بقدر ما وضعه موضع الدالة التي بامكانها اضفاء المناخ الذي تتحرك

فيه القصيدة، او الرؤية النصية الجديدة التي تؤسس نسقا على نسق سابق. فقد استفاد من فحوى الحكاية ومعانيها، لكي يخلق مبررا لما هو قادم من استحداث فعل من خلال ما يبوح به النص. لذا نراه يلاحق النتائج التي الت اليها الحكاية الشعبية من حيث هي نص حكائي يعطي صورة للوشائج المبنية بين عشقين تعاهدا. هذا من جهة، ومن جهة اخرى حاول الشاعر ان يلاحق الفعل الذي يحقق مثل هذا التلاقي الدائم بين الاثنين من اجل عكس المعنى الذي تبناه النص وليس ما تبناه نص الحكاية.

في الحراك الخاص... حيوية الشعر:

لعل تجربة الشاعر (شيركو بيكس) تتفرد عن الاخرين في مجال استثمار الموروثات كالحكايات والاساطير والامثال الشعبية من خلال المزج والتماهي بين الذاكرة الفردية والاخرى الجمعية. ولا يعني هذا ان احدهما يذوب في حاضنة الاخر، بقدر ما يمنح كل منهما حيويته الخاصة التي تضفي علي المشهد الشعري طاقة تتمثل طاقة كلا الطرفين. فهو يتعامل مع الحكاية في كونها تعطي للنص قدرة الاقتراب من واقعية الحدث وشعبيته. وهذا ما يظهره ولعه بالطبيعة وعناصرها، بحيث يستلهم منها روح الاسطورة ودفق الحكاية نسقا ومعنى. فشعر شيركو ذو مقتربات واقعية عبر استلهام عناصر الطبيعة، ونظرته الى الاشياء بعين الموجودات التي تختزن صورا جمالية ذات ارتباط تاريخي يؤرخن تاثيرات الازمنة على بيئة كردستان. فتعامله يكون منطلقا من النشاط الذي يؤدي الى تحقيق الرؤية ذات البعدين الواقعي والرؤيوي الصوفي. انه ينظر الى حراك الاشياء وتراكم الازمنة ومجريات الاحداث في الامكنة من باب كشف المسكوت عنه في الواقع الاجتماعي والسياسي. خالقا سيرة الخاص والعام، في عدم الاكتفاء بخزين ذات الفردية، بل يحاول دعمها بما تدخره الذاكرة الجمعية. فالمكان والزمان منظور اليهما عبر الشعر من منظور جمعي عبر القناع الفردي. وذلك مؤكد من خلال المتحقق التاريخي للاشياء. ان فلسفته قائمة على الموازنة بين ما هو منظور-محجوب-وبين ما هو مخفي حامل لدفق الماضي. وفي هذا يتعامل مع الماضي على انه متن معرفي مؤثر من خلال حيوية طرحه ورؤاه القادرة على ربط الماضي بالحاضر ومن خلالهما يستشرف المستقبل. ان هذا الديالكتيك يتوفر عليه شعره بعامة. لكنه يشتغل على نمط ليس مغايرا في ديوانه ذا القصيدة الواحدة، بل انه يفعل محركات اخرى معينة للشعر عبر اضفاء حيوية جديدة. ومنها (الخيال والحسية والحدس والتماهي) ثم خلق اجواء ومناخ تحاوري بين الانسان والاشياء صامتها او صائتها. لذا نجده في مجال توظيف الخيال-

باعتباره مبنى حكائيا واسطوريا-يعتمد على تصورات منبثقة من وعي له وظيفيا في التعبير والاحتواء، ويكون شفيعا له في نمط الحكاية والاسطورة، وان لم يعتمد حكاية معينة او اسطورة مؤشرة. فقط انه يتعامل مع الاشياء عبر ذهن مخلق لنسق ومعنى ينتمي الى الاسطورة والحكاية. فشعره مسرود ومحكي. ومن المؤشرات على ذلك هو نمط التداعي الذي ينساق الشاعر في رواقه دون كلل. فمستجدات الصور والمشاهد في قصائده مبني على اساس الحفر في الذاكرة، ولاسيما ما تدخره عن المكان من صور مفارقة مرت بارض كردستان. غير انه يتعامل معها من خلال الاسناد الى الموروث خاصة الرموز الاجتماعية والسياسية والابداعية. فالتشبيه في قصائده مثلا يساير القمة الاخلاقية التي تركتها صورة وفعل الكارزمة التاريخي. كذلك يحاول احداث تماثل بين ما هو اكبر باتجاه الاصغر، للانتصار الى الاصغر وهو الانسان في تاريخه الاجتماعي والسياسي والاسطوري. فالحكاية الشعبية بكل خصائصها ومؤثراتها يستدعيها الشاعر لتكون صورة معينة وربما بديلة عن الواقع المدمر. وهو نمط من الحدث الشعري عبرعلاقة الرؤية المستمدة من الواقع الشعبي وبين متن الطبيعة ومزج ذلك بالشعر وروحيته المتخذة من سحرية الطبيعة في كردستان مجالا حيويا لتشييد فضاء القصيدة. كذلك فعل الشاعر (قوباد جلي زاده) وغيرهما.

ولعل التماهي مع الاشياء من خلال التماثل مع خصائصها خير ما يسم فضاء قصيدة الديوان (الكرسي) لما فيها من رؤى ومجالات حيوية حققت التماهي حد الحلول الصوفي بين سارد المسار-ونقصد بها السيرة الخاصة بالكرسي-وراو يتماثل معه في كثير من المشاهد. معتبرا اياه بمثابة تاريخ شخصي للراوي الذي يروي من خلال التداعي الحر-المنلوج- او الانثيال لما يضمره متن التاريخ من احداث ومستجدات في مرويات، ثم الاحساس بها والتجاوب معها.

اما الجانب الحسي والحدسي عند الشاعر، فقد تجسد من خلال الاقتراب من الاشياء الى درجة الاحساس بها وتوقع حدوث مالم يحدث بعد. فالشاعر باعتباره ذاكرة فردية بدا قادرا على توفير الارتباط بين ما هو واقعي وما هو متخيل عبر الحدس بالاحساس، والغور في مكامنها الذاتية. ومن بعد ذلك تماثلها، فالذاكرة تكون متوافقة في حالات الاستذكار والاستعادة وعلى صورة الخطاطة التالية:

الانسان---الكرسي
صائت---صامت
الكرسي حاليا--الانسان الكردي سابقا

من هنا ينظر الى الانسان الصائت وهو يتماثل مع الكرسي الصامت، انما لاحداث نوع من التماثل المتغير للبنية. فالانسان الصامت بسبب الظروف الموضوعية القاهرة، كان صامتا يحاول الشاعر استنطاقه من خلال القناع (الكرسي). وهذا ما جعل السيرة الكرسي تضفي صورا متعددة لسيرة الانسان في المكان والزمان وبالتالي في التاريخ. فنحن في هذا المجال الحيوي للشعر نكون امام حراك شعري للكرسي، يحايث حراكا اخر للانسان، وكما قلنا انفا يصل حد التماهي.

ان هذا التصور لا يلغي مقاومة الانسان عبر التاريخ، وانما يكون الشعر بمثابة المدونة التي تؤرخ لحالات انسانية عامة تخص الانسان الكردي الذي استقبل البلاء بروح نضالية فردية. اي ان الشاعر هنا يستنطق ما كان يعبر بصمته احتجاجا.

الكرسي... الدلالات والمعاني:

لعل رمز الكرسي شغل المبدعين على طول التاريخ الادبي، فقد اتخذوه علامة من التعبير عن المعاني التي يريدون الخوض فيها. وهي في مجملها توظيفات دالة على التسلط والتحكم السياسي والاجتماعي. ولعل تنوع صناعة الكرسي وما اضيف اليه وفق مدلولات السلطة ايضا كان مبعثا لمثل هذه الحيوية التي يمتلكها هذا الكيان الصامت. فقد ابتكر المصريون على سبيل المثال اول كرسي في مصر القديمة (٢٦٥٠-٢٥٧٥ق.م) وهوعبارة عن مقعد له ظهر. وقد اختلف هذا الكرسي عن سلالته في مخالفة العادة في كون ارجله شبيهة بارجل الحيوان. لكن صناعته تطورت حاملة معها الدلالة في العصر الروماني وعلى شكل x وتسمى x chair وفي القرن الرابع عشر في اوروبا الغربية كـ(الكرسي المقص scissors chair). اما في الشعر فقد وظف الشعراء الكرسي على هذا النحو او ذاك كما فعلت الشاعرة (جيننك كارمايكل) في قصيدة (امرأة) التي تطرقت الى الكرسي في كونه يشاركها وحدتها في انتظار الحبيب. اما في الرواية فقد وظف الفرنسي (بول ادم ١٨٦٢-١٩٢٠) متخذا من الكرسي عنوانا لروايته. ومسرحية (ايوجين ايونسكو ١٩٠٩-١٩٩٤) في مسرحه اللامعقول. وفي مضمار الدلالة الاكيدة التي تثير حفيظة الكتاب والمرهفين، هو ما كان للكرسي في زمن السلاطين من تنوع له علاقة بمناصبهم السياسية. فثمة كرسي ذو ارجل قصيرة يستخدم في الاوقات العادية، واخر ذو ارجل طويلة يستخدم في الاجتماعات الموسعة. فيكنى الاول بالكرسي بينما الثاني بالعرش. ناهيك عما تركه الاقدمون من انواع الكرسي وقد اكتشف في الحفريات مصغر لكرسي من الفخار وعليه النقوش الحثية والاشورية والفينيقية وهي عبارة عن عروش مطعمة بالعاج.

هكذا هي الكراسي التي ارتبطت بالسلطة من خلال تسميتها بالعرش. اما ما نلحظه في

كرسي الشاعر (شيركو بيكس) فهو كرسي، يحق لنا ان نسميه مجازا الكرسي الكادح. لان الشاعر اراد له انتماء خاصا يعبر من خلاله عن تاريخ مليء بالاسى. فهو كرسي الاسى الشعبي.

قصيدة الكرسي نموذجا:

الافتتاح:

لعل العنوان بات واضحا من خلال ما ذكرناه انفا، فهو دال صامت يمتلك حيوية الدلالة المتشعبة، سواء ما تناولتها القصيدة، او دلالاته الاخرى خاصة السياسية. غير ان العتبة الثانية او الاستهلال فقد كان منطلقا من صوت الشاعر الذي يبوح بصوته مقابل حركة القصيدة. على اعتبار القصيدة مدونة لذات الشاعر وهي مدونة لذات الكرسي. وهو مفتتح حكائي يقدم مشهده عبر مشهد الكرسي:

انا، كاتب هذا النص، اجوب كما الريح المجنونة
هذه المدينة منذ عصور
حافيا، ممزق السروال، تائها اصول واجول

المقطع يشير الى كون الشاعر هنا هو مدون لسيرة مكان. ولعل-اجوب-معنية بالتنقل والبحث والتقصي، اي عدم الاستقرار. وهذا ايضا احالة الى عدم الاستقرار النفسي للمروي عنه. وما التشبيه (كما الريح المجنونة) انما يؤشر طبيعة هذا المسعى المرتبط بتاريخ المدينة الطويل، والمشار له بـ(العصور). وكل هذا اشارة الى جهد المدون-الشاعر- الذي تميز بالدقة والقوة في البذل. ولعل (اصول واجول) تؤكد ما قرأناه.

وتنحو القصيدة على نفس المستوى، ولكن بنمط اخر تجسده السيرة للشاعر-الراوي- خارج النص، حيث يكشف عن البنية الموازية لما سيستجد من روي عن سيرة الكرسي. فالمحاولة هذه تمهيد اولي لخلق علاقة بنيوية بين الراوي والكرسي الذي ستلي سيرته في النص حاضرا وماضيا ومستقبلا:

استحيل قصيدة مخمورة في احدى الحانات تارة
وقصة حدباء في اشراقة صوفية تارة اخرى
استحيل، حينا، بلا ماوى
او قطعة نثر، بلا مسكن في البراري
او مسرحية لموسم تساقط الاوراق

ويزداد الانثيال نشاطا لكي يصل الى مستوى التقرب من عالم الكرسي الذي هو القطعة الاكثر حيوية في النص. وما ذكر هذا السيرة للراوي سوى محاولة تمهيدية لالسنة الكرسي الصامت، بتقريبه من التمثال مع سيرة الانسان الراوي. وبهذا يصل الى مفتتح انثيالات الكرسي:

فيبدأ الكرسي بالنطق..
ويبدأ الدخان، بدوره
بتدوين ما ينطقه الكرسي بلغة الرماد

ولعل (لغة الرماد) هنا دليل على التراجيديا التي مر بها الكرسي، بل هو استهلال لوضعنا امام مقدمات السيرة. ان وحدة الذات الشعرية مع سيرة الكرسي، تتحقق بحيث يندمج الراوي، وحيث لا يمكن التفريق بين السيرتين، حتى يصل حد التمرئي. فالكرسي يتمرأى بالراوي الشاعر، والعكس صحيح. هذا الاندماج يحيله الشعر الى مدونة تستخدم قناع الكرسي بكل حيوية في التعبير الشعري، بعيدا عن الارتجال والنظرة المؤدلجة. فالانسيابية الشعرية تتحكم في سير القصيدة الطويلة هذه من باب تحكيم مفاصلها الذاتية والعامة. فالشاعر:

يدون كل ما يقوله الكرسي
سواء على الابواب والجدران
او على الارض.. او على اجساد المارة

و(المارة) هنا علامة تشير الى الازمنة التي مر بها الكرسي. يقابل هذا ما يعكسه الراوي عن الكرسي، وكأنه يتحدث عن نفسه:

انه كرسي مسن ذو قامة قصيرة
خفيف الظل، ذو جبهة عريضة
واطراف رفيعة واكتاف نحيلة
لكنه لم يزل قائما ونشطا
يترنح قليلا
على احدى قوامه العرجاء

السيرة والنشأة:

في سياق الالسنة، واستنطاق الصامت، يحاول الشاعر ان يعرض من خلال السيرة متن التاريخ الذي تحفل به سيرة الكرسي. فهو بطبيعة الحال لا ينسبه الا الى عائلة شجرية عالية النوع والجودة، لكي يوصله. وبهذا تتم الموازنة بين ذاتين تحولان استدراج بعضهما البعض من خلال النص. وهو بالتالي نوع من التمرئي. فاذا وجد الشاعر ان خير ما

يتمرأى به هو الكرسي، فان الكرسي وجد ان افضل ما ينتسب اليه هو الشاعر. لذا ومن هذا الاحساس الموضوعي للقصيدة نرى انه ليس من السهولة والبساطة الفصل بين ذاتين قائمتين على اسس اخلاقية متينة، تستدرج الواقعي والتاريخي لكلا الطرفين المتحاورين في النص. ونقصد هنا التحاور، تواصل التداعي الحر بينهما، والمنلوجات الحاصلة في سياق القصيدة. فالشاعر يمنحنا فرصة التعرف على تاريخ النشأة بروي سهل ودال، بحيث يقربها من سيرة الانسان:

تعود سلالة هذا الكرسي الى ايام غابرة
فهو حفيد شجرة جوز نقشبندية
ذاعت شهرتها في منطقة (هورامان)
جده الاكبر كان نحات خشب
فنانا مبدعا، كما المطر
كان جده صامدا
وكأنه رابية منتصبة بوجه الريح

ولنر كيف تعامل الشاعر مع هذا المقطع، وذلك في التركيز على عناصر الاصالة والتأصل في الوجود. فـ(حفيد.. نقشبندية) لتفرد النوع. فاشجار الجوز تملأ روابي كردستان، لكنه اصلها بنوع متميز، لاحالتها الى هذا الانتماء الذي يثير عند الاخر نوع من الاعتزاز من جهة، ويضع الكرسي المؤنسن موضعة الرفعة. ولا يكون مثل هذا الا بتنبيه الذاكرة بالمكان الذي ترعرعت فيه شجرة الجد، فهي نقشبندية من هورامان، وهي منطقة كما اشار الهامش وعرة ولها تراثها العريق الذي تميزت به. والذي يزيد من هذا التصيل كون الجد الاب كان فنانا يجيد النحت على الخشب. وما تشبيه الابداع في النحت بالمطر الا مجازا تعدى الوصف العادي باتجاه عنصر الخصب والنماء الماء-المطر- وما يضيف اكثر من الصفات التي تعد مفخرة للكرسي بهذه السيرة كون جده كان صامدا بوجه الريح. وهذا يعني اشارة وتخليص لتاريخ طويل تعرضت اليه منطقة كردستان. وما صموده كالرابية الاصمود الانسان بوجه الطغيان. قد تبدو القراءة محايثة للتاريخ، لكننا نعتقد ان ما يدونه الشاعر من سيرة الكرسي، ماهي الا سيرة الزمان والمكان، وبالتالي سيرة الانسان. لما نجده من روح المطابقة الاشارية بين الطرفين السائرين في مسار القصيدة. ولعل السيرة تستمر في مضمار القصيدة لتستقبل حيثيات كثيرة، هي من بنات الاصيل. ولاسيما ما يرد من تخصيب لسيرة السرد والراوي في النص. وذلك من خلال اشاعة جو التاريخ الشعبي كالحكايات والطقوس الشعبية التي هي ما يسم ادب الكرد بعامة، خاصة

القصيدة التسجيلية في معظمها بنيت على مفردات الذاكرة الشعبية، وانسحبت على السرديات الكثيرة في ادب الكرد، وعلى سبيل المثال سرديات (فلك الدين كاكائي، خسرو الجاف، احمد محمد اسماعيل، هيرو عبدالله كوران) كذلك على شعر الكرد كما ذكرنا في مقدمة البحث.

وقد ورد الكثير من هذه المستويات من الحكايات التي تصب في دلالة تاصيل النوع. فتاصيل الخاصية الانسانية عند الشاعر للانسان لا تاتي من ورود الصفات الكبيرة المرشحة لشعارية وضيق افق قومي شوفيني، وانما يعمد الشاعر الى كل ما هو متاصل في الطبيعة وفي الحكاية الشعبية والاساطير مستعينا بالذاكرة الجمعية منفتحا على افاق واسعة. كما في المقطع التالي:

فصنع من خشب جسده
رقعة شطرنج بنية اللون
مع غليون للامير،
وعدة امشاط نادرة ومكحال ومهفة رقيقة
وزوج قبقاب لزوجته (ماء شرف) قمر الاميرا!

ولكي يختم الخصائص التي عليها الجد الاكبر، كان عليه ان يضفي صفات اخرى، ستواكب الحفيد-الكرسي-مدار الشعر. وفي هذا نجده ايضا يبتعد عن الجاهز من المفاهيم، وانما يعمد الى ان تكون السيرة وخاتمتها اكثر نصاعة، لانه بصدد مواصلة سيرة اخرى فيذكر بصدد هذا:

يحكى انه
وبعد رحلة الى العالم الاخر
تحول الى قنطرة جسر كبير
بين قريتين على ضفتي واد
كي يعبره الناس هناك

اذ نلحظ في المقطع تاكيد على الارادة الذاتية التي يمتلكها في ان يكون فناؤه وجودا للاخر. والتعبير هنا بـ(تحول) اكثر بلاغة في التضحية، فهي لا تؤكد على (صنع منه) افتراضا، وانما تحول بمحض الذات. وهنا يسحبنا الى الانسان الذي يختار مساره في الوجود. فالخشب الرامز للجد هنا محاولة لتاصيل الانسان ببدائل الطبيعة كالشجر والكراسي فيما بعد شجرة الجوز النقشبندية. هذه التحولات التي شهدها الجد-الشجرة-

تواكب سيرة الكرسي الذي تستيقظ ذاته عبر الازمنة والامكنة كما سنرى ونحن نديم قراءة القصيدة.

ابتداء السيرة:

تبدأ القصيدة بالتحول كما هو مركز النص، الى السيرة المكانية والزمانية للكرسي، مستشرفا من خلالها احداث التاريخ بكل روية واناة. فقط نتلمس طرقنا الى الخصوصية من خلال الشعرية التي تنطوي عليها القصيدة. فاناء الزمان نهر جار هنا، وبقاء المكان ازلي. وما يمر من احداث بكل خصائصها الايجابية او السلبية محض مخاض لتقويم السيرة. فالكرسي يخضع لمدونة الشاعر، غير انه يتمرد عليه عبر القاب ذاته. فنحن نتلمس مدى الصراع الدائر بين ذات الشاعر وذات الكرسي، وهو صراع سلمي، يهدف الى تثبيت الحقيقة. وهذا الصراع هو انموذج مقدم للحياة وللوجود من خلال رؤى الشاعر الذي يحاول قدر الامكان ان يسكب من رؤاه من خلال قناعه الكرسي. وبما يفعل المشهد الشعري. وفي هذا يستدرج السيرة وكأنه يربطها بما كان، من اجل ان لا تبتعد سيرة الحفيد عن سيرة الجد وكالآتي:

ولكن تلك هي الاعيب الزمان
فها هو حفيده
مغمور الان في هذا المقهى الصغير
ومسامير الالام تغرسه
وتنبض في رأسه!

هنا يحكي مفتتح السيرة بشيء من التروي الذي يحتوي تعبيره على ملخص ما رأى وما شهد الحفيد من ويلات. فعبارة (ولكن) استدراك لما سيأتي وربطه بما كان. و(مغمور) دال على ضياع الذات بين الذوات الاخرى و(تنبض) عكس للمعاناة التي عليها الكرسي. من هذا نتوقف على حجم المأساة في حياة الكرسي عبر مقطع افتتاح السيرة، بعدها تتوالى المفردات لتظهر المواقف والافعال وردودها. فهو ليس كرسيا خانعا، ولا هو عديم الاحساس، ثم لا تخلو حياته زمانا ومكانا عن انفعالات هي بمثابة استجابات لما يمر عليه من حيف اجتماعي وجنساني:

وقد سئم الحياة،
انه كرسي جامح، فيغير موقعه حينا

من هذا الركن الى ذلك الركن
ومن هذا الجانب الى ذاك
لانه لا يخرج الى الشوارع مطلقا
ولا يرتاد الاسواق
محدقا فيما حوله،
وكي يبقى شاخصا في الحياة
فان احضانه مفتوحة للجميع

وفي هذا تحقيق للذات، مبرزا دور التضحية التي يقدمها هذا الصامت الصائت، وما له من دور اجتماعي ضمن حقل اسرته، ومع الاخرين الذين يرتادون المقهي. ولعل وجوده مرتبط كما يتصور هو مع وجود الاخر، فجدلية وجوده في الكون مرهون بوجود الاخرين، لذا فـ(احضانه مفتوحة للجميع) يخلق له كيانا يستجيب ويحاور، وحامل لوجهة النظر. ويسهب في وصف وظائفه ومهماته وخصائصه التي تتفرد على ما يبدو عن بقية الكراسي المجاورة له ضمن مسيرته في الامكنة. وبهذا اكسبه تاريخا حقق من خلاله هوية واضحة. فهو من هذا كرسي مثابر، وذو هيبة، ومعتد بنفسه باقتدار. ويعول على ذاكرته في محمولاتها من المشاهد، بحيث يتحول الى شاهد على ما حوله وما مر به من حيوات وحقب محتدمة بالمتغيرات. انه يتعامل معه في كونه مخلوقا يمتلك كل الاحاسيس والطموحات والتطلعات. بمعنى يحاول الشاعر ان يؤنسن الصامت هذا، ويخلق له تاريخا كما ذكرنا. فذاته مضحية. وهي صابرة على ما يعتوره حياته، غير انه يفتقد للكثير من الاشياء، على الرغم من انه لا يتذمر او تضعف همته في حب الاخرين. ولعل عقدته الاساسية انه لا يعرف النساء ناعمات الاجساد، حسب قول الشاعر.. لم ترتم في احضانه واحدة منهن... كما انه اكتسب المعرفة من توالي الازمنة والحقب الصعبة.

الكرسي راويا:

تتبلور السيرة عبر تحول الكرسي الى راو، يتخذ من ذاكرته منصة يروي من خلالها كل ما مر به، وما تعرض اليه الاخرون من جنسه، او من الجنس البشري. وبهذا يضعنا بمواجهة حقائق تعبر عن السيرة باتجاه الدلالة. فثمة تواز بين التاريخ الشخصي للكرسي وبين تاريخ الانسان. بمعنى هناك اثراء في اظهار صورة الانسان منفردا ومجتمعا. فروايته بمثابة مدونة. فهو بعد ان يسرد بعض اوجه صفاته يؤكد على:

اما جذوري الابعد فقد تعود الى رياح القبيلة
وجدتي الكبرى هي وليدة امواج الساقية

وربما تشكلت جذوري الاولى
من حفنة طين قرب صخرة ما.
حينما كنت شتلة حدث...

هذه الصورة المتصلة في السيرة الاولى، لم تكن لتتوقف، بل حاولت ذاكرته ان تثري المشهد، بالصور التي حثت من بعد ذلك من هياج للريح والعواصف والانتهاك. بمعنى استغل الكرسي في هذه الحال ان يوظف رؤيته لصالح التعبير عن التاريخ المسكوت عنه. ويلخص رؤيته هذه بحكمة اطلقتها الفراشة السوداء مفادها:

طالما ظلت العاصفة نائمة والفأس غائبة
فالدنيا بخير!

وتستطرد القصيدة في كشف مثل هذه الرؤى والرؤيا، لحظة ما شهده ضمير الكرسي من انتهاك للفراشة التي انعكست صورتها الى ضياع. كانت الاسئلة تشخص لتبحث عن اجابات عما حدث، فكانت الاجابة بمثابة صورة بشعة لما تخلفه الحروب:

من الصحراء... من وسط الرماد والتراب
من بلاد العجاج الجنوبية
التي تاكل الابل وتعتمر العقال
وصلت الاف الاعاصير
جاءت لتضع قلادة في صورة (بسم الله)
في رقبة كل ما هو فارع القامة
ثم يقطعونه بعد ذلك!

ولنلحظ هذا المقطع الذي يلخص حقبا تاريخية مرت على منطقة كردستان كان الموت يقاسم ابناءها، ويحرق زرعها، ويحيل كل شامخ الى رماد. من هذا نؤكد شعريا على ان سيرة الكرسي ذاكرة، يحاول الشاعر ان يستدرجها لتقص لنا عن كل ما اعتور البيئة والانسان عبر تاريخ مر بثقل. فالشاعر يجهد لكي تتوازى ذاكرته مع ذاكرة الكرسي، من خلال التماهي وهدم الحدود الفاصلة. فالقناع هنا وسيلة تعبير عما هو مسكوت عنه في التاريخ البشري. فرواية الكرسي لم تكن لتنتهي عند حقبة او اخرى، وانما يحاول ان يداخل بين هذا الزمن او ذاك، بما يمنح الحس الانساني قوة انتمائه الى الجماعة البشرية والطبيعة. فيروي ما رواه الاب على سبيل المثال، لكي يؤكد اصالة نشأته ووجوده:

روى ابي عن جدي
عن راو قديم قال: ان الرب النجار
قد يصنع من الاشجار عشرين قطعة خشبية
لكن روح البقاء تبقى، فقط، في القطعة الاولى
اما البقية فستبقى جمادا مهما كانت صورها
كان ابي يقول دائما
نحن الاشجار والغابات
ربنا الاول هو الطبيعة
وربنا الثاني هو النجار

وتتوالى الاحلام والطموحات والصور التي اختزنت في ذاكرة الكرسي، الامر الذي يضع الاشياء المنبثقة عن مستودع الذاكرة، محاولة لتاسيس مدونة فيها الكثير من الاعتزاز اولا، وتتضمن قيمة فنية في صياغة الصائت لتشكيل بنية اساسية في الروي ثانيا. كل هذا يمنح النص قابلية التقويم والبوح والاسترسال المفيد في تنامي الوعي الاجتماعي والسياسي والنفسي. ومن هذا الفعل يزداد نشاط الفاعل الشعري في كونه يسترسل في متابعة السيرة، فهو قناع الفاعل. يقود السيرة من بعد ذلك الى الاسئلة الفاحصة للوجود وغموضه، لكي تكشف ايضا مبررا لما يقع على الكرسي من حيف زماني ومكاني. هذا التشكيل للاسئلة يقود الى المنطقة الاكثر حساسية، وهي علاقة الصائت بجمهرة المثقفين، سواء من رواد مقهى، او ممن كان الكرسي ملاذا لهم في اماكن متفرقة من حياته. فهو يتعامل مع هذه الشرائح بحساسية مرهفة ووعي عال ينحاز للجمال المعبرة عنه افعالهم الابداعية:

السؤال الاول: وانت.. ماذا تتمنى ان تصبح؟!
الجواب: منضدة في غرفة شاعر.
السؤال: هل انك مغرم؟!
الجواب: نعم، بشجيرة الرمان تلك
في الجهة المقابلة
لكن السور الشائك لوالديها واشقائها
يعترض سبيلنا

ويتواصل الحس الرومانسي، حيث تتماهى الصور وتتأكد المشاعر عابرة في الذهن ومتجاوزة كونها احلاما مؤجلة لصامت، فهي من خلال رقتها التي سبغها الشاعر عليها غدت لغة مؤجلة للانسان وهويستعرض وتتداعى احلامه. انه نوع من الكشف للنفس

البشرية، منحت الكرسي وظيفة من بين الوظائف الاخرى. وارى ان مثل هذا سبيل لتجاوز الرمز لقيمته الدلالية، وتوالدها بتغير الزمان والمكان، وهي دال على حيوية الرمز، وامكانية الرامز المعرفية في استلهام بنيات كثيرة لرمزه. فالكرسي هنا تتعدى احلامه المؤجلة مخطط النص، بما تكشفه من عوالم دالة على ثراء مخيلة الشاعر، باندفاعها نحو مناطق واسعة، تتوالد بتواصل النص في الكشف:

وما رأيكم عن الكراسي المصنوعة من اللدائن؟!
انها حقا بلا اصول ولا جذور
فلا احد يعرف من اين تنحدر تلك الكراسي
انها مجرد اجساد بلا ارواح

ويكون التواصل في كشف ما يخص حياة الاشجار التي صنعت منها الكراسي، لدرجة تتوسع دائرة معارفها، من خلال عكس عالمها الخاص الذي يومئ لصراعات وانتحال وتزوير في عالم لا يختلف عن عالم الانسان. هذه الحدة في التناقض في الرؤية والكشف دليل على تشكيلات عالم النبات. وهوكشف يبدو شديد الحساسية والحساسية الشعرية. وفي هذا يلخص رؤيته لما يجري:

من بينهم من تزوج اكثر من ثلاث نساء..
واخوف من كل ذلك تواطؤهم مع الحطابين
على قتل الاشجار الفقيرة

لكن في هذا يتصاعد الدال ليكشف عن بنيات اكثر مساحة في الفعل الاجتماعي:

سمعت ان معظمها تريد ان تصبح ابوابا ونوافذ
او كراسي ودواليب، في غرفة الملك وفي بلاطه
او تصبح ديكورات داخلية لابنية السلاطين
او عروش الملوك واسرتهم
او سفنهم واثاث الملكات..
او اعواد الصولجان

لشاعر هنا يمنحنا فرصة الاطلاع على طموحات معاكسة لطموحات نموذجه. وبذلك تتركز الدلالة في النظر الى الحراك الاجتماعي والسياسي من خلال المقارنة التي يظهر جانبها الايجابي عبر تصفح الاشجار والخشب، لكن خشب الكرسي قيد القصيدة، يبتعد

عن هكذا طموح. اذ اشتغال الشاعر على دربة البحث عما تنطوي عليه مخيلة الصامت، انما يبدي محاولة لحوار هادئ لا يسفر عن صراع بقدر ما ينطوي على مجموعة اقفال وسلوكيات شكلت بنية الواقع المتحرك حاضرا وماضيا، لتكون خير نافذة للمستقبل. ونرى ان مثل هذا الاستخدام يوحي بجدلية الذهن الشعري وقدرته على الاستقبال والاحتواء ومن ثم الفرز والدمج لتظهر صورة اكثر قدرة عن التعبير عن الافكار دون اللجوء لغير الشعر. ولعل تعامل القصيدة التي يكتبها الشعراء الكرد او سواهم من الشعراء، تعمد الى توظيف الموروث من ابسط طبقاته ومستوياته، لتشكل منه الذائقة الشعرية فضاء واسعا. وكذا يقوم معمار الاسطورة في الشعر. فالذي يشكله نهج الشعر لدى الشاعر (بيكس) انما يحاكي عناصر الطبيعة، واكثرها تخصيبا ليلاعب عناصر الاسطورة من اجل استمالتها للشعر. فالشعر والاسطورة متلازمان، لان كليهما ينتجهما المخيال الذي كثيرا ما يبحث عن متونه الغائرة في القدم منذ الحضارات الاولى، او الثقافة البدئية عند انسان الكهوف من خلال الخربشة على الجدار، لترك الانطباعات الاساسية عن الكون والحياة. فالجدار لازم الابداع، واستعان الشعر بالطرس ليكون مدونة ومجالا حيويا اخر للتعبير عن مكونات ومكنونات الذات. ارى ان كليهما الجدار والطرس يتماثلان مع بعضهما.

التاريخ... مرآة الواقع:

لاشك ان السيرة تتكئ على التاريخ كمدونة، والشاعر يتعامل مع احداث التاريخ من خلال تصعيد الذهن في استعادة مفردات الذاكرة الشعرية للصامت-الكرسي-. فالتاريخ هنا يراوح بين الاصول والاشتقاق، اي بين ماض كان فيه الكرسي جزءا من شجرة، وبين وجوده بين اقرانه. وفي كلا العالمين ثمة تاريخ تتفاوت فيه خصائص الحياة، تمكن الشاعر ان يكثفها ويوزعها على شكل انثيالات يتوجبها الموقف الحالي للكرسي. وهي كالاتي:

عندما كنت شجرا
مررت بايام غزت فيها الجراد الغابة
واقتلعت عيون الجوز
وايام طافحة بالدخان
***
مرت بنا ليال كنا لا نحصي فيها اوراقنا الميتة حتى الصباح

ومن شدة الخوف كنا نحضن بعضنا البعض
اذ اغتالوا المياه امام انظارنا
ونصبوا المشانق للشمي والرياح امامنا
***
نحن الكراسي نروي حكاية الاشجار من لسن الاخشاب
ومن لسن الاخشاب نروي حكاية المياه
نمضي بالزمان... ثانية
نحو التقاويم التي قادوها الى الجحيم
ومن لسنها نروي ما حل بالمدينة وبالانسان

هذا السياق من التذكر يتناص مع حقب التاريخ، ليسجل ما مرت به ارض كردستان في التريخ البعيد والقريب، والشاعر حريص على ان يبقي قناعه الاكثر جدارة في التعبير عن عالم الانسنة، لكي لا يقع في المباشرة مما يرويه التاريخ. كما يحرص على ان يكون شعره متمرئيا بعناصر الطبيعة كالشجر والماء، لانهما اكثر الحيوات قربا من الاسطورة، وبالتالي اكثر حيوية للتعبير عن الاخصاب او عدمه في الوجود.
والقصيدة تنحو نحوا اخر، ذلك في تحقيق الذات التي يتوجب على الكرسي الصامت ان يفخر بها بين اقرانه. وهي انثيالات قلما تخرج عن سياقها الاسري وانتمائها الطبقي الى عائلة ومجتمع الكراسي. في مثل هذه التداعيات يتساوى الصامت والصائت في الصوت. اي صوت الانسان وصوت الكرسي، لاعطاء خلاصة فكرية تتعلق في حيثيات الصور المعبرة عن الجود واحقيته في الحرية والكرامة والانسانية. وما هناك من مفاهيم تكون مادة للتذكر الشعري-ان جاز التعبير-. فنراه يخرج بنمط الحكمة جراء تذكره الحيف الذي وقع على اسرهم فيقول:
من رماد السنين تنبت البراعم وتتفتح الازهار
تعود الرياح الى ادراجها
فتنبعث الاسئلة التي اغتيلت سرا او علنا
ويعود الماضي بهدوء.
نحن لا نعيد الماضي كي نعيشه من جديد
او ننتحب على جثته،
بل ليعلم الحاضر والمستقبل احلامه
ويكتشفا الاجمل والاحداث

هذا المقطع كما هو واضح يكشف سريرة متوازنة، لا تحمل سوى بياض الصورة التي

تفتح للمستقبل. وما رفض البكاء سوى اعتداد بالتاريخ، ونعني به تاريخ التضحيات التي بذلها الانسان في ربوع كردستان دفاعا عن الانسان في كل مكان. لذا يتواصل في الكشف عن الموقف المبدئي الذي يكشف عن الاسس التي يعتمدها مجتمع الكراسي الان ومجتمع الاشجار سابقا. اذ نراه-اي الكرسي-يؤكد:

نحن معشر الكراسي
اعمارنا اطول من اعمار الهتنا النجارين
نحن الكراسي
لا نريد ان نذهب الى النار بكل ما عندنا
من رؤى وتجارب وذكريات،
لذلك قررنا ان نروي لكم كل ليلة
كل واحد منا على حدة
قصص حياتنا ودورات تحولنا
من الاشجار الى الكراسي

ان الكرسي بانثيالاته المتعددة والمتشعبة، انما يحاول ان يحيط بما مر به وبالاخرين، فهو كما يذكر يحس بالضيق حين يتخذه مجلسا رجال ثقال، ويود لو يرميهم بعيدا، غير انه يستأنس حين يقتعده المثقفون وخاصة الشعراء والروائيون. هذا ايضا يسحبه الى عكس انطباعه عما مر به مع رفقة استأنس بصحبتهم من غير افراد اسرته، فهو في هذه الحال شاهد عصر يسرد سيرة عازف مرهف، ويغرق في صوفية الوصف والوجود، حتى لتخاله انسانا يترك انطباعاته الفنية والجمالية. وبهذا نكون امام صورة اكثر بهاء وسعة وجمالا:

كان ضيفا معطرا جدا..
يفوح منه عبق رقبة السيدة العذراء
وعطر صليب المسيح
واريج اليأس المزروع في بيت (كريم ألكه)
ورائحة (ابونا)
شاب شبه بدين وقلادة الصليب تتدلى في عنقه..
لم احظ ضيفا
اعز من هذا الموسيقار على قلب العاشق
ولا ابالغ ان قلت بانه قبل ضيفه اكثر من مئة قبلة

ويستذكر الكثير من التاريخ، سواء ما كان يخص المدن او القرى او قمم الجبال، كذلك الشخصيات الوطنية والرموز الاجتماعية والثقافية في التاريخ. تاركا عباراته تختصر الرؤية التي تعكس نظرته المشفوعة بالحب والوجد الثوري. اي الحس الصوفي الذي يمزج بين الثوري كرمز وبين الحس الروحي. وبذلك يجسد لنا نموذجه على هيئة بهية تستدرج التعاطف والميل الصوفي:

واحيانا كنت ارى معتقلين ضخام البنية
يشبهون، في قاماتهم وخواصرهم
اشجار الحبة الخضراء
يشبهون اشجار التوت، لكنهم ينهارون
ويبوحون بكل ما يعرفون، بمجرد رؤية المكواة
الحارة، وحتى قبل ان يجلسوا على كتفي.
ومن ثم همس في اذني قائلا:
فليبق سرا بيننا..
لقد حدث على كتفي ان مزقوا واحدا
من رفاق (الحيدري)
ولكنه ظل مبتسما حتى ثرموه

هكذا تكون مدونة الكراسي، ذاكرة حية تشمل مجمل السيرة، وتعطي للتاريخ دوره في صياغة الاحداث وبلورتها، سواء لصالح الانسان او عكسه. المهم ان كرسي (شيركو) ذو بصيرة واسعة ومتوازنة وحيادية احيانا وهي تلملم شتات التاريخ بروية ودقة وذات تاثير حسي واضح.

الاستذكار.. والحس الوطني:

لعل واحدا من المعالم التي ميزت شعر (شيركو) هو الحس الوطني، والذي استلهمه من خلال المعايشة والاستذكار لرموز وطنية وشعرية. وهي نماذج متنوعة من الرموز الكردية شكلت تاريخا طويلا شهدت له المواقف والثورات التي تركت بصماتها على التاريخ. وهذا الاستذكار ياتي من باعث الاعتزاز، سواء بالمواقف التي وقفتها الرموز عبر التاريخ، او من طبيعة الابداع الادبي كالشعر الوطني والانساني مثلا. فهو يروم اي-الكرسي-استذكار من مر به وما سمعه من مجمل التاريخ، لا لشيء سوى لتحقيق نوع من التوازن المتأتي من هذا الارث الانساني. ففي مجال الاحداث والطبيعة، نجده يتغنى

بما روى له ابوه:

قال ابي:

ان لك من شجرة التين تلك اخوين بالرضاعة
ولكن اسفا..
فقد قتل احدهما بغارة طائرة على (جاسنة)
والاخر رحل الى (هانة كرملة)
ثم تزوج من ابنة شجرة جوز على ما اعتقد
واذا لم تخني الذاكرة
فان (احمد مختار) هو الابن البكر لتلك السيدة

ولعل علامته الاساسية التي شكلت قدوة هو جده (بيكس). فقد كانت مواقفه الوطنية المرآة التي يرى الشاعر ثمة امتزاج بين صورته في ذاكرته وصورته في ذاكرة الكرسي:

(بيكس) خطى نحو الصف الاول
وما ان ابتعد عني خطوتين
حتى تحولت قامته الى كتلة من اللهيب
واصابعه الى جمرات..
فوقف امام (المستر ادمونز)
ليلقي قصيدة (منذ سبعة وعشرين عاما)
ثم اصبح صوته الجهوري طوفانا
صارت كلماته مشاعل

وينقل مشاعره ازاء ما يرى من مشهد، لا لشيء سوى لانه غدا جزءا مما حدث. وهذا ما عنيناه بالتماهي بين الواقعي والمتخيل، اي التوائم بين ما يتجسد عبر الصامت والصائت، حتى تتضاءل الحجب بينهما، وتصبح لغة الشعر هي السائدة:

قلت في نفسي ستنهال علي الفؤوس والشرطة
لانني كرسيه، وسيقتلعون يدي من جذورها
ويبترون قدمي ويرمون بي في وسط النيران
ولحسن الحظ لم يحدث شيء
وتلفظ (المستر ادمونز) ببعض العبارات
كما القط الغاضب

ان ذاكرة الكرسي زاخرة بالتلون، فهي مدونة تسجل وتستذكر وادق الاحداث. كما تعقد نوعا من انبعاث الحياة حتى في الميت من الاشياء وركود الامكنة. بدليل السيرة التي بنيت على اساس نمط الحكاية التي استلهمت التاريخ، واسقطته على حياة الكرسي. هذا النمط الذي كان بديلا على توالي النسق الشعري قد اغنى الشعرية بسبب دنوه من الحس الشعبي اولا، ثم التمرئي بتاريخ الافراد والجماعات ثانيا، وثالثا اتخاذ الطبيعة وما جرت عليها من متغيرات جراء تعسف الازمنة مثابة لكشف المسكوت عنه من التاريخ، ولكن ليس وفق نسق تاريخي مباشر، وانما من خلال تمثل عالم اخر مزيج من سيرة الكرسي، ومثلها للحيوات الاخرى في الوجود. ولعل الحوارية التي كانت تعقدها الكراسي حين ينفض عنهم الرواد، محاولة لكشف مثل هذا التاريخ او الحراك. ويبدو ان السيرة غلبت على محور القصيدة، من خلال تجدد مشاهدها، وتغير رموزها، وفي كل هذا تبقى ذاكرة الكرسي اكثر طراوة لحظة التذكر، واشد تاثيرا بما تستعيد صورته:

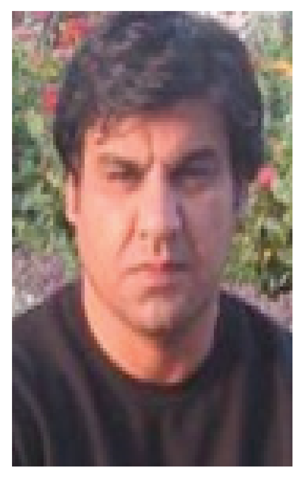
الضياع.. الضياع ثانية
وهذه المرة في مقهى (سيرجيمن)
وفي دكان (علي قوتار) العتيد
حيث اصبحت كرسيا للضيوف
كنا كرسيين فقط
كرسي السيد (علي) وانا
(علي قوتار) كان طيبا جدا
ومحبوبا عند الجميع
بعد يومين فقط من وصولي
استبدل ثيابي الرثة القديمة
اخرى خضراء جميلة
وكان يمسحني بيديه شخصيا

ثم يتواصل في روي ما كان يمر به. معتبرا حياته هذه بديلا لما مر به سابقا:

كان يتردد على المقهى رجل يجلس على كتفي
ولطالما تمنيت ان لا يغادر ابدا
وكلما حضر الى المقهى تحدث عن قصائد (نالي
ومحوي او مولوي وحمدي) كان يتحسر فيها صوت
(سيد علي اصغر الكردستاني) الرخيم. كان هذا
الرجل يدعى (ديلان)

هذا النمط من التشكل لم يبرح قصيدة الديوان، بقدر ما اثراها الشاعر بالصور الجديدة المتمثلة للتاريخ من خلال الحس الشعبي الطاغي والذي اتخذ من الحكاية نسقا ومعنى ساهم ذلك على تصعيد وتيرة الشعر بتصاعد رموزه المؤثرة في التاريخ، حيث كان ذكرها نوعا من منح الذاكرة الجمعية الحيوية واليقظة. وهذا الدفق ساهم كثيرا في بلورة الشعرية التي ما استندت الا الى موروث عريق من اجيال شعرية مزجت بين الرؤية الشعرية والحس الشعبي الذي تميزت به الذاكرة الشعرية للكرد، وصاغته حكاية واسطورة، عمقت بلاغة الشعر بالدلالات وممكنات الفن.

عن الحكاية العراقية وأحوالها ما الذي قاله السارد الكتوم؟



محمد ثامر يوسف

مرة، وبعد عام من انقضاء حرب الكويت، عبّر احد الروائيين العراقيين بوضوح، وهو يضع أولى خطواته في عمان، في هجرة ستكبر وستصير جماعية، عن حراجته من الحرية الواسعة التي عبأت انفاسه فجأة، وعن جدواها، وسأل حينذاك كيف يواجهها. بعد وقت قصير من ذلك، في المنفى الذي صارت مدنه تتعدد وتتشظى كما الوطن، أقضّ هذا السؤال الذي اضحى حقيقياً، بل ثقيلاً وصادماً، مضاجع الجميع: ماذا سنقول، وكيف سنروي ما رأيناه، وما كنا ازاءه وجهاً لوجه؟ مع عمق السؤال وبلواه، سيضحك ايضاً وللمرة الأولى، قارئ قريب ملء شدقيه، متمعناً في ما كُتب، فاحصاً الكتابة وانهزاميتها، من عجزها حتى عن التلميح، ساخراً من كتب غرقت على الدوام في وصف استعلائي عجيب «بقصد او بدون قصد» لأشياء لا علاقة لها بما يجري. كتب، وكأن ما يملأها

دمدمات مبهمة متسربلة من كوكب بعيد. كتابة غالبا ما كانت مجبولة بلعنة طبعت الكثير من الوان الثقافة العراقية في الداخل بأمراضها، اسمها «التجريب». بالتجريب،

ساحت كثير من السرديات العراقية لسنين طويلة، وغابت كثير من التفاصيل الدقيقة التي تتعلق بحياة البشر. سرديات استهلكت نفسها طويلاً بلغة عويصة ومتكلفة، لم تكن تقول، اكثر مما كان همّها ان تسود، مزهوةً بتلك الطمأنينة الخفيفة التي تصطفيها رقماً في متوالية كتب أخرى صارت تتوالد سريعاً، بينما كانت المحنة من جهتها تحفر عميقاً لتطيح كل شيء رويداً رويداً، مدوّنةً بطريقتها المعهودة، آلاماً وجروحاً فادحة.

بعد عقد ويزيد من صرخة عمان، واجه المثقف العراقي في الداخل، السؤال ذاته، لكن بظروف أخرى وتداعيات مختلفة ومضاعفة. فمع انهيار نظام صدام ودخول القوات الاميركية العراق، انكشف هذا «الراوي» على قوة الصرخة الاولى نفسها وهي تحدّق بعينين اوسع هذه المرة، اي في الحقيقة الماثلة التي هي بوصف دقيق، صورة اقرب الى الخيال منها الى الواقع، مع انها ملموسة وساخنة. صورة تتكرس كميلودراما ينسجها صانع أفلام ماهر، نشيد فيلم مر، وحيد وطويل، حافل بكل ما لا يخطر في البال، يمتد على سعة هذه الجغرافيا، وهي الصورة التي ستمكث في تلك العينين، لكن بقوة احتمال المشهد المؤلم وقسوته، المشهد الذي جسد بلمعان فريد كثافة ما يمكن ان تفعله الفوضى وتشظيها في المكان.

اللعنة (الطريقة) التي أستمرأها روائيون وقصاصون عراقيون عديدون طويلاً في الداخل والتي اخذت كثيراً من الوقت، انكشفت على ما يشبه فضيحة كتابية، هي اشبه بالخواء امام قارئ اعزل، يجيد من جهته التماهي مع الواقع المأسوي بإقناع اكثر مما لأحد ان يدوّنه، قارئ (فرد) يحدق جيدا الى مرآة يديه، شاهداً وحده على جحيمه غير المدون ولو نسبياً في كتابة، أم لم تتلمس الا لماماً شيئاً من ذلك. يتعلق الامر بالحرب الايرانية وأهوالها، ثم حرب الكويت والحصار المجنون الذي اطبق فكّيه في ما بعد على كل شيء، ثم اخيرا على دراماتيكية الاحوال الراهنة وغرائبية ما حصل بعد العام ٢٠٠٣.

فبعيدا من الكم الهائل من السرد التعبوي الحربي المجاني الذي سُمّي زورا بأدب الحرب في ثمانينات القرن الفائت وما بعده، من جهة، ومن جهة اخرى بالقليل جدا مما ناهض ذلك شكلاً وموضوعاً، من روايات كتبها خارجون تواً من اتونها، او قبل ذلك بسنوات، وظهرت خارج البلاد محايثة الى حد، ذلك الجنون، عدا ذلك اقول وباستثنائه، فإن الكثير من هذه الكتابات، توسدت مخدة النوم مستغرقةً اكثر مما يجب بهذه الطريقة التهويمية في ليّ الكلام، والحلم باجتراحات لغوية ظلت العلاقة معها اقرب الى الشبق، منها الى البوح والتأمل العميق. كثير من الذين مالوا لذلك، كانوا بالفعل محسوبين على ما سمّي بجيل الريادة الجديدة داخل البلاد (الستينيون والسبعينيون مثلا)، الذين جرّوا خلفهم

حشداً ممن اتى بعدهم على هذا الصراط، مغويين آخرين جبلوا على هذا النمط الممل، ممن كتبوا بإيحاءات اللغة ذاتها وضغطها، فملأوا صفحات مشابهة بارحت كتاب الدم والاوجاع، وراحت تجترح نصوصاً لا علاقة واضحة لها بشيء، ليس خشية من نظام بدأ يتأكل شيئاً فشيئاً فحسب، ولكن اكثر بسبب ذلك الولع الشديد بتحشيد الكلمات والاهتمام بهندستها المتكررة - ولم لا - ربما حتى الخشية من قوة المغامرة في ابتداع وسائل جديدة ومغايرة في السرد، تلك التي بدأت ملامحها بالظهور نوعا عند قلة قليلة من الشباب خصوصا، وغيرهم، قبل عام التغيير بقليل وبعده بصورة أوضح، واخذت تفصح عن الكثير من الاشياء والتفاصيل اليومية، بعيداً من المرموزات المغالية، او النصوص التهويمية الاقل وعياً بحراجة الظروف المعاشة وقسوتها. لكن اللافت والطريف في ما بعد، ان جمعاً من اولئك الآباء انفسهم، ومن تبعهم، كتبوا او افصحوا في بعض الجلسات الثقافية القليلة التي صارت تعقد او تتم فيها مناقشة مستقبل السرد العراقي، او ما حصل فعلاً، بما فيها جلسات النقاش على المنصات وغيرها (قاعات اتحادات الادباء، مثلا، او حتى في الجلسات الخاصة) بعد اسقاط النظام في ٢٠٠٣، انهم كانوا، يواجهونه بتلك الطريقة! بمعنى انهم كانوا يقولون ضمنيا كيت وكيت ضده، ومنهم ادباء بارزون. هذه المنصات نفسها استقبلت ايضاً بعد هذا التاريخ روائيين وقصاصين آخرين قدّموا توقيعات مباشرة، فانفجرت كتاباتهم كردود سريعة على ما يجري. لكنها كتابات خذل كثيرها قوة الجوانب الاخرى التي تمليها شروط السرد ومقوماته، وخصوصا بعدما صارت التجربة كلها تنكشف على كتابة اسلوبية مختلفة ذات حساسية مغايرة، هي في الحقيقة اقل تعقيداً، وأعمق اجتراحاً وقرباً من وهج اللحظات الانسانية في الواقع، قدّمها على طبق، الانفتاح الهائل في الحياة العراقية «الجديدة»، على آخر قريب، او عند روائيين عراقيين ايضا دوّنوا في الخارج قبل هذا الوقت وبعده، شيئاً من سيرة ذلك الالم، عدا انتباهة البعض القليل في الداخل لما وجب تدوينه بأمعان وتفاعلهم معه. إذ لا يمكن اغفال الاعمال السردية التي قدّمها بالفعل روائيون معينون بعد العام ٢٠٠٣، امتازت اعمالهم برائحة مختلفة وطعم جديد عما تم انجازه على صعيد اللغة وطزاجة الموضوع الذي اصبح اكثر حرارة واكثر ايغالاً في الكشف. لكننا ونحن نتحدث عن ظاهرة شاملة، وعن واقع عراقي طوباوي لا يشبهه اي واقع كوني آخر، فإن ما تمّ رصده قليل قياساً لمحمولات هذا المشهد وتحولاته العبثية وفجائعيته وسعة تفاصيل ما يمكن الحديث عنه في الكتابة، عن ذلك العنف الاعمى الذي طوّق البلاد، وعن طبيعة العلاقات الجديدة التي سادت بين الافراد، والتي رسمتها ظروف الحال الاجتماعية والاقتصادية الجديدة

بإيقاعها المضطرب والمخيف، وكذا عن القيم المأزومة وتحولات المزاج العام، وبالطبع عن تداعيات الاحتراب السياسي والطائفي الذي غلّف ذلك كله.

لذا، فإن من الطبيعي، ونتيجة لذلك، أن يواجه السارد العراقي من جديد ذلك السؤال الاستفزازي الاشكالي العميق الذي تداولته الألسن مرةً أخرى، ويتقبله، وفحواه دائما، أن الناص العراقي (في غالب ما كتبه) يشهد المأساة بأم عينيه، بينما يذهب ليدوّن اشياء أخرى.

مقولة تحفّ بها مقولة شائعة أخرى او تتذرع ضمنيا بها، وهي: ان كل كتابة مهما علت، لا يمكنها ان تصف هذا الواقع العجائبيٍ او تعلو فوقه. مقولة تبدو طبيعية ايضاً بالرغم مما تحمله من مجاز. فنص الجحيم السائد وما يرسمه الفاعلون الاصليون هو الاقوى والابلغ. ولكن ما الحل؟ وهل من السهولة مغادرة كل شيء، او أغماض العينين؟

لا مفر ايضا من الاعتراف بأن ثمة كسلاً سائداً في مواجهة ما يجري والتحديق اليه. ثمة استرخاء غير مبرر في إعادة إنتاج الصورة الماثلة واعادة تدوين اللوعة بكل ما تحمل من دلالات. بل لا بد من القول إن مناقشة واقع الرواية حتى الان ضعيف ولم يتم بالشكل المطلوب، لا على صعيد المؤسسات الثقافية، ولا التفكير بذلك على مستوى الافراد او النخب.

ففي السياق، وفي مقابل ذلك، لا يزال الشعر يسحب البساط مما حوله، ويستحوذ على كل شيء بقوة حضوره التاريخي الثقافي في المكان اولا، وكذا بإمكانات ما تحمله طبيعته. فعلى المنصات وفي اروقة المؤسسات، ثمة شعر. في المهرجانات الدائمة، وعلى صفحات الجرائد، ثمة شعر كثير. ومن هذا يمكن ان نلاحظ ضعف حضور الرواية، ومناقشة حالها وأوضاعها حتى الساعة. لا ندوات او مؤتمرات حولها، ولا نقاشات معمقة، الا في ما ندر، وفي الامكان عد مؤتمر واحد عُقد للرواية، او اثنان انتظما وتناولا اوضاع القصة وواقعها، منذ عام التغيير حتى الان.

لا يتحدد مفهوم الكتابة السردية وعلاقتها بالواقع بشكل واضح في أدبيات الثقافة العراقية بعد العام ٢٠٠٣ (السرد بشكل أخص)، مع ان وقتاً طويلاً مر حتى الان. فاذا كان الزمن السياسي الجاري، وعمر التحولات الاجرائية في بنية «الدولة» ما بعد هذا التاريخ وارتباكاتها، مفهوما الى حد، فإن ذلك غير مفهوم على الاطلاق في ما خص عدم كثافة التناولات السردية المنجزة ومناقشتها حتى هذا الوقت، وضآلة ما صدر في هذا الشأن، باستثناءات قليلة، يمكن الاشارة اليها. ولعل اسباباً عديدة لذلك قد يطرحها البعض، لها علاقة بالانحيازات الضمنية، وطبيعة المناخ العام، ومدى القدرة التفاعلية مع الاشياء، وحساسية كل مدوّن على حدة.

ومع ذلك لايمكن عدم الاشارة الى بعض هذا القليل الذي حرك شيئا من سكون هذه البركة، كتلك الروايات التي قدمها كتاب عراقيون عاشوا المحنة او تلمسوا حرارتها، على سبيل المثال، التفاصيل التي عكستها رواية شاكر الانباري (نجمة البتاويين) والذي جعل من طلة فندق متواضع في حي البتاويين وسط بغداد وهو عبارة عن شقة صغيرة، مرصدا جمع بعض الاصدقاء، ليطلوا منه على واقع مدينة أصبحت لاتشبه نفسها، حين تحولت عنوانا لروح اخرى، اومرتعا يجوب فيه القتلة والسراق وعصابات الخطف الشوارع، يتحدث شخوص الرواية داخل هذا الحيز، عن هذه الحياة وهي تعج بالضحايا والابرياء، مثلما تعج بالسفلة ومتعاطي الحشيش والقواد، متواصلون بطرق شائكة مع احياء بغداد الاخرى ومناطقها الاليفة، وقد اصبحت صعبة الولوج في وقت ما.من هذا المكان الذي اسمه (نجمة البتاويين) تنطلق الرواية وتتداعى فيها حكايات عبثية عما يحدث في بغداد.

بينما جسدت لطفية الدليمي في روايتها (سيدات زحل) وبطريقة أخرى، شيئا من تلك اللوعة، لكنها توغلت أكثر نحو تاريخ بلد كامل عبر ازمنة عنفية متداخلة وطويلة وصلت في ذروتها الى ما حصل بعد العام ٢٠٠٣ حين تأجج العنف والتهجير وتصاعد المد الطائفي، فالسقوط بنظر الدليمي، تجاوز سقوط المكان الى ماهو افدح، الى سقوط اخر تعلق بالقيم والافكار وسيادة القوى الظلامية، سابرة عبر شخصياتها النسائية بالذات، الكثير من تلك الايام الصعبة ولياليها الموجعة، بما فيها الايام التي عاشتها بالفعل الكاتبة ببيتها في بغداد، ساردة ازمنة السقوط المتعددة ماقبل ومابعد الاحتلال،فالالم الانساني هنا، حسبها، موصول وغير منقطع. كما يستهل الروائي علي بدر في (حارس التبغ) تنامي احداث روايته ، بمشهد جثة وجدت بالقرب من نهر دجلة ببغداد عام ٢٠٠٦، جثة رجل مر بمراحل عديدة، هي بمثابة أختصار لتحولات العقود العراقية الاربعة الاخيرة، بتناقضاتها الحادة وأمزجة أفرادها المختلفة، ملقيا الضوء ايضا على طبيعة الفرد، واثر هوية الطائفة ، او بلواها في احيان عليه، إذ تصير سببا للابعاد القسري والهجرة والخوف، خصوصا حينما تختلط بالمزاج السياسي وتدافع المصالح، كذلك يصور احمد السعداوي في روايته (انه يحلم او يلعب او يموت) بعض المشاهد اليومية الصادمة التي حصلت بعد سقوط النظام مباشرة حين يقدم برؤية سوداوية قاتمة، مشوبة بسخرية مرة، ماحصل ، وعلاقة الناس بالاشياء حولهم.

اما (الحفيدة الامريكية) رواية الكاتبة انعام كجة جي فتكشف عن عمق ازمة الانتماء للمكان والتباس الهوية، فثمة تركيز مكثف لصراع العلاقات الشخصية وتحولاتها حتى بين الناس الاكثر قربا ، فمن خلال

شخصية المجندة الامريكية (زينة) ذات الاصول العراقية العائدة كمترجمة مع القوات الاجنبية، تستعاد تفاصيل شتى، كانت منسية وتنفتح هذه، على شكل جروح نفسية جديدة، لدى الجميع، الجدة التي تجاوز عمرها الثمانون والتي تلتقيها (زينة) بظروف غير طبيعة ومتخفية، والعلاقة مع الاخ عبر الرضاعة، الاسير السابق في ايران والمنتمي اليوم لاحدى الميليشيات الشيعية، في هذا النمط من العلاقات الضاجة تستعيد كجة جي، تاريخا مضطربا وقاسيا مرت به البلاد عبر شخصيات متضادة اليوم، لايكاد يجمع بينها جامع راهن، الا وشم تاريخ تحول الى واقع مفترض مليء بالمفارقة والتضاد، تاريخ يتحكم فيه الكبار فقط، فتبدو مصائر الافراد غائمة وعابرة بالرغم من الاهوال والعقد النفسية التي تعيشها وتصارعها...

يدون نصيف فلك من جهته في روايته الثانية ، وعنوانها(عين الدود) صورا عدة من تلونات العنف العراقي، معيدا العنف الجاري لصراع الايدلوجيات السياسية في المكان العراق الراهن، ففي لغة تتميز بالسخرية،مما حصل ويحصل، يذهب منوها بالصراع الطائفي الى قوتين سياسيتين جارتين توجهان مصائر الافراد الذين روعتهم تفاصيل المحنة، ف(الدود) هو الملاذ في رواية فلك، والعنف هو عنف موصول منذ ايام الحرب العراقية الايرانية وصولا لعنف مابعد الحرب الاخيرة واهوال ما أفرزته ، حيث يتهندس الموت بعد ذلك وينتظم اكثر على أيدي من يسميهم(المجاهدون) في الرواية، الذين يتفنن ذباحوهم بتعذيب الضحايا وأستخراج احشائهم وهم احياء. مارا بالعنف المقابل ، عنف روع البلاد برمتها وأدخلها في اتون احتراب طائفي او كاد.

.

يمايز الناقد والروائي الايطالي المعروف أمبرتو إيكو بين معنيين اساسيين لهما صلة برغبات الكاتب وطبيعة عمله من جهة، وبين ظروفه المحيطة من جهة أخرى، باعتبارهما مفهومين يتعالقان، بقدر ما هما إشكاليان، نتيجة ما بينهما من تقاطعات أو التباس. أجاب مرة، عن سؤال بسؤال آخر، وهو ما مدى قدرة الادب وإمكاناته، وما هي كفايات الحرية وقوة تحملها وصلابتها؟ ما الذي ينجزه الادب وما الذي تملكه هذه الحرية وتتيحه للكاتب؟

من هذه الجهة وبوضوح، لا يسمح التراث المعاصر للسرد العراقي (كظاهرة)، مقارنةً مع غيره في بلدان أخرى، بتوفير معطيات حية لرؤية أي ناتج لهذه العلاقة ولا للانكشاف على أي قراءة تسعف في الركون الى شيء يسير منها طوال العقود الماضية. يغدو الموضوع أكثر تعقيداً حتى عند التطرق الى مفهوم الحرية ذاته كفكرة مستحدثة نسبيا اليوم وعلاقتها بالانسان، ومدى قدرتها على حماية الناس في التعبير عما يريدون. وفي

الاساس من ذلك، رغبة الكتابة في التعبير عما تراه وما تستلهمه من ذلك الواقع، حياة الناس والعلاقات بين البشر داخل المجتمع، وبينهم وبين آخر قريب مثلاً، وخصوصا أن ثمة قيوداً نفسية وداخلية ماضوية لا تزال قابعة حتى الآن في الذات وتعوقها من البوح او الخوض في كل شيء. فضلا عن ذلك ومن ضمنه، تعدد الرقابات العامة والمجتمعية وتعدّيها على هذه الحرية، بل وتواطؤ الرسمي في أحيان مع هذه الرقابة.

حدّثني روائي وكاتب عراقي معروف كيف أن روايته مُنعت في اللحظات الاخيرة من الطبع في دار نشر ثقافية رسمية كبيرة، بعدما أجازها الخبير، لمجرد وقوع عامل المطبعة، مصادفة، اثناء التصحيف، على إسم عشيرته في الرواية، ما فسّره هذا مسّاً بها، او تجاوزاً على حرمتها، وهي القضية التي أثيرت في حينها وتناولتها وسائل الاعلام، ثم خمدت بسرعة.

تسطع مثل هذه الرقابات بسهولة، حين يتاح لها، وتجد حين تريد ظلاً وحماية، رقابات افقية تمتد بحجج وذرائع مختلفة، وتحركها التابوات ذاتها التي لم تنقرض، مضافاً اليها ما تفجر من مكبوت العادات والاعراف والطقوس الجمعية.

لا يمكن في كل الاحوال إغفال التماثل المأزوم ايضا في العلاقة مع ما يجري في الواقع ونظرة المثقف لما حوله اليوم ولما يمكن ان يفعله ولو بالقدر الذي تتيحه الفرص القليلة التي تحققت، سواء من خلال تأمل ما حصل، او استيعاب التحولات التي خلقتها تداعيات الزلزال العراقي في الممارسة اليومية وفي الحياة.

فنظرة جدية الى المتن السردي الطويل في الادب العراقي طوال الفترة السابقة، تستدعي سؤالاً شبيهاً، سوف يظلّ يرنّ، ويتعلق برؤية الكاتب لمستقبل كتابته، تماما كالسؤال الذي ظل معلقاً في البحث عن الكاتب نفسه، عن لحظات اختلائه وتأملاته، عن افكاره ورؤاه،: أين يجب ان يكون والى ما ينظر؟ ما هي مؤهلات الكتابه لديه، وما هي المواضيع التي يقع اليها؟ الى ماذا ينحاز. وفي الضرورة، ما هي الفضاءات التي ينخلق من خلالها نصه؟ أن ما أنتج من نصوص وكتابات، وما تم إصداره ومناقشته، يلقي بظلاله على طبيعة تلك الازمة الحادة التي تتعلق بنظرة الكتابة ومستوياتها وعلاقاتها بالمناخ العام . مع ذلك، لا بد من الاعتراف قبل كل شيء بالقطيعة الاساسية التي اعترت علاقة الادب بما حوله بشكل عام لسنين طويلة حتى الآن. لا بد من الاعتراف بالوسائل الاجرائية التي وقفت في طريق هذه العلاقة، بموضوعة الحرية نفسها في العراق. لا يتعلق الامر بالسياسة وحدها، بل بالمخبوءات المجتمعية، بالضغائن والقيم المحنطة، وقبلها بمدى جرأة الذات في كشف ذلك وملامسته. تلك القطيعة أوجدتها المركزيات الابوية المطلقة

على كل شيء، وخلخلت الكثير من المفاهيم والاحكام الثقافية وجعلتها في مهب الريح، وهي سيطرة لا تزال آثارها باقية حتى الآن بصورة من الصور، في السلوكيات العامة وفي نمط العمل الثقافي، في طريقة الاداء، وفي العلاقات بين الافراد. حتى أن سؤالا بسهولة من الممكن ان يتردد الان، مثل هذا: من قال ان صدام ذهب؟

مع ذلك كله، لا مناص من إعادة تأمل كل شيء، بما في ذلك هذا الترابط الجدلي ما بين النص بسماته المتحققة كنوع قابل للقراءة الدائمة، كنوع يشابه الوثيقة او يقاربها (لخصوصية الموضوع العراقي على الاقل)، وما بين الحرية التي تحددها ظروف الواقع، والتي تتجلى اول ما تتجلى بعلاماتها ومعطياتها الطبيعية في الكتابة. مع بديهية ذلك، الا أنه يمكن تحديد معوقات أخرى تتعلق خصوصا في التراث الهائل الذي حوى قيماً ثابتة ومقدسة أعاقت تطور هذه العلاقة مع الحرية بمعناها الدقيق.

في العموم، ليس من السهولة الركون الى مشروع كتابة نصية وإنسانية استنهضت قوتها من داخلها ومن معطيات الحال وافتراضاتها، وأستطاعت أن تتواءم مع جدوى العلاقة التي افتتحنا بها السؤال الاول: ما حقيقة العلاقة بين الادب/ النص والواقع؟

في إمكاني أن أقول إن ما حدث ليس سارّاً دوماً، بالرغم من انني اعرف الظروف، وأعرف كيف صارت الكتابة في ذاتها محنة، أو مهمة عسيرة، تستدعي الكثير من التحدي الشخصي ومواجهة الذات مع ثبات سؤال الجدوى الدائم، ذلك الذي يلاحق مصير كل فعل خلّاق خالص، ويطرح سؤال المعنى نفسه بقوة في الحاضر، كلما تحسس المرء أنفاسه أو نظر الى ما حوله من أشياء، سائلاً للمرة الاخيرة عن معنى هذا الكم الهادر من الكتابة المستمرة، عن الكتب والاوراق، عن اللغة السائحة التي تتردد مدويةً عبر الزمن!

الشيخ معروف النودهي

اعداد: المشرف على التحرير

ولد الشيخ معروف النودهي في عهد المماليك في العراق قبل ثلاث سنوات بدأ عهدهم بعد نهاية حكمهم سبع سنوات، فالحياة في تلك الفترة تعج بالصراعات والاضطرابات والفتن بين الدولتين العثمانية والفارسية، وكانت الامارات الكردية مسرحا لتلك الصراعات بل ضحية للجشع السياسي والاختلافات لتلك الدولتين عامة والمماليك وحاشيتهم خاصة، لقد انعكست هذه التناحرات حتى في عوائل الامراء والمتنفذين، وانقسمت الاسرة البابانية على نفسها وتنافس امراؤها على الزعامة، مما سبب المصائب والالام والتخريب واشاعة روح اليأس بين الناس. فالشعب الكردي في هذه الفترة القصيرة الحيوية من تاريخه الحديث لم يعرف للراحة معنى ولم يذق طعم الطمأنينة ابدا، واحيانا يعم الوئام والسلام ربوع الامارات وتخطو.

هو الشيخ محمد ابن السيد مصطفى ابن السيد احمد بن السيد محمد الشهير بكبريت الاحمر، ابن السيد علي ابن السيد بابا رسول ابن السيد بابا ابن السيد قلندر ابن السيد عبدالسيد بايزيد ابن السيد عبدالكريم ابن السيد عيسى البرزنجي النوربخشي الذي هو اول من سكن شهرزور وتوطن بها والسيد عيسى هو ابن السيد بابا علي الهمداني المتوفى سنة ٧٨٤هـ-١٣٨٢م في همدان، وجاء السيد عيسى مع اخيه الامير موسى الى منطقة شهرزور فعمروا قرية برزنجة وبنيا مسجدها، والبرزنجي نسبة الى برزنجة.

ولد النودهي سنة ١١٦٦هـ-١٧٥٢م في قرية (نودي) الواقعة شرقي مدينة السليمانية على مبعدة ستة كيلومترات ونسب اليها، لقد تعلم النودهي قراءة القرآن والكتابة بالعربية والفارسية وشذرات من النحو والصرف والفقه والادب على يد والده الذي كان عالما في (نودى)، ثم حمله والده الى العاصمة البابانية قلعة جولان وادخله في المدرسة الغزائية، حيث تلقى العلوم العربية عند الملا محمد الغزائي الذي كان مدرسا انذاك، لقد بدت عليه في تلك الفترة امارات الجد والذكاء والسعي

الدؤوب، وبعد مقتل سليمان باشا قصد النودهي قرية (هزارميرد) الواقعة غربي مدينة السليمانية وتلقى تحصيله العلمي في النحو والمنطق والعقائد من العلامة الملا محمد المعروف بان الحاج، والتقى ابن الحاج بالعلامة عبدالله البيتوشي وقرأ له رسائله الادبية وقصائده فاستفاد من علمه الجم وذكائه المتوقد، عاد النودهي الى المدرسة الغزائية بقلعة جوالان ومكث بها الى ان نال منه الاجازة العلمية، وبعد سنة ١١٨٥هـ-١٧٧١م رجع النودهي الى قرية هزارميرد والتقى مرة اخرى بالبيتوشي وعب من علمه الغزير، حتى اخذ منه الاجازة في بعض العلوم بعد حصوله على اجازات علمية، عاد الى قرية (نودى) وشرع يدرس طلاب العلم الملتفين حوله من كل الانحاء، حيث يستنسخون رسائله ومنظوماته ويحفظونها عن ظهر قلب، فتنشر في ارجاء كردستان ويذاع صيته.

لقد درس النودهي خيرة افاضل عصره، فاغترفوا من ينبوعه الفياض الرائق وامدهم بما عنده من العلوم، وكانت حلقاته التدريسية عامرة، ومن اشهر تلامذته: الشيخ حسين القاضي، الشيخ محمود النقيب البرزنجي، معروف الخرباني، الشيخ عبدالرحمن الطالباني، المفتي الزهاوي، الشيخ احمد النودهي، رسول البرزنجي، الملا احمد المفتي...الخ.

وقد تلقى النودهي علوم عصره من اساتذة كبار، لتنقله بين المدارس، لكن اشهر هؤلاء: والده، الشيخ مصطفى بن احمد الغزائي، والبيتوشي، وابن الحاج، الملا محمد الغزائي.

وقد ترك النودهي تراثا غنيا من المنظوم والمنثور، وهو حصيلة ستين سنة من التدريس والتاليف، اما الشعر فقد نال الحصة العظمى وهو نوعان: الشعر الذي يعد من التراث الادبي وهو مقطوعاته او مخمساته او مشطراته او قصائده الشعرية، ويتضمن المدائح النبوية والبديعيات الخاصة بمدح الرسول وتعداد فضائله ومناقبه ومناجاته، وكان يجاري سابقيه من الشعراء الذين مدحوا الرسول وذادوا عن صحبه الكرام ونبوته العظيمة سائلين الثواب والاجر ونيل البركة والرحمة، لقد ترك النودهي النثر بجوار الشعر لكنه على مسافة اضيق، اما جل اثاره فهو:

-التعريف بابواب التصريف، تنقيح العبارات في توضيح الاستعارات(منظومة مؤلفة من مئة وخمسة وستين بيتا نظمها سنة ١١٨٣هـ)، فتح الرحمن في علمي المعاني والبيان (يتكون من اثنين وثمانين وثماني مئة بيت)، عمل الصياغة في علم البلاغة (وهو نظم لكتاب تحرير البلاغة لابن ادم)، غيث الربيع (منظومة تتناول الفنون البديعية، صاغ النودهي على بحر الرجز منظومة ابن جابر الاندلسي)،

شرح تنقيح العبارات (شرح لمنظومته تنقيح العبارات)، ترصيف المباني (وهو نظم لكتاب تصريف الزنجاني)، منظومة العروض... وعشرات من الكتب الاخرى. توفي النودهي سنة ١٢٥٤هـ-١٨٣٨م عن عمر مديد يبلغ ٨٨ عاما.

المصادر:

-الجوانب البلاغية عند النودهي: د.رؤوف عثمان معروف.

-علماؤنا في خدمة العلم والدين: الشيخ عبدالكريم المدرس.

الرسالة والشخصية الابداعية بين

القيسي و بيگەرد

اخي وحبيبي رؤوف بيگەرد المحترم

تحية حب..

كنت وانا في الطريق الى السليمانية بعد غياب عقد ونصف من الغياب الذي اخترقنا جميعا رغما عنا، كنت اناغي نفسي، وافكر فيكم مرددا: آخ يا قلبي المستوحش يا من تخبرني بطريقتك الخاصة الاسرار، وتضع النقاط على الحروف... انت وحدك لديك حدوساتك كما للعقل حدوساته.. اخبرني، يا قلبي كيف سأراهم؟ ويرونني؟ هل سأعيش فرحا ملونا مثل الموشور؟ كنت والسيارة تنهب الطريق اكلم نفسي تارة، وانظر الى الطبيعة الكردستانية التي حرمت من روعتها سنوات... كنت اسبح في ضباب احلامي. ولان الحب كما تقول اغنية اسبانية لايعرف ابدا قانونا، توقع قلبي كل شيء بطريقة صحيحة. استقبلت من قبلكم جميعا بفيض من اللوعة، والعذاب المرح، والهذيان بسبب تفجر ينابيع اللذة الروحية، وذاك الوفاء النبيل والعنيد الذي ظل عبر الزمن متينا مثل الحبل المبلول، ولم نستطع ابدا الفطام عن البعض...

اتعرف ياحبيبي رؤوف ان العالم المحسوس هو عالم ناقص؟ عالم ذو بعد واحد؟ هناك عوالم لامحسوسة، وهي في الحقيقة غنية ولا نستطيع ان نصلها الا عن طريق الحواس، والخيال، والمشاعر... مازلت لحد هذه اللحظة اعيش عن طريق الحواس والخيال منكم... هل تؤمن ان الحب ضرب من الدين؟ والا لماذا نذوب فيه... آه، لن انسى مهرجان دوكان، كان كل شيء يؤكد انه مهرجان الاحتفال بكردستان الاسمى بعد اندحار الفاشية المقيتة

الى الابد... كنت اقرأ في عيون ووجوه الجميع طقوس التوغل البعيد في دهاليز المسرات الروحية والجسدية. كانوا كما لو انهم يكتشفون ضربا من الفرح الحقيقي الجديد. الفرح الذي يجعل الانسان ان يكون في قلب الحياة تماما على طريقة احتفال اليونان بالطقوس الديونيزوسية المقدسة..

حبيب قلبي رؤوف الذي وجدتك بعد عقد ونيف على نفس صداقتك المتينة، والرائعة، بل اكثر من هذا، على جانب ساحة من اللهافة، والنعومة، والدقة، والوقار الجميل.

قصتان ارفقهما لك صحبة رسالتي هذه الواحدة مهداة للشاعر الكبير شيركو بيكس بعنوان (مسرطنة بالوهم)، والاخرى لك بعنوان (احماض الخوف)، امل ان تاخذا طريقهما الى المجلة التي تجرون الاستعدادات لاصدارها باللغة العربية، وهي في قناعتي غاية في الضرورة سيما الان. الاولى كتبتها بعد تعرفي على فتاة عابثة، وكنت في واحدة من اسوأ ازماتي السايكولوجية سأقول عنها عدة كلمات سريعة. ان بطلة قصتي-مسرطنة بالوهم-فتاة خالية من الطموح، خيالية، لديها عواطف وافكار شرسة تحدث لديها انفجارات هستيرية، وتمتلك ارادة انثوية... مثقفة جدا لكنها مع ذلك تعاني احيانا من فقدان الارادة، مصابة بهوس بحب الفلسفة المثالية، والانطواء العصابي، واخيرا سحاقية... اترك القصة للمبدع شيركو بيكس.

اما القصة المهداة لك-احماض الخوف-اتركها لوعيك اخالني سوف تقدر عاليا حزنها النبيل، وعذابها المبجل وسط مصابها المجاني المريع..

مع وافر محبتي لكل من يعرفني في مدينتكم الحبيبة، وخالص حبي وتقديري للاسرة الكريمة، ودم يا رؤوف صديقا مبدعا، ونبيلا، وطيبا مع عظيم تقديري.

جليل القيسي

كركوك

في ٢٠٠٣/٤/٢٧

اخي وعزيزي كاكه جليل القيسي
سلامي وتحياتي

لا اخالف ما ورد في رسالتك باننا معشر الادباء نعيش كثيرا على المزاج واحيانا لحد التعاسة. ليس لاننا لا نشعر به، بل لانه تأصل نتيجة تعاملنا المستمر مع الحالات المتباينة والشخوص المشطرة لحد الازدواجية. والا فما ذنب راسكولينكوف عندما يستحثه ديستوفسكي ويسلمه الفأس ليقتل وهو اصلا ليس بقاتل ولا يعرف لماذا يرتكب الجريمة والدليل هو ما يقوم به من قذف النقود والذهب الذي حصل عليه ومن ثم هذا المرض الرهيب عضويا ونفسيا الذي يلاحقه ويهز به واحلامه العاصية على الفهم. ان عتابك في محله، واقولها صراحة بانني احبك كثيراولم افكر في يوم من الايام ان يذوب او ان يقلل عن خاطري بل انا متأكد من خلود هذا الحب الجميل. ولكن كما قلت سابقا لا استطيع ان ارسم خريطة لملاحة صعبة من بحار الغد. والايام التي كنت موجودا عندنا لم تساعدني حالتي النفسية للتواجد في السهرات والسفرات (الجمات) وبصراحة كاملة في كثير من الاحيان ولاسيما في الاونة الاخيرة لا احب الظهور في الجلسات الرسمية التي يختلط فيها الحابل بالنابل وتصادف وجوها مقرفة ليس من الضروري ان اعاني النظر فيها، لا احب اكثر من ٤-٥ اشخاص من امثالك اذا كان ممكنا.

قرأت ثلاث روايات لايتالوكالفينو بالفارسية هذه الايام.

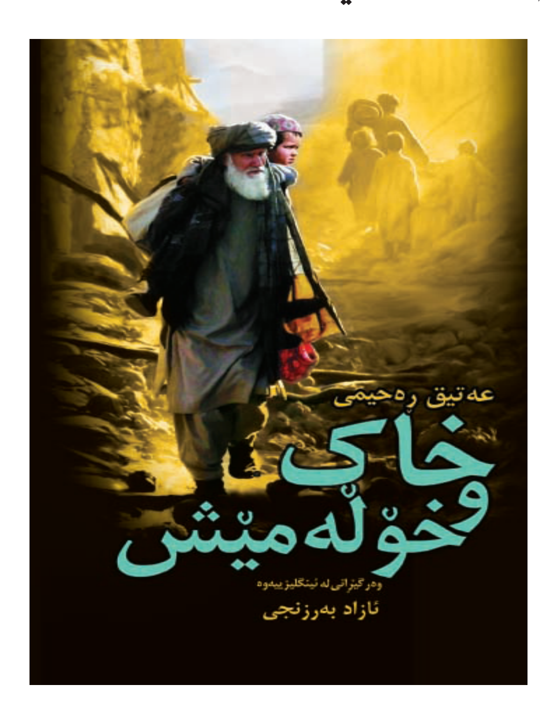
(فيسكونت المشطر، نبيل الغير موجود، بارون المعلق او بارون على الشجرة) كالفينو كاتب عملاق لا يشبه الاخرين في تخيلاته العجيبة وموسيقيته المفلتة للنظر والمندهشة. انه كما يدعي يكتب تاريخ السلاسات الاوروبية، ولكن بعيدا عن الواقع ومعتمدا على الفنتازيا الرهيبة.

(رجل يعيش ٥٣ سنة على الاشجار بدون ان تطأ قدماه الارض، يمارس حياته فوق الشجرة-الاشجار-ويمارس مجالات حياته الفزيولوجية والعاطفية ويشارك الناس في حياتهم اليومية ومشاكلهم، يقرأ بنهم لفولتير وروسو، ويشارك في رد الاخطار التي

تواجه المنطقة كالحرب وتهاجم الذئاب). وقرأت مجموعتين من قصص الكاتب الامريكي ريموندكارفر الذي يسمونه بخير خلف لهمنغواي. وقد مات نتيجة ولعه وادمانه على الخمر والسكاير، وهل يوجد من مبدع لا يشرب الخمر؟ ان مظهر قصصه يختلف عما هو في الجوهر. يتكلم بصمت اذا جاز التعبير. العالم ملأى باجمل الكتاب والكتب ياجليل ونحن-اقصد نفسي فقط-محروم منه، مع شديد الاسف شعبنا يبدع في اصابة الهدف بالطلقات وليس بالكلمات وهو غافل عن ان بيتا من الشعر الجميل يستطيع ان ينقذ عالما بكامله كما يقول كازانتزاكيس. شيركو وشيرزاد وازاد وريبين والعائلة يسلمون، تحياتي لام اسامة واسامة ماذا فعل لوظيفته. مرة اخرى... قبلاتي..

اخوك
رؤوف بيگەرد
السليمانية
٢٠٠٤/٧/٢٦

اسم الكتاب: الوطن والرماد
اسم المؤلف: عتيق رحيمي
اسم المترجم: ازاد البرزنجي



عرض: سردم العربي

احدى الثقافات التي اصبحت موضع انظار الوسط الثقافي والادبي الغربي في الاونة الاخيرة هي الثقافة الافغانية، ذلك لان المجتمع الافغاني هو نموذج تلك الصراعات السياسية والاجتماعية التي حصلت نتيجة اصطدام الدين الاسلامي وخصوصا الاسلام العنفوي مع الحداثة.

طيلة ثلاثين عاما مضت، كانت افغانستان بؤرة لشتى صراعات ونزاعات سياسية، حيث احدثت هذه الصراعات كوارث جمّة، والتي استمرت حتى يومنا هذا. من هنا فان الواقع المذكور لافغانستان اصبح سببا لولادة وابراز مجموعة اعمال ادبية، اذ استطاعت

تلك الاعمال بدورها ان تجذب انظار الغربيين صوبها.

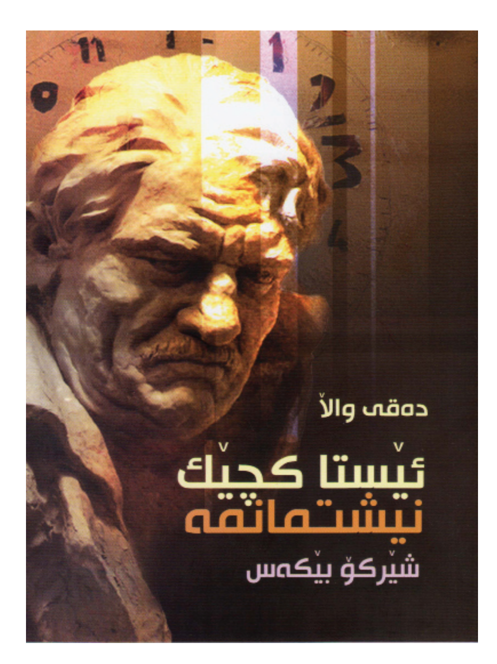
كانت الحرب محور كثير من روايات الكاتب (عتيق الرحيمي). وان شخصيات رواياته كانت بشكل من الاشكال ضحية الحروب.

ومن الجدير بالذكر ان الروائي (رحيمي) استخدم رموزا عدة بشكل حاذق، منها السبيل التي يقطعها كل من داكيرستاكير و ابن شقيقه ياسين، والتي يمكن ان تعتبر رمزا مومئا لذلك التاريخ المرير الذي مرّت به افغانستان، وخصوصا في ثمانينيات القرن الماضي. وذلك لان جل احداث هذه الرواية تتبلور حول هذه السنوات.

الان، فتاة هي موطني

عرض: سردم العربي

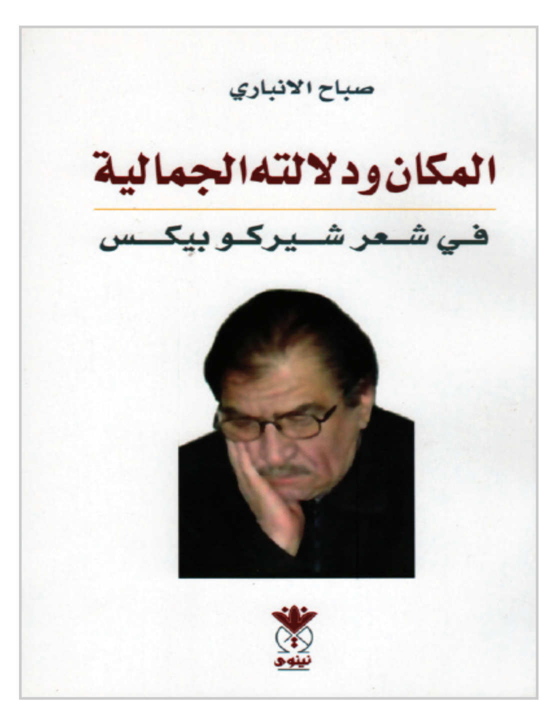
ديوان جديد للشاعر المبدع شيركو بيكس، يتحدث الشاعر عن هموم شاب يطيف في شوارع مدينته مضجرا عما حوله للاشياء التي تجري في حياته اليومية، انه يمر بتجربة مريرة، يعيش في ايام لا يطيق اتعابه ولا يثمن مجهوده، انه ممثل للشباب الماثلين في هذه الساحة.



لقد عرف عن الشاعر انه يقرظ وطنيته في قصائده، انه يعد خدمة الوطن من اولويات اعمال الانسان في الحياة، بل يعدها الشيء الوحيد الذي هو موضع افتخار الانسان في كل زمان ومكان. لقد بدأ هذا الشاعر الفذ مشواره الوطني والقومي ايام ان كان بيشمركة في اعالي جبال كردستان، وكان انذاك البطل الامثل في قصائده هو البيشمركة لاغير. اما الان وبسبب تغير الظروف اذ اصبحت للكرد حكومتهم وحدودهم القومية والادارية اذن فعليهم ان يخدموا ابناء جلدتهم قبل الاخرين.

يتمحور بيت القصيد في هذا الديوان على هذا الموضوع الرئيس. ولكن بسرد ونصاعة فريدين. يذكر ان هذا الديوان طبع بدار سردم للطباعة والنشر.

اسم الكتاب: المكان ودلالته الجمالية في شعر شيركو بيكس
اسم المؤلف: صباح الانباري



عرض: سردم العربي

صدر عن دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، كتاب (المكان ودلالته الجمالية في شعر شيركو بيكس) لمؤلفه (صباح الانباري). يتحدث الكاتب عن دلالة المكان وجماليته في قصائد شيركو بيكس، لان بنية المكان استأثرت في قصائد شيركو بيكس بحيز وسع اشتغاله دلالاتها الجمالية، ومخزونها الايحائي، والميثولوجي، وطاقاتها التحويلية، والانتقالية، والارتقالية، فضلا عن كثافتها التي منحت شعر شيركو هوية كردستانية، وروحا كردية خالصتين، ومحلية انفتحت افاقها على مساحات انسانية شاسعة.

الكتاب اذن هو بحث في جوهر المكان وجمالياته، وفي خزينه الذاكراتي واسترجاعاته الصورية، وفي تفاعله مع الحدث وتداعياته، وفي سيرته المنفلتة من قيود التاريخانية ومحدداتها وموجهاتها الملزمة، وانصهاره في بوتقة الروح الشيركوئية، وتوحده مع سيرة الشاعر الذاتية والحياتية، واندماجهما في سيرة شعرية انذابت بينهما الفواصل والعواذل، واغنتنا عن البدء بالسيرة التقليدية الجاهزة التي درج الكتاب والمؤلفون على وضعها في فواتح دراساتهم، وبحوثهم، ومؤلفاتهم.

اسم الكتاب: دراسات معمقة في قانون الاعلام
اسم المؤلف: د.سامان فوزي عمر

عرض: سردم العربي

صدر في الاونة الاخيرة، ضمن سلسلة الكتب العربية لدار سردم للطباعة والنشر، كتاب (دراسات معمقة في قانون الاعلام) لمؤلفه (د.سامان فوزي عمر). يركز الكاتب في مؤلَّفه هذا عن النقاط الاساسية التي تهم الاعلاميين والمتخصصين في مجالي الاعلام والقانون الاعلامي. واليوم نحن الكرد والعراق الجديد بامس الحاجة الى مثل هذه الدراسات التي تعنى بمثل هذه المجالات.

تتألف الكتاب من خمسة بحوث: حق النقد، دراسة تحليلية في شروط استعماله. الحماية المدنية لحق الانسان في ان يكون منسي السوابق. واقع حرية الاعلام في القوانين المنظمة للعمل الاعلامي في اقليم كردستان العراق. اساس وطبيعة المسؤولية الجنائية لمالك ورئيس تحرير الصحيفة. الحماية القانونية لحق الانسان في صورته.



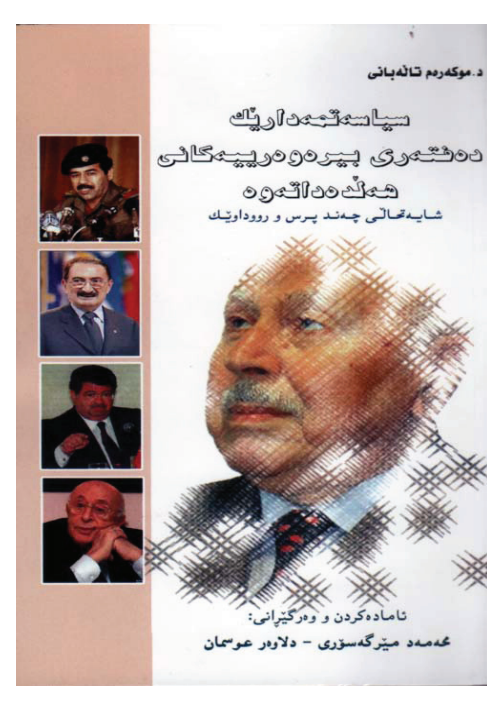
الدكتور مكرم طالباني
سياسي يتصفح دفتر ذكرياته
شاهد عيان على وقائع

اعداد وترجمة: محمد ميركسوري ودلاور عثمان

عرض: سردم العربي

لقد برز بين ابناء الشعب الكردي الكثير من الشخصيات، لهم دور وفاعلية في المراحل المتعاقبة من تاريخ شعبهم وتاريخ العراق والمنطقة باسرها. ان د.مكرم طالباني قد برز في الساحة السياسية العراقية وأدى دورا مؤثرا وقد تسنم عدة مناصب حكومية في الحكومات العراقية المتعاقبة. ولم يدخر وسعا عن استعداده الكامل لبذل الجهود المضنية لشعبه. ان هذا الكتاب هو يكشف النقاب عن كثير من جوانب حياة هذا الانسان السياسي، وخصوصا لقاءاته مع الطاغي المخلوع صدام حسين ومحاولة اقناعه بتعويض المؤنفلين انذاك.

يذكر ان هذا الكتاب طبع بمطبعة مكتب الاعلام المركزي للاتحاد الوطني الكردستاني.



الناقد لقمان محمود في مراتب الجمال
قراءات للشعر الكردي الحديث

الكتاب: " مراتب الجمال: قراءات في الشعر الكردي الحديث"

المؤلف: لقمان محمود

الناشر: دار سردم للطباعة والنشر، كردستان – السليمانية ٢٠١١

الصفحات: (١٦٨) صفحة من القطع المتوسط.

عرض: سردم العربي



صدر حديثاً للشاعر والناقد الكردي لقمان محمود كتاب نقدي، حمل عنوان "مراتب الجمال: قراءات في الشعر الكردي الحديث".

بإطلالة بانورامية على المشهد العام للكتاب، سنتوقف عند تجربة الشاعر شيركو بيكه س، من خلال دراسة موسومة ب "دوائر الايقاع في تجربة بيكه س اللونية"، حيث يرى الناقد أن الحواس البشرية لها قابلية فذة على تمييز ما لا يقل عن سبعة ملايين من الالوان المحتملة، وعلى الرغم من هذه القابلية فإن اللون في ديوان (دورق الالوان) يعتبر ألوانا مختلفة الأسماء، لكنها متشابهة الاهداف، ويعود السبب في ذلك إلى تجربة شيركو الشعرية التي تجاوزت بشموليتها ما هو خاص الى ما هو عام، وما هو فردي الى ما هو انساني.

تجربة لقمان محمود النقدية لها خصوصيتها في استثمار رغبة اللغة في اكتشاف الطاقة الابداعية من مستوى الضرورة الى مستوى الحرية، كما في دراسته عن الشاعر طيب جبار. فيقول: الشاعر يكتب وفقا لايقاع أحاسيسه، وما تقدمه هذه الاحاسيس من رؤى وطروحات مما تحمله نبض الحياة الجديدة اللامبالية، بمنطق يتسلل من خبرة شعورية صادقة، ضمن سياق تجربة حقيقية للشعر، تجسد صوت الشاعر وتثبت ملامح خصوصيته.

يتحدث الناقد عن الشاعر والروائي عبد القادر سعيد من خلال العنصر الدرامي في تجربته الشعرية، فالشعر بنبض بمشاعر الحب، الحلم، الذكريات، الأمل، الانتظار، الشوق، وعن امور أخرى يوحد رغبته في الحرية.

إنه الأشد استيعابا لكل الاحتمالات التي يقيس بها الشاعر قوة الأمل، والانعطاف بها باتجاهاتها المختلفة، كرغبة حقيقية في مواصلة الحلم البشري.

كما يتناول المؤلف شعر الشاعرة دلشا يوسف من خلال مجموعة (شمال القلب)، فيرى أن الشعر عند هذه الشاعرة جزء من ذاتها، وجزء من وعيها، وجزء من قوتها، وجزء من نضالها، وان ما حققته الشاعرة في مجال الابداع الشعري والترجمي، دليل على ان الشعر شكل من اشكال الحوار، وطموح نحو بلورة شخصية القصيدة النسوية.

ولعل قصائد الحب في مجموعة الشاعرة هي التعبير الامثل عن مدى ما تختزنه المرأة في داخلها من مشاعر واحاسيسن كما في قصيدة "القلب" المكتوبة بوعي انثوي لافت وبلغة انثوية بامتياز:

شمال قلبي هو

في عينيه
أروّب عسل مرار الحب
شمعتي هو
في كل ليلة
حين تكون اماسي الوحدة ملتقاي
ذات يوم في غرة الخريف
وقد نديت الارض بالرهمة
اضعته من دون وداع
هناك
في شمال القلب!

إن ما تقوم به القصيدة هو تفعيل الرؤية كما في تجربة الشاعر جلال زنكابادي، الذي ينقل تجربته من خصوصيتها الذاتية الى العام، وكأن الشعر استعادة أزلية لفكرة الحب، بوصفه شكلا من اشكال الابداع. وكأن الحب في أوجه من وجوه دلالته هو الشعر، كما في قصيدة "ساحرتي كفى غنجا":

ويظل شاعرك الولهان
ينشج متحسرا:
أواه يا جمال الجمال
أي جدوى، ان خلدتك
هذي القصيدة
نقشا على أمواه سيروان؟
ألف أواه!

الى جانب ذلك تناول الناقد العلاقة السرية بين الحب والشعر في تجربة عبد الرحمن بامرني الشعرية. فيقول: تجربة الشاعر بامرني تشكل منعطفا هاما في التأسيس لهذه الرغبة ببعديها الفني والانساني، من خلال العلاقة السرية بين الحب والشعر. و كأنها مزيج من اللحظة الانسانية الدائمة والمشتركة، بين نداء وجع الاعماق وبين ألم القصيدة.

أما عن تجربة الشاعر الكردي السوري فرهاد عجمو، فيقول: الانسان الكردي ما زال يحاول أن يفهم العالم الواقعي ويكتشف حقيقته، في حمى الخوف وفقدان الأمل:

بعد أن أخرجوا
الورقة البيضاء من جيبي
قالوا لي:
لو لم تكن الورقة بيضاء
لكانت تهمتك أخف!

في ظل هذه الظروف الواقعية، تذهب قصيدة عجمو الى حدود رؤية الالم في صورته الحقيقية، لكشف تفاصيل قابلة أن تكون قد وقعت مع أي شخص كردي حالم بعالم أكثر عدلا وجمالا وسلاما.

على ضوء هذه المتلاحقات يقف الناقد أمام تجربة عبد الله طاهر البرزنج البارع في التقاط الصور الشعرية التي تساعده حساسيته على الامساك بالنقاط المضيئة في أكثر الاماكن عتمة. فقصيدة البرزنجي – والكلام للناقد لقمان محمود- تنهض كنوع من التحدي لاثبات التميز والخصوصية، حتى باتت تشكل علامة فارقة في مسيرة الشعر الكردي الحديث.

هذا الى دراسة قيمة بعنوان (سديم الألم و مأساوية الوجود في ترجمة البازلت لسليم بركات)، وفيها يرى الناقد أن الشاعر والروائي سليم بركات، ما زال يبحث في مجمل أعماله عن الالم المتصل في سيرة الكردي المطعون والممزق، من خلال الاشتغال على المكان، الذي هو اشتغال على شخصية حية يعرفها في الواقع أو في أعماقه، عبر مسيرة ملآى بالفاجع من (مهاباد) الى (حلبجة)، ومن (عامودا) الى (ديرسم) كنزيف واحد في المشهد، وفي المكان.

هذا وتضمن الكتاب ايضا دراسات عديدة تناولت عدة تجارب شعرية ومنها: الشاعر فتح الله حسيني في امبراطورية الخديعة ،المشاعر العميقة في تجربة حسن سليفاني الشعرية، ردم الهوة بين الابهام والغموض في السادن في رحاب المغامرة للشاعر صباح رنجدر، فينوس فائق في طلاء الاظافر صورة متمردة عن الشعر النسوي الكردي، مواضع الالم في تجربة أرخوان الشعرية، طبقات المعنى في هادئة كالكناري مرعبة كالقدر للشاعر كريم دشتي، تجليات الايروتيك في أعلى من الشهوة للشاعر حسين حبش، المرأة في تجربة فوزي الاتروشي الشعرية، الشاعر بدل رفو المزوري يعلن وجع الغربة في وطن اسمه آفيفان، مذكرات زهرة الاوكاليبتوس للشاعرة خلات أحمد، ضغط المعاني المكشوفة في قصائد ديا جوان، مراهقة اللغة والعواطف لعاشق كردستاني، كزال احمد تستدرج الشعر الى جمال أحلامها، وفرهاد بيربال يفتح باب الحوار مع المصادر الثقافية الأخرى.

يُذكر أن الشاعر والناقد لقمان محمود قد صدرت له عدة أعمال منها: أفراح حزينة (شعر) دمشق ١٩٩٠، خطوات تستنشق المسافة: عندما كانت لآدم أقدام (شعر) منشورات النسر الابيض (بيروت) ١٩٩٦، دلشاستان (شعر) دار الحداثة، المغرب ٢٠٠١، اشراقات كردية: مقدمة للشعر في كردستان، سلسلة خاصة بمهرجان كلاويز الادبي الثالث عشر، السليمانية ٢٠٠٩.

31

SARDAM AL-ARABI

A quarterly Cultural magazine in Arabic issued by

Sardam printing & Publishing House

ADMINSTRATIVE BOARD MANAGER

Sherko Bekas

SUPERVISOR OF EDITING

Dana Ahmed Mustafa

EDITOR

lukman Mahmud

ARTISTIC DIRECTOR

BAKHTEAR AWRAHMAN

sardam printing & Publishing House
www.serdam.com

Kurdistan - Sulaimany

سعر النسخة: ٢٠٠٠ دينار عراقي